

الألفاظ الكاملة



الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي



شرح المناجيات الخمس عشرة

الجزء الثاني

تدوين: كريم سبحاني

ترجمة: حيدر الحسيني / وليد محسن

مراجعة وتقديم: محمد الربيعي



دار المعارف الحكيمة
Dar Al maaref Al hikmah

ثمن قراءة الكتاب ذكر الصلاة على محمد وآل محمد وعجل فرجهم 10 مرات بنية
تعجيل الفرّج

شرح المناجيات الخمس عشرة الجزء الثاني

شرح المناجيات الخمس عشرة

الجزء الثاني

آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

تدوين

السيد كريم سبحاني

ترجمة

السيد حيدر الحسيني / وليد محسن

مراجعة وتقديم

الدكتور محمد الربيعي

© جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-151-4

[٢٠١٩م - ١٤٤١هـ]



دار المعارف الكويتية

دار المعارف الكويتية - الكويت

العنوان: لبنان - بيروت - سان تيريز - ستر يحفوفي - بلوك c - ط ٣

تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - mail: almaarf@shurouk.org

تصميم:

علي بزي

إخراج فني:

ماجد مصطفى

طباعة

DB UK

009613 336218

info@dboukart.com

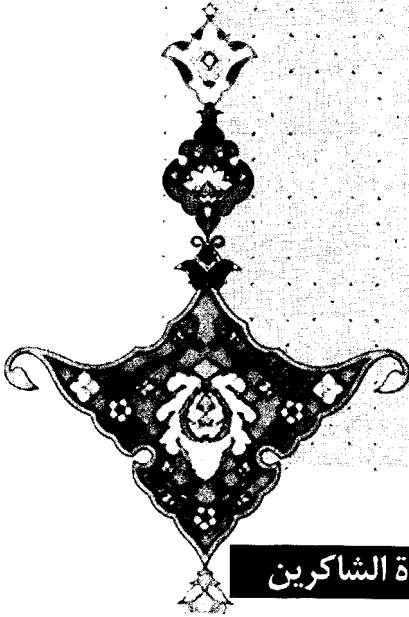




الفهرس

٩	شرح مناجاة الشاكرين
١١	المقال الرابع والعشرون: منشأ وضرورات سُكْر المعبود (١)
٢٩	المقال الخامس والعشرون: منشأ وضرورات سُكْر المعبود (٢)
٤٣	المقال السادس والعشرون: الشُكْر رُدُّ فعلٍ فطري
٥٥	المقال السابع والعشرون: موانع الشُكْر وضرورة سُكْر النِعم المعنوية
٦٩	المقال الثامن والعشرون: بحث في ظاهر السلوك والنِعم وباطنهما
٨١	شرح مناجاة المطيعين
٨٣	المقال التاسع والعشرون: مُناجاة المطيعين
٩٩	شرح مناجاة المريدين
١٠١	المقال الثلاثون: بحث في القرب الإلهي
١١٣	المقال الحادي والثلاثون: رِوَاد مسير القرب الإلهي (١)
١٢٥	المقال الثاني والثلاثون: رِوَاد مسير القرب الإلهي (٢)
١٣٥	المقال الثالث والثلاثون: لمحات من أُلطاف الله وعنايته بعباده

المقال الرابع والثلاثون: مراتب القُرب الإلهي ونماذج من مريدي الله.....	١٤٩
المقال الخامس والثلاثون: أهمّية الحُب ومكانته (١).....	١٥٧
المقال السادس والثلاثون: أهمّية الحُب ومكانته (٢).....	١٧٣
شرح مناجاة المُحِبِّين.....	١٨٥
المقال السابع والثلاثون: مكانة محبة الله والأنس بالمعبود.....	١٨٧
المقال الثامن والثلاثون: نظرة في منزلة القرب من الله تعالى.....	٢٠٩
المقال التاسع والثلاثون: بحث في مفهوم الولاية.....	٢٢٣
المقال الأربعون: الارتباط بين محبة الله تعالى والرضا بقضائه وقدره.....	٢٣٩
المقال الحادي والأربعون: آثار أخرى لمحبة الله (١).....	٢٥٣
المقال الثاني والأربعون: آثار أخرى لمحبة الله (٢).....	٢٧٥
المقال الثالث والأربعون: نظرة في مقامات أحبّاء الله.....	٢٨٥
شرح مناجاة المتوسلين.....	٢٩٩
المقال الرابع والأربعون: مناجاة المُتوسِّلِين (١).....	٣٠١
المقال الخامس والأربعون: مناجاة المتوسلين (٢).....	٣١١



شرح مناجاة الشاكرين



المقال الرابع والعشرون منشأ وضرورات شكر المعبود (١)

المنشأ القيمي للشكر

المناجاة السادسة للإمام السجاد عليه السلام ضمن المناجيات الخمس عشرة هي مناجاة الشاكرين، ونحن جرياً على منهجنا المعهود نبدأ أولاً بالبحث في المفردات الأساسية الواردة في المناجاة. وفي بداية البحث في هذه المناجاة سنتكلم عن

مفهوم «الشكر».

إن مفردة «الشكر» واشتقاقاته تُستعمل بكثرة وتحظى بمكانة بارزة في جميع اللغات. في هذا العصر، يُعدُّ شكر الآخرين - واشتقاقات هذه المادّة - من علامات الأدب في نطاق الآداب والتعامل العرفي، ومع تجاوز ما تحمله هذه المفردات من معنى أدبي وإيجابي في المجتمعات الإنسانية، فإنها تحمل قيمةً أخلاقيةً عامّةً تلتزم بها كل المجتمعات الإنسانية. وهو نظير الصدق، والوفاء بالعهد والوعد والأمانة، التي تعتقد بها كل المجتمعات الإنسانية حتى من لا يؤمن بالدين منها، ويُعامل معها كقيمة أخلاقية.





يرتبط البحث في منشأ اعتبار هذه القيم وسائر القيم الأخلاقية بفلسفة الأخلاق، ومما طُرح في فلسفة الأخلاق، وهو ما يؤمن به بعض أصحاب المذاهب الأخلاقية، أن منشأ الأحكام الأخلاقية ومعيار الصدق والكذب وتبرير القضايا والأحكام الأخلاقية ناتج عن تعاقد وتوافق الجميع، والنتيجة هي أن الحكم الأخلاقي إنما يكون مبرراً ومعقولاً فيما لو اتفق مجموعة من الناس في ظل ظروف وأوضاع خاصة على تلك القاعدة أو النظام المشتمل عليها^(١)، وبناءً على هذا تكون القيمة الأخلاقية أمراً اعتبارياً ونسبياً.

لكن موضوع القضية الأخلاقية في النظرية الأخلاقية الإسلامية عبارة عن مجموعة العناوين الانتزاعية التي تصدق على الأفعال الاختيارية للإنسان، كالعدالة مثلاً، التي هي ليست ماهيةً خارجيةً عينيةً وماهوية، بل هي عنوانٌ يُنتزع من الموقف الصحيح والقيام بالعمل في موضعه المناسب ورعاية حقوق الآخرين وهكذا. والأحكام الأخلاقية هي حقيقةً من سنخ الجُمَل الإخبارية وتخبر عن واقعية نفس أمرية^(٢).

إن قيمة فعل الإنسان الاختياري تابعةٌ لتأثير ذلك الفعل في وصول الإنسان إلى كماله الحقيقي، وكل فعل يكون له قيمة بمقدار ما له من تأثير في تحقيق الكمال، فإذا كان له تأثيرٌ سلبيٌّ فسوف تكون قيمته سلبيةً أيضاً، وإذا كان له تأثيرٌ إيجابيٌ فسيكون له قيمةٌ إيجابية، وإذا لم يكن له تأثيرٌ لا إيجاباً ولا سلباً فسوف تكون قيمته صفراً^(٣).

(١) محمد تقي مصباح اليزدي، نقد وبررسي مكاتب اخلاقي [نقد ودراسة المدارس الأخلاقية]، الصفحة ٧٣.

(٢) المصدر نفسه، الصفحات ٢٢٥ - ٢٢٧.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ٣٢٩.



وفي المنطق تُعدّ القيم الأخلاقية من قبيل العدالة، والصدق، والوفاء بالعهد والوعد، من المشهورات أو المسلّمات، وبتعبير آخر: من الآراء المحمودّة، وهي القضايا التي يسلّم ويتفق الجميع على اعتبارها، وتُعدّ ضمن القضايا غير البديهية التي تُستخدم في الجدل. وبملاحظة أن كل المجتمعات البشرية وفي مختلف الأزمنة تتّجه نحو مثل هذه القيم الأخلاقية وتلتزم بها، يُمكن عدّها من الإدراكات الفطرية الناشئة عن فطرة الإنسان وطبيعته، وهي عبارة عن الإدراكات والميول التي تولّد مع الإنسان وتختصّ بنوعه، لا من الأمور الاكتسابيّة.

وفي المقابل، الفطريات المطروحة في المنطق هي كسبيّة نوعاً ما، وهي عبارة عن القضايا الواضحة التي يحتاج ثبوت المحمول للموضوع فيها إلى دليل، ولكنّ دليل تلك القضايا يكون معها في الذهن ومصاحباً لها. وهذه القضايا البديهية والفطرية تُعدّ كسبيّة من حيث إنّ فهم موادّها وتصور أجزائها بحاجة إلى كسب.

لقد توصلنا من خلال التجربة إلى أنه حينما يقدّم لنا شخص خدمةً ويساعدنا، فإننا نرى أنفسنا مدينين له، وإذا ما عجزنا عن تقديم خدمة له بدورنا، فإننا نرى أن من مسؤوليتنا على الأقل أن نتقدّم له بالشكر، وعدم شكر الآخرين على خدماته يُعدّ من سوء الأدب ونكران الجميل.

أذكر أنّي قبل عشر سنوات سافرت مرّة إلى أمريكا اللاتينية، وكانت لي محاضرة في إحدى الجامعات شارك فيها جمعٌ من طلاب وطالبات الجامعة وأساتذتها، وبعد انتهاء المحاضرة تجمّع حولي عدد غفير منهم وأخذوا يطرحون الأسئلة عليّ. وبين تلك الجموع كانت هناك سيّدة تشقّ الجموع وتتقدّم نحوي بإصرار شديد لتقترب منّي، بحيث شعر الإخوة بالقلق من كونها ربما تنوي الاعتداء عليّ، لكن تلك السيّدة بعد أن بذلت



جهودها واستطاعت أن تصل قريباً مني قالت: أشكرك كثيراً، وانصرفت مسرعةً. لقد شعرت أنها مدينة بتقديم الشكر لي، وما لم تتقدم بذلك الشكر فإن وجدانها لن يشعر بالراحة.

يتجاوز الشكر والامتنان نطاق القيم الإنسانية ليصل إلى عالم الحيوانات التي تتمتع بالذكاء، فإنها تُبدي شكرها من خلال حركاتها مقابل الخدمة أو الطعام الذي يُقدّم لها بأن تُحرّك ذيلها مثلاً. وهذا الأمر يُشاهد بوضوح في القطط والخيول وفي الكلاب خاصة، إذ إنها تُبدي شكرها مقابل المحبة والعناية بها، فالكلب يحرك ذيله أو يمسح أنفه بالتراب شكراً لصاحبه الذي أحسن إليه.

ضرورة الشكر

تحظى مسألة ضرورة شكر النعم التي يحصل عليها الإنسان بأهمية كبيرة إلى درجة أن علماءنا حينما يبحثون في علم الكلام عن ضرورة البحث عن وجود الله سبحانه وضروره إثبات الإله والصانع، يذكرون لذلك دليلين عقليين وهما: الخوف من الضرر المُحتمل، والآخر هو وجوب شكر المنعم. ويقولون إن العقل يرى وجوب شكر المنعم، ونحن يجب علينا أن نشكر الشخص الذي أنعم علينا بنعمة الوجود، والحياة، والصحة، والكثير من النعم التي لا تُعدّ ولا تُحصى ووهبنا أنواع النعم المادية والمعنوية، ومن الطبيعي أنه قبل الشكر يجب علينا أن نعرف المنعم الذي قدّم لنا كل هذه النعم. إذاً عن طريق وجوب شكر المنعم يتم إثبات ضرورة معرفة الله ووجوب إثبات الخالق.

وطبيعي أننا هنا لسنا في مقام تأييد أو ردّ هذا الاستدلال، وإنما هدفنا من ذكر هذا النموذج هو أن نُبين أهمية مسألة وجوب الشكر



وَحُسْنُهُ وَأَنَّهَا تَحْظَى بِأَهْمِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، حَتَّى أَنَهَا اسْتَعْمَلَتْ فِي إِثْبَاتِ ضَرُورَةِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ.

وقد حازت مسألة الشُّكر على أَهْمِيَّةٍ كَبِيرَةٍ فِي ثِقَافَتِنَا الدِّينِيَّةِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْإِهْتِمَامُ الْكَبِيرَ الَّذِي أَوْلَاهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ لِمَسْأَلَةِ شُكْرِ اللَّهِ. فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَحْدِثُنَا فِي آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَنْ رَدِّ فِعْلِ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ تَخَاطَبَهُمْ دَعْوَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَمِنْهُمْ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﷺ وَيَتَلَقَّوْنَ رِسَالَةَ الْهَدَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ قَائِلًا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(١).

فَقَدْ تَمَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَقْسِيمُ النَّاسِ إِلَى قَسْمَيْنِ: الْقَسْمَ الْأَوَّلَ هُمُ الَّذِينَ يَسْتَفِيدُونَ مِنَ الدَّعْوَةِ وَالْهَدَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَيَسْعَوْنَ فِي مَسِيرِ السَّعَادَةِ وَالنَّجَاةِ، وَيَكُونُ تَقَبُّلُ هَؤُلَاءِ لِلْهَدَايَةِ بِمَنْزِلَةِ شُكْرِهِمْ لِلَّهِ. وَالْقَسْمَ الْآخَرَ هُمُ الْكَفَّارُ وَالَّذِينَ لَا يَهْتَمُّونَ بِالْهَدَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَيَصِرُّونَ عَلَى الْبَقَاءِ فِي الضَّلَالِ، وَضَلَالَهُمْ يُعَدُّ كُفْرَانًا وَعَدَمُ شُكْرِ اللَّهِ.

وَهُنَاكَ آيَةٌ أُخْرَى تَعُدُّ الْقُدْرَةَ عَلَى السَّمْعِ وَالْإِبْصَارِ وَالتَّفَكُّيرِ مَقْدَمَةً لَشُكْرِ اللَّهِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢).

وكَذَلِكَ يَعُدُّ اللَّهُ التَّمَتُّعَ بِالْأَمْنِ وَالطَّمَأْنِينَةِ وَالتَّأْيِيدَ بِنَصْرِهِ وَالرِّزْقَ الْحَلَالَ مَقْدَمَةً لَشُكْرِهِ قَائِلًا: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي

(١) سورة الإنسان، الآية ٣.

(٢) سورة النحل، الآية ٧٨.



الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوِلُّكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ
وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾.

وكذلك يَعُدُّ سبحانه عرض الأمور التشريعية والعبادات للعباد -
ومنها الصوم والتقوى - مقدمةً لشكره إذ يقول: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي
أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ
مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ
يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا
اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١).

ويقول: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴾ (٢).

مُهِدَاتُ الشُّكْرِ وشروطه

الآن وبملاحظة أهمية مسألة الشكر في المصادر الدينية وبخاصة في
القرآن الكريم، وكذلك أهميتها عند العقلاء في جميع المجتمعات
الإنسانية، فمن المناسب أن نهتم بها اهتمامًا خاصًا، ونتعرّف في هذا
المجال على ماهية الشكر وشروط استحقاقه:

أولاً: إنما يشكر الإنسان الشخص الذي تكوّنت له علاقة معه، وحصل
في ظل تلك العلاقة على خير أو خدمة منه. ومن هنا نحن لا نشكر
الرسم أو الفنان الذي رسم لوحةً جميلةً لنفسه، وكذلك الخطاط الذي

(١) سورة الأنفال، الآية ٢٦.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٢٣.



كتب لوحةً فنية؛ لأن هذين الشخصين لم يُنجزا هذين العاملين الفنيين من أجلنا، وإنما الشكر ضروري وفي محله حينما يكون العمل من أجلنا.

وثانيًا: ينبغي أن يكون ذلك الخير أو الخدمة ذا قيمة ومما يُلتفت إليه، وأن لا يكون فاقدًا للقيمة بحيث لا يُعتنى به ولا يُلتفت إليه، ولا يكون بحيث يتصور المتلقي له أنها ليست خدمةً وإنما هي إهانة له واستهزاء به.

ثالثًا: أن يكون القائم بالخدمة والخير قاصدًا لإيصال الخير والخدمة إلى الآخر، لا أنه يقوم بذلك العمل دون قصد، وإنما وصل خير منه إلى آخر صدفةً.

رابعًا: أن يعلم الإنسان فاعلَ الخير وأن يعرف من أوصل إليه الخدمة، أو وَضَعَ النعمة بين يديه.

وفي حالة تحقق هذه الشروط يلزم ويليق أن يتقدم الإنسان بالشكر لمن أحسن إليه سواء بلسانه أو بقلمه أو بأي طريقة أخرى.

وبملاحظة ما قيل فإننا إنما نريد شكر الله فيما لو آمنا أنه سبحانه قدّم لنا النعمة بإرادة وقصد. وعليه فإذا كنّا في موضع لا نُدرِك فيه أن هذا الشيء نعمةٌ أو خير لنا، أو لم نُدرِك ارتباط تلك النعمة بالله، ونسبناه إلى غير الله، فلن نسعى إلى شكره تعالى. في بعض الموارد وبخاصة في الأوضاع غير الطبيعية حينما تصل إلينا نعمة فإننا نصدّق بسهولة أنها جاءتنا من الله، ونشكره عليها، وكمثال على ذلك نقول: حينما يُبتلى الإنسان بمرض شديد ويُشفى بعد يأسٍ من الشفاء، أو حينما يعمُ الجفاف وتنقطع الأمطار ثم يتّجه الناس إلى الله بالدعاء وصلاة الاستسقاء فيأتي المطر غزيرًا فإن الجميع يصدّق في هذه الحالات بأن ذلك الشفاء



وهذا المطر هما نعمة من الله، وأنهما تحققا بالإرادة الإلهية، لكننا في أغلب الموارد ننسب النعم والخيرات التي تصل إلينا إلى الوسائط وننسى أنه بدون إرادة الله لن يصل إلينا أي خير أو نعمة، وبذلك ينصرف اهتمامنا إلى الوسائط والعوامل الطبيعية غير الله، فلا نسعى لشكر الله. بينما التعاليم الدينية تؤكد لنا وتعلمنا أن النعم كلها من الله، سواء كانت وصلتنا من الله بلا واسطة أو بواسطة، ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾^(١).

وفي آية أخرى يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

التعاليم الإلهية وإسناد الأمور كلها إلى الله

علمنا الدين أن جميع الأحداث والوقائع ومنها النعم التي تصل إلينا، سواء كانت عن طريق الأسباب الطبيعية والأسباب الإنسانية، أو كانت بوسيلة الملائكة، فإنها كلها إنما تحققت بالإرادة والمشئنة الإلهية، ويجب علينا الاعتقاد بأن كل شيء يرجع إلى الله، ومن هنا فإن إحدى تعاليمنا الثقافية التي كان الاهتمام بها في الماضي أشد وأقوى هي أن الإنسان إذا رأى قطعة خبر يابسة على الأرض التقطها ونظفها وربما تناولها لأنها نعمة إلهية لا ينبغي أن يدوسها أحد.

حينما تلتقي غيمتان مثقلتان بالبخار ويحدث بينهما اصطدام فإنه نتيجة لتلاقح الطاقة الموجبة مع الطاقة السالبة في الغيمتين ينتج البرق

(١) سورة النساء، الآية ٧٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٢٦.



والرعد، ويتحوّل قسم من ذلك البخار إلى ماء وينزل على شكل قطرات مطر فيسقى الأرض. أو وفقاً للعملية الطبيعية، حينما نغرس بذرةً في الأرض وتصلها رطوبة الأرض، فإنها تفتتح وتنمو لها جذور وتبدأ بالنمو. لكن القرآن الكريم - الذي هو كلام الله سبحانه - نسب هذه الأفعال والانفعالات كلها إلى الله؛ لأن الله هو مسبب الأسباب وكل العوامل الطبيعية وغير الطبيعية تحت إرادته وأمره، ولا يتحقق أي فعل خارج إرادة الله، قال سبحانه في كتابه العزيز: ﴿الْمَصِيرُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَرِ﴾^(١).

هذه الآية فيها إشارة إلى ثلاث ظواهر عجيبة تحدث في السماء والغيوم. الظاهرة العجيبة الأولى حاكية عن العلم والحكمة والعظمة الكامنة في الخلق وهي من شواهد توحيد ذات الله سبحانه، وهي أن الله سبحانه يسوق قطع الغمام المتفرقة الصاعد كل منها من بحر أو نهر فيصل بينها ويراكمها، وحينئذٍ يظهر من تلك الغيوم قطرات المطر التي تتساقط على الأرض وبهذا يحيي الأرض الميتة ويكسو ثوب الحياة الأشجار والنباتات ويروي جميع الكائنات الحيّة، والظاهرة الثانية تكون حبوب البرد الكبيرة في الغيوم، والتي بسقوطها على الأرض ربما تتضرر الأشجار والمحاصيل الزراعية، والحيوانات وحتى الإنسان. والظاهرة الثالثة هي البرق الذي يحدث نتيجةً لتصادم الغيوم الحاملة لذرات الماء والتقاء الطاقة الموجبة بالسالبة لتلك الغيوم، فينشأ هذا البرق الذي يخطف الأبصار، وينتج عن هذه الظاهرة الطبيعية الرعد الذي يصمُّ الآذان.



وفيما يرتبط بالجبال التي تحدّث الله عن وجودها في السماء والتي ينزل منها البرّد هناك عدة آراء طرحها المفسرون، نشير هنا إلى بعض تلك التفاسير:

١. ذهب البعض إلى أن «الجبال» في الآية كناية، كما نقول «جبل» من الطعام» أو «جبل من العلم»، فذلك الثلج المتراكم في السماء أيضًا يُعبّر عنه بالجبل، ويكون مفاد الآية هو أنه تتكوّن في الغيوم في قلب السماء مجموعة كبيرة متراكمة من البرّد، وتهطل على المدن أو القرى والوديان.

٢. وقال بعض آخر: إن المقصود من الجبال هي كتل عظيمة من الغيوم تشبه الجبال في العظمة والحجم.

٣. وأما بيان سيد قطب فيبدو أنسب من الرأيين السابقين إذ يقول: إن يد الله تزجي السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان ثم تؤلف بينه وتجمعه، فإذا هو ركام بعضه فوق بعض. فإذا ثقل خرج منه الماء، والوبل الهائل، وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة، فيها قطع البرّد الثلجية الصغيرة. ومشهد السحب كالجبال لا يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها، فإذا المشهد مشهد الجبال حقًا، بضخامتها، ومساقطها، وارتفاعاتها وانخفاضاتها. وإنه لتعبير مصوّر للحقيقة التي لم يرها الناس، إلا بعد ما ركبو الطائرات^(١).

يجب إضافة أن تكوّن البرّد في السماء يتم بأن تنفصل قطرات المطر عن الغيوم وتلتقي في القسم الأعلى بجهة هواء باردة فتتجمّد، ثم تأتي عواصف عنيفة لتأخذ حبوب الثلج هذه إلى أعلى مرّة أخرى لتدخل إلى

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء ٤، الصفحة ٢٥٢٢.



باطن الغيوم ثانيةً، فتتجمع حولها طبقة أخرى من الماء تتجمّد بدورها حين انفصالها عن الغيوم. وأحياناً تتكرّر هذه العملية عدّة مرّات وفي كل مرّة تُضاف عليها طبقة جديدة ليصبح البرّد بحجم كبير فلا يعود التيار الهوائي قادراً على حمله إلى أعلى. وحينئذٍ يتّجه نحو الأرض ويهطل عليها، أو يهدأ الهواء فيجد البرّد طريقه إلى الأرض بلا عقبات^(١).

وفي آية أخرى يخبرنا الله سبحانه عن نمو النباتات والأشجار والحبوب بواسطة المطر: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَرِّكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ^(٢) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ^(٣) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ^(٤)﴾.

وكذلك قوله تعالى في آيات أخرى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ: أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا^(٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا^(٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا^(٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا^(٨) وَرَزَقْنَاهَا وَنَخْلًا^(٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا^(١٠) وَفَكْهَةً وَأَبًّا^(١١) مَّتَعًا لَكُمْ وَلِيُؤْمِنَ بِكُمْ^(١٢)﴾.

تُفهمنّا هذه الآيات أن رأس سلسلة جميع الأسباب والعوامل ومسبّب الأسباب هو الله سبحانه، وأن علينا أن نوجّه أنظارنا إلى ما وراء الأسباب والعوامل المؤثّرة في عالم ونظام الخلقة، أي إلى خالق الوجود وعلة العلل والذي لا تتم أي حركة ولا تقع أي حادثة دون إذنه ومشيئته، وأن لا ننظر إلى الوسائط والأسباب على أنها مستقلّة، وعلينا أن نؤمن أن الوسائط والعوامل المؤثّرة في العالم إنما تؤثر بالإرادة الإلهيّة، والمؤثّر الأصلي هو الله سبحانه، مثلما أنه حينما يرسل إلينا أحد الشخصيات

(١) انظر: تفسير الأمثل، الجزء ١٤، ذيل الآية أعلاه.

(٢) سورة ق، الآيات ٩ - ١١.

(٣) سورة عبس، الآيات ٢٤ - ٣٢.



هديةً بيد شخص آخر فإننا ننسب هذه الهدية إلى تلك الشخصية لا إلى الوساطة والوسيلة التي هي مجرد واسطة.

دور الاعتقاد بالكيّة الله في شكره

إذا عرفنا حقائق العالم وأثار الله قلوبنا، فسوف ندرك أن الله لا يأتي على رأس سلسلة العوامل والأسباب فحسب، وإنما جميع الأحداث الصغيرة والكبيرة بيده، وكل الأحداث التي تحدث لنا باستمرار، وحتى سقوط ورقة من شجرة لا يتحقق إلا بإذنه وإرادته. وحينما نصل إلى هذه القناعة ونعلم أن جميع الأعمال تتحقق بإذن الله وإرادته، نفهم أنه يجب علينا أن نشكر الله على كل نعمة تصل إلينا. فحينما نجد قطعة خبز على مائدتنا ونتناولها يجب علينا أن نشكر الله ونشكره. وحينما نتنفس نلتفت إلى حقيقة وهي أن الله هو خالق الهواء والأوكسجين لكي نتنفس وتستمر حياتنا. أو حينما نفتح أعيننا ونغلقها، ندرك أن الله منحنا هذه النعمة الكبيرة، وكذلك بملاحظة النعم التي لا تُحصى المحيطة بنا، فسوف نلتفت إلى الله ونشكره. ولا نكون مثل الذين لا يلتفتون سوى إلى بطونهم وشهواتهم وهم غافلون عمن أنعم عليهم، وهم الذين قال عنهم سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(١).

وفي موضع آخر يتحدث مع رسوله حول الذين سقطوا في مستنقع حب الطعام والشهوات: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

(١) سورة النحل، الآية ١٠٨.

(٢) سورة الحجر، الآية ٣.



الشخص الذي تكون قوّة العقل حيّةً عنده وواعية، ولا يكون في حالة من الغفلة، حينما يتأمّل في الظواهر المحيطة به، فينظر إلى الشمس التي تُرسل أشعتها وإلى السماء الزرقاء العظيمة، ويشاهد المظاهر الجميلة العظيمة التي تتجلّى في جميع الظواهر، فإنه حينئذٍ يحني رأسه أمام عظمة الخالق الحكيم والعليم الذي بَثَّ في جميع ظواهر العالم من نور عظمته ومجده. وكذلك حينما يُلاحظ الإنسان أعضاء جسمه وجوارحه، ويُدرك إلى حدٍّ ما قيمتها وأهميتها، فإنه ينطلق بشُكر الله الذي وهبه كل هذه النعم الكبيرة التي لا بديل لها. تلك النعم التي لو فُقدت أي واحدة منها فإن حياة الإنسان ستنهار وتتحوّل إلى ظلام.

قبل عدة سنوات كان لقائد الثورة الإسلامية لقاء مع مسؤولي النظام في شهر رمضان المبارك بهدف توجيههم نحو النعم الإلهية وشُكرها فقال: بعد أن تعرّضتُ للهجوم والإصابة التي تعرّضتُ لها يدي وقطعت أعصابها، قال لي أحد الأطباء المتخصّصين بالأعصاب إنه من أجل تحريك إصبع واحد تنشط مجموعة من الأعصاب لها وظائف عديدة لكي يتمكن الإنسان من تحريك إصبعه.

دور معرفة سعة النعم الإلهية وعظمتها وأهميتها في الشكر

بناءً على ما تقدّم يجب علينا في المرتبة الأولى أن نتعرّف على نعم الله، ومن الأفضل في هذا المجال مطالعة الكتب العلمية ودراسة العلوم التي تبحث في ظواهر العالم الطبيعية، وإذا كانت دراسة هذه الكتب بهدف زيادة الاطلاع على نعم الله مما يؤدّي إلى شكره، فسوف تُعدّ تلك الدراسة عبادةً. وإذا كان الشخص يسعى إلى دراسة علم الفيزياء، أو الكيمياء، أو الأحياء، وبخاصة فسيولوجيا وتشريح أعضاء الجسم ومعرفة



عجائب مخلوقات الله سبحانه، والتعرّف على النشاطات والوظائف المحيرة لمختلف الظواهر ومنها أعضاء جسم الإنسان، وكان هدفه من تحصيل تلك العلوم واكتسابها ليس مجرد نيل المكانة والمال، بل كان هدفه الأصلي هو التعرّف على النعم الإلهية وشكر الله سبحانه، فإن تحصيل تلك العلوم سيكون عبادة.

إن دراسة العلوم الطبيعية تمهّد السبيل لمزيد من الانتفاع بالنعم الإلهية. فعبر هذا الطريق يستطيع الإنسان أن يصل إلى أنواع المعادن الدفينة في الجبال وباطن الأرض وأعماق البحار، ومن خلال تركيب تلك المواد وإجراء تغييرات فيها يصل إلى مكتشفات جديدة ويحصل على منتجات علمية جديدة. وفي جميع هذه المراحل إذا كان هدفه هو الكشف عن نعم الله والاستفادة الصحيحة منها وما ينتج عن ذلك من شكره سبحانه، فإنه يعدّ مشغولاً بالعبادة طوال عمله هذا.

الإنسان يحتاج بشدّة إلى بعض النعم ويجب عليه أن يحصل على تلك النعم عبر بذل الجهود والكّد والتعب، ويجب عليه أن يعمل للحصول على عائِدٍ مالي، أو أن يعتمد من خلال تقديمه الخدمة للآخرين إلى نيل خدمة منهم في المقابل. ولكن حينما تكون دوافعه إلهيّة فإنّه عندما يحصل على نعمة تلبي حاجته، فإنّه يشكر الله ويحمده على النعم والبركات التي وفّرها له ووضعها بين يديه وعلى الراحة والسعادة التي منّ بها عليه.

وما لم يعرف الإنسان نعم الله، وخاصّةً ما لم يكن بحاجة ماسّة إلى النعم الإلهية، فإنه لن يعرف قيمتها وقدرها. تصوّروا شخصاً قطع طريقاً طويلاً في حرارة الصيف وقد أخذ منه التعب والعطش وحرارة الجو كل مأخذ، وفجأة يرى منزلاً فيقصدّه ويُسْتَقْبَل فيه ويُسقى شرباً بارداً سائغاً



أو ماءً باردًا عذبًا، فيرتفع عطشه القاتل ويرتاح من التعب، مثل هذا الشخص يعرف جيدًا قيمة الماء الذي شربه والنعم الحياتية التي نالها بعد ذلك التعب والعطش، فيشكر الله عليها، فالله هو الذي وفر للإنسان النعم والرزق الحلال كي يستفيد منها، ويحصل على القدرة الكافية للتطور والنمو والسمو وعبودية الله.

لقد منَّ الله علينا بأنواع النعم ووضع بين أيدينا رزقه الحلال، وتدفعنا الاستفادة من هذه النعم إلى الشكر. وكما قلنا إذا كانت معرفة النعم الإلهية والسعي لكسبها بهدف شكر الله، فهذا السعي يكون عبادةً، وعلى هذا الأساس يقول الله سبحانه لرسوله في الحديث القدسي: «يَا أَحْمَدُ، إِنَّ الْعِبَادَةَ عَشْرَةٌ أَجْزَاءٍ تَسَعُّ مِنْهَا طَلَبُ الْحَلَالِ، فَإِذَا طُبِّتَ مَطْعَمَكَ وَمَشْرَبُكَ فَأَنْتَ فِي حِفْظِي وَكَنْفِي»^(١).

التقدم في حياة الإنسان والتطور الصناعي والتكنولوجي والوصول إلى تلك النعم الإلهية التي لم تكن معروفةً عندنا إلى حد الآن، والنعم الإلهية التي ستكشف لنا في المستقبل، كل ذلك رهين بالجهود والبحوث المتواصلة التي يقوم بها العلماء والباحثون، ولو لم تكن تلك الجهود لما وصلنا إلى وجود الطاقة الكهربائية والمواد المُستخرجة من الطبيعة والاختراعات التي سهّلت حياتنا ووفّرت لنا أسباب الراحة والرفاهية.

إن العلماء والباحثين الذين يدفعهم هدف الاستفادة من النعم الإلهية أو من يعملون من أجل عزّة المسلمين ونيل الاستقلالية والاكتفاء والخلاص من تبعية الأجانب، وينشطون في مجالات حساسة من قبيل

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٧٧، الباب ٢، الصفحة ٢٧، الحديث ٦.



مراكز البحوث النووية، إنما يقومون بعبادة الله، ويؤدون عملاً عظيماً كبير القيمة.

إن الشخص الذي ينوي التشرف بالذهاب إلى الحج، رغم أن عبادة الحج تُطلق اصطلاحاً على الأعمال والمناسك الخاصة التي تؤدي في مكة المكرمة، لكن مقدمات الحج من قبيل التسجيل وإعداد مقدمات السفر إلى مكة تُعدّ عبادةً أيضاً؛ لأنه بنظرة عامّة كل عمل يؤدي بقصد عبودية الله يُعدّ عبادة.

وبملاحظة أن النعمة شيء يؤدي إلى تكامل الإنسان، فكل ما يأتي من الطريق الحلال والمشروع وتجاوز الاستفادة منه، فهو نعمة، ويجب شكر الله للحصول عليه. وأما الربح والثروة الحاصلة عن الطرق غير المشروعة من قبيل الرشوة، أو الكسب غير المشروع، أو الاختلاس، أو التجاوز على بيت المال، فهي نعمة وتؤدي إلى الهلاك وابتلاء الإنسان بنار جهنم، وهذا لا شكر فيه، وقد قال الله سبحانه في مثل هذه الثروة غير المشروعة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(١).

إذاً يجب على الإنسان أن يعرف الحلال من الحرام، ولا ريب أن من العبادة اكتساب العلم الذي يعلم الإنسان الحلال والحرام، وأن الإنسان بتعلّمه ذلك العلم يعرف ما هي الأعمال المرضية عند الله وما هي الأعمال التي لا يرضى الله سبحانه عنها، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِهِ وَإِنَّهُ يَسْتَعْفِرُ لَطَالِبِ الْعِلْمِ



مَنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْخُوتِ فِي الْبَحْرِ. وَفَضْلُ الْعَالَمِ
عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ. وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةَ
الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَلَكِنْ وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ
أَخَذَ مِنْهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ^(١).

وقد نُقِلَ أن الشهيد الثاني (رضوان الله عليه) حينما كان في سنوات
شبابه مشغولاً بتحصيل العلوم الدينية، كان يذهب من بيته إلى الدرس
حافياً. وحينما سُئِلَ عن ذلك أجاب قائلاً: أنا طالب علم، وكلام رسول
الله ﷺ في طالب العلم حقٌ وصحيح؛ لذلك فَضَلْتُ أَنْ أَمْشِيَ حافياً
لكيلا أسير بحذائي على أجنحة الملائكة.

(١) الكليني، الكافي، الجزء ١، الصفحة ٣٤، الحديث ١.



المقال الخامس والعشرون منشأ وضرورات شكر المعبود (٢)

شُكر الله لعباده



قلنا في الجلسة الماضية إنه حينما يقدّم موجودٌ ذو شعورٍ خدمةً لموجود ذي شعورٍ آخر، فإن متلقّي الخدمة يشعر بالرضا والامتنان والتقدير، ونتيجةً لهذا الشعور يبدي الشكر والامتنان بسلوكه وكلامه. ومن مصاديق ذلك ما يظهر عندنا بالفطرة من حالة التقدير والشكر لله قِبال النعم التي منّ بها علينا، وشكرنا له باللسان والسلوك بما يتناسب مع تلك الحالة.

إن شكر الآخرين ليست من صفاتنا الإنسانية الفطرية الخاصة، وإنما توجد لدى بعض الحيوانات أيضًا.

ويجب إضافة أن القرآن يصف الله سبحانه وتعالى بأنه شاكرٌ وشكور، وكما أننا نشكر الله، فقد ورد في بعض الآيات أن الله سبحانه يشكر عباده. فقد ورد في أربع آيات وصف الله بـ«الشكور»^(١)، وفي

(١) سورة فاطر، الآيتان ٣٠ و٣٤؛ سورة الشورى، الآية ٢٣؛ سورة التغابن، الآية ١٧.



آيتين أخريين جاء وصف الله سبحانه بأنه «شاكراً»^(١). وكذلك ورد في آيتين من القرآن الكريم أن سعي وجهود العباد تحظى بشكر الله، ففي الآية الأولى ورد قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾، وفي الآية الثانية يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا﴾.

ومن الواضح أن الله يشكر عباده أيضاً، لكن المسلم به أنه يوجد اختلاف بين كيفية شكر الله وشكر الإنسان، والله يستعمل بعض الألفاظ والاصطلاحات الشائعة بيننا نحن الناس لكي يُمكننا فهمها، وفي هذا النوع من الاستعمال ونقل المقاصد والمعاني هناك نوع من المجازية. وبغض النظر عن أن الألفاظ والمفاهيم الدالة على ذات الله وصفاته وأفعاله لا تخلو من المجاز؛ لأنها لا تكشف لنا عن تلك الحقائق، غير أنه في بعض الموارد يكون استعمال المجاز في غاية الوضوح، وهناك قصد في تنزيل مستوى بعض الحقائق والمعاني من أجل خلق دوافع في الإنسان كي يعمل بها، وكمثال على ذلك ما جاء في بعض الموارد حين يكون إنفاق المال واجباً كدفع الخمس والزكاة، وفي موارد أخرى حين يكون إنفاق المال مستحباً، كما في إقراض المال لمن يطلب القرض وهو محتاج له في بعض شؤون حياته، فهذا من المستحبات المؤكدة، حتى أنه ورد في بعض الروايات أن قيمة وفضيلة الإقراض أكبر من الهبة والصدقة، ومن ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَأَنْ أُقْرِضَ قَرْضًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِمِثْلِهِ»^(٢).

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٨: سورة النساء، الآية ١٤٧.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، الجزء ١٨، الصفحتان ٣٢٩ - ٣٣٠، الحديث ٢٣٧٣٨.



٣١



في مورد القرض يقوم شخص بإقراض شيء من ماله ويقوم الآخر بأخذ القرض لكي يسدّ به حاجته، فالأمر في القرض والزكاة والخمس يشترك في أن الشخص الذي يأخذ المال هو إنسان محتاج، لكن الله ومن أجل ترغيب الناس بإنفاق أموالهم وتشجيعهم على أن يُقرض بعضهم بعضًا يبيّن مجازاً أنه هو الذي يأخذ القرض ويقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١).

فالمالك الحقيقي للوجود أجمع هو الله، ونحن وما نملك ملكٌ لله، ومالكيتنا لثرواتنا وأموالنا مالكية اعتبارية. وحينما نُنْفِقُ مالنا أو نقرضه، فإن الإِخْذَ للقرض هو شخص مستحقّ للقرض أو الإنفاق، لكن الله تعالى لعظيم لطفه بنا يجعل ذاته المقدّسة بمنزلة الإنسان المحتاج ويقول سوف أعطيك مقابل القرض الذي تعطيه أضعافه في الآخرة، وذلك لكي يوضّح لنا أهميّة مساعدة الآخرين وتقديم القرض لهم، ولكي يُثير في أنفسنا دوافع القيام بمثل هذا العمل.

العلاقة التكوينية بين العمل والجزاء

أكثر ما بيّنه القرآن والروايات في مجال العقاب، والثواب، وجزاء العمل، كان بنحو يوحى للذهن أن هناك علاقةً مجعولةً وتعاقديةً بين العمل الصالح والثواب، وبين العمل السيّء والعقاب، كما في الاتفاق والعقد المبرم بين المؤجّر والمستأجر، فيدفع المستأجر مبلغاً من المال مقابل المنفعة التي يحصل عليها من مال المؤجّر، فالله سبحانه أيضاً يجازي ويشيب عباده على العمل الصالح الذي يقومون به، مع اختلاف هو أن



الثواب والأجر الأخروي على سلوك الإنسان أكبر بكثير من الأجر الدنيوي. وهذه التعابير إنما هي لتسهيل التفاهم ورعاية حال الأكثرية من الناس الذين يعرفون هذه المفاهيم أكثر من غيرها، وقد فُرض فيها أن العباد يقومون بعمل لله، وأن الله يحصل على منافع أعمال الناس، وفي مقابل ذلك يعطيهم الأجر والثواب، أو يعفو عن بعض ذنوبهم مقابل تلك الأعمال الحسنة التي يقومون بها.

ولكن ما يُستفاد من بعض الآيات والروايات هو أن العلاقة بين أعمال الإنسان والثواب والعقاب الأخروي أعمق من مجرد علاقة اتّفاقية ووضعية، وإنما هناك علاقة تكوينية وتوليدية بين أعمال الإنسان والثواب والعقاب. وعلى أساس هذه العلاقة التكوينية فإن لأعمال الإنسان صوراً ملكوتيةً مختلفةً تظهر نتيجة انعكاس للأعمال في عالم البرزخ والقيامة.

ومن نماذج الآيات الدالة على وجود العلاقة الحقيقية بين أعمال الإنسان والنتائج الأخروية، وبعبارة أخرى تجسّم الأعمال، ما يلي: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١).

وقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة، الآية ١١٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣٠.



٣٣



وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(١).

يستفاد من الآية الأخيرة أن الصورة الباطنية لأكل مال اليتيم هي أكل النار، وحينما تتجلى الحقائق في العالم الآخر فإن أكل مال اليتيم سوف يرى باطن ذلك الأكل وأنه كان على شكل نار، وسيجد حرقها في باطنه، وسوف يُقال له: أليست هذه النار هي ذلك المال الحرام الذي أكلته بعينه؟

وبناءً على هذا - وكما دلّت الكثير من الآيات والروايات، وكذلك ما يستفاد من الأدلة العقلية - فإن هناك علاقةً تكوينيةً بين أعمالنا والثواب والعقاب، وما نقوم به في هذا العالم سوف يتجلى لنا ويتجسّم في عالم آخر بصورة تتناسب مع ذلك العالم.

وبعبارة أخرى: الثواب والعقاب عبارة عن انعكاس أعمال الناس الدنيوية وحقيقتها التي تظهر في الحياة الأخروية، وكل عمل يقوم به الإنسان له صورة دنيوية نستطيع مشاهدتها، وله صورة أخروية كامنة الآن في باطن العمل وصميمه، والعمل يوم القيامة بعد أن يتعرّض لتغييرات يفقد شكله الدنيوي الحالي، ويتجلى بواقعية أخروية، مما يؤدي إلى فرح الإنسان ولذّته أو حزنه وتأذيه.

وبناءً على هذا فإن الثواب - وحتى العفو عن الذنوب - إنما هو نتيجة تكوينية للأعمال، بل هو تجسّم لها في عالم الآخرة، وبعض الأعمال الصالحة لها نورانية كبيرة بحيث تزيل ظلمة بعض الذنوب وسواها.

(١) سورة النساء، الآية ١٠.



ومن الطبيعي أنّ عامّة الناس لا يُمكنهم إدراك هذه الحقائق، وأنّ أذهانهم مستأنسة بالمفاهيم والتعابير الاعتبارية؛ ولذا استُفيد في الآيات والروايات من هذه التعابير أيضًا ما يظهر منه أن العلاقة بين أعمال الإنسان والثواب والعقاب علاقة اعتبارية، وهذه التعابير المجازية والاعتبارية إنما استُعملت من أجل تسهيل الفهم لعامّة الناس.

وقد وَرَدَت هذه التعابير في بعض الآيات في مجال الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله والتجارة والمعاملة مع الله، وأن الله هو المُشتري لأنفس المؤمنين وأموالهم ويعطيهم مقابل ذلك ثمنًا وهو الجنة، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾^(١).

وفي آية أخرى جاء التعبير بالتجارة عن الإيمان بالله والرسول ﷺ والجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجْرِئَةٍ نُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ۖ تُوْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

والتعبير بالتجارة وبيع ومعاملة النفس والمال مع الله إنما هو تنزّل في بيان الحقيقة بهدف تشجيعنا للقيام بأعمال الخير ونيل الثواب، وليس الأمر أننا نملك أنفسنا وأموالنا وننال شيئًا مقابل بيعهما لله، أو نعطي الله شيئًا فاقداً له ونحصل مقابل ذلك على جزاء وثواب، بل المالك الحقيقي للنفوس والأموال هو الله، وقد وضعها أمانةً عندنا ويستردّها في أي وقت يشاء.

(١) سورة التوبة، الآية ١١١.

(٢) سورة الصف، الآيتان ١٠ - ١١.

العبادة أرضية الانتفاع من الرحمة الإلهية والوصول إلى الكمال

٣٥

بملاحظة النماذج التي بينها تُعدُّ عبادتنا خدمةً اعتباريةً لله تعالى، ولو تجاوزنا بذل المال والنفس في سبيل الله والسلوك المحسوس كعبادة لله، فإن التوجه والذكر القلبي يُعدُّ أيضًا خدمةً للحضرة الإلهية وأمرًا مطلوبًا له سبحانه وتعالى. ونعيد ونؤكد على أن مطلوبة العبادة وأعمال الخير لله ليس لأنه سبحانه بحاجة إليها ليسدَّ بها نقصه - والعياذ بالله - بل من حيث إننا ننال بفضلها الكمال اللائق بنا، ونصل بها إلى مقام القرب الإلهي.

نحن في ظل العبادة والتضرُّع إلى ساحته نصبح لائقين لتلقِّي رَحْمَتِهِ اللامتناهية، وبما أن الله يُحب أن ينشر رحمته الواسعة على عباده، فهو يُحبُّ ويريد ذلك القسم من سلوك عباده الذي يوفر الأرضية لنزول الرحمة والبركات الإلهية، وجميع التعابير المجازية الواردة في الروايات والآيات حول المعاملة مع الله والأجر والثواب إنما وُردت لكي تعلمنا أن نقيم الارتباط بالله ونسعى للقيام بالأعمال التي يحبها ويطلبها لننال الكمال الحقيقي، وأن نأتي بالأعمال التي تؤدي إلى السمو ونيل الرضوان الإلهي، وهي تعتبر خدمةً مجازيةً لله سبحانه، ومن هنا يقول أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: «يَا رَبِّ أَسْأَلُكَ بِحَقِّكَ وَقُدْسِكَ وَأَعْظَمِ صِفَاتِكَ وَأَسْمَائِكَ أَنْ تَجْعَلَ أَوْقَاتِي مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِذِكْرِكَ مَعْمُورَةً، وَبِخِدْمَتِكَ مَوْصُولَةً، وَأَعْمَالِي عِنْدَكَ مَقْبُولَةً حَتَّى تَكُونَ أَعْمَالِي وَأَوْرَادِي كُلُّهَا وَرَدًا وَاحِدًا وَحَالِي فِي خِدْمَتِكَ سَرْمَدًا»^(١).

(١) . مفاتيح الجنان، دعاء كميل.



وفي مقابل خدمتنا للساحة الإلهية والقيام بالعبادات المطلوبة والمقبولة عند الله، فإن الله سبحانه يشكرنا، وشكره لنا يتجلى من خلال زيادة نعمته وهطول مطر رحمته، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ^(١)﴾.

شُكر النعم الإلهية عبادة ومطلوبة لله، وهو سبحانه مقابل هذا الشكر الصادر من عبده، يقوم بشكره ومكافأته فيحفظ له النعم الموجودة عنده، بل يزيد عليها، وكذلك يزيد من كمالات ومراتب عبادته الشاكرين له.

اختلاف مراتب شكر العباد لله

في الجلسة الماضية قلنا إنَّ في حالة قيام الإنسان بشكر الله واعتقاده بأنَّ ما وضع بين يديه نافعٌ له، وأنَّ الله هو الذي وضعه بين يديه، [حياةً على نصيبٍ من معرفة الله]، ومن هنا فالغافلون عن حقائق العالم وما يجري فيه وعن النعم والإمكانات القيِّمة التي وضعت بين أيديهم، لا نصيب لهم من معرفة خالق الوجود ومدبِّره، والنتيجة هي أنهم لن يقوموا بشكر الله تعالى. ولو تجاوزنا هؤلاء، فإنَّ بعض الذين يعتقدون بالله، لكن نظرهم موجه نحو الذات والنعم المادية من قبيل المنزل، والزواج، والطعام، والملابس، فإنهم يشكرون الله على توفير هذه النعم، ولا تتعدى رؤيتهم هذه الحدود. غير أنَّ الأشخاص الذين يعرفون النعم المعنوية، ويُدركون أهمِّية العقل، والإيمان، والولاية، ومعرفة الله ومحَبَّته، فإنَّ أكثر شكرهم متَّجه نحو النعم الإلهية الكبرى، وأكبر نعمة إلهية وأعظمها على الإطلاق هي حُسن العاقبة ونيل الرحمة والرضوان الإلهي

(١) سورة إبراهيم، الآية ٧.



٣٧



في عالم الآخرة. ونحن يجب علينا أن نجعل أنفسنا في معرض هذه النعم الكبيرة وأن نوفر في أنفسنا أرضية تلقّيها وأن نشكر الله عليها.

يتفاوت الناس في فهمهم للنعم الإلهية، وحتى أولئك الذين يملكون فهمًا أكبر للنعم الإلهية، فإن نطاق معرفتهم بالنعم الإلهية ضئيل جدًا. إن الكثير من الأفراد يجهلون النعم التي أودعها الله في أجسامهم، وفي ظل المعرفة العلمية التي توفرها العلوم الطبيعية من قبيل علم التشريح والفسولوجيا تزيد معرفة الإنسان بالنعم والأجزاء والعناصر التي تشكل الجسم، ووظائف كل منها، والتعقيد الذي تشتمل عليه. كان المعروف في علم الطب والتشريح القديم أن جسم الإنسان يشتمل على ثلاثمئة وستين عَصَبًا. لكن مع تطوّر علم الطب ثبت أن العين وحدها - وهي عضو صغير في جسم الإنسان - تشتمل على مليارات الخلايا من مختلف الأنواع، ومن خلال عملها والتفاعل القائم بينها تتمكّن العين من الإبصار. فهل الإنسان قادر على شكر نعمة العين؟ هل تأملنا حقًا في سلسلة العوامل التي تكاثفت لكي نأتي إلى عالم الوجود، ونتمتع بجسم وأعضاء سليمة؟ فقد لا نتعقد النطفة نتيجةً لعجز بعض الوسائط من قبيل عقم الأب أو الأم، والنتيجة هي عدم توفر أسباب ولادة الإنسان، أو قد يولد الإنسان معاقًا أو فاقدًا للعقل.

إذاً كلما زادت معرفة الإنسان بسعة النعم الإلهية، زادت مراتب شكره لله سبحانه وتعالى.

ومن جهة أخرى تختلف معرفة الأفراد في خصوص مسألة استناد الأمور إلى الله؛ فقسم منهم يرون أن الله علّة العلل ورأس سلسلة العوامل، وأن تأثيره في ظهور الأحداث وتغيّرها، ولا تتعدّى معرفتهم هذا المستوى. والقسم الثاني هم أشخاص في مستوى أعلى من القسم الأول،



فهم إلى جانب العوامل والأسباب يرون دوراً لله، وبتعبير آخر: يرون أن لله نوعاً من الاشتراك في تلك العوامل ودخالةً في ظهور الأمور والظواهر. مثلاً حينما يتناولون الطعام ويشبعون، فإنهم ينسبون الشبع إلى الطعام قائلين: لقد أشبعنا الطعام، أو يرون أن الدواء هو الذي شفاهم من المرض، ويرون أن دور الله إنما هو في جعل الطعام والدواء مؤثرين في الشبع والشفاء، وإزالة الموانع التي تُعيق تأثيرهما. والقسم الثالث من الناس بلغوا حدّاً من المعرفة بحيث يرون أن التأثير الأصلي والاستقلالي إنما هو لله تعالى، ويرون أن العوامل والأسباب هي مجرد أدوات يُحقّق الله إرادته بواسطتها، من قبيل الخطاط الذي هو السبب الأصلي في ظهور الخط، والقلم والورق ما هي إلا أدوات عمله ولا يُنسب الخط أبداً إلى القلم والورق.

وأعلى جميع أنواع المعرفة هي معرفة أولياء الله الذين وصلوا إلى مرتبة من التوحيد الأفعالي بحيث صاروا يرون أن الله هو المؤثر الحقيقي الوحيد في الوجود، وأضحى كل التفاتهم نحوه سبحانه وتعالى، ولا يلتفتون إلى ما سواه من أسباب وأدوات، ولا يرون أي دور مستقلّ لها. وبملاحظة هذه المعرفة التوحيدية النقية نجد خليل الله إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي ﴿٧٨﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٧٩﴾﴾^(١).

من الطبيعي أن تختلف مرتبة شكر الناس بما يتناسب مع معرفتهم بالله والدور الذي يرونه له في نشوء الظواهر والأمور؛ فالشخص الذي يعتقد أن جهوده وتعبه هو الذي يُكسبه المال، ويعتقد طبعاً أن الله



ساعده أيضاً، فإن مرتبة شكره أدنى من شكر الشخص الذي يرى أن الدور والتأثير الأصلي هو لله، ولا يرى لنفسه تأثيراً مستقلاً.

والبعض يتواجدون في حضيض الانحطاط وينكرون أي دور لله سبحانه ويرون كل ما يحصلون عليه نتيجةً لذكائهم وتدبيرهم، كما ينقل الله لنا قول قارون في هذا المضمار: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن قُرُونٍ مِّنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾^(١).

ومع تجاهل الأشخاص الذين لا يرون الله مؤثراً في الأمور، فإن الأشخاص الذين يرون الله مؤثراً - كما أنف الذكر - يختلفون في رؤيتهم لتأثير الإرادة والمشیئة الإلهية، وهذا الاختلاف ناشئ عن مراتب معرفة العباد لله وتوحيدهم له، فحتى الاختلاف في مرتبة واحدة في مراتب المعرفة، يجعل الشخصين مختلفين تماماً من حيث السلوك والاعتقادات القلبية، إلى درجة أن الإمام السجاد عليه السلام يتحدث عن سلمان وأبي ذر (رضوان الله عليهما) وهما من أفضل أصحاب رسول الله ﷺ والإمام علي عليه السلام قائلاً: «وَاللَّهِ لَوْ عَلِمَ أَبُو ذَرٍّ مَا فِي قَلْبِ سَلْمَانَ لَقَتَلَهُ وَلَقَدْ آخَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُمَا»^(٢).

دور الاعتقاد الراسخ بالله في شكره تعالى

من الواضح أن اختلاف مراتب معرفة الأشخاص بالله وتوحيدهم له يؤدي إلى اختلاف مراتب شكرهم، ومرتبة شكر من يرى تأثير الله في الأمور بنسبة عشرة في المئة أدنى بكثير من مرتبة شكر الذي يرى نسبة تأثيره

(١) سورة القصص، الآية ٧٨.

(٢) الكليني، الكافي، الجزء ١، الصفحة ٤٠١، الحديث ٢.



مئة في المئة، وينسب جميع الأمور إلى الله. حينما يعتقد الإنسان بانتساب الأمور إلى الإرادة الإلهية ويؤمن أن الله هو الذي يُنزل المطر وأنه سبحانه هو الذي يُنبِت النباتات، وكذلك سائر الظواهر والأمور إنما تتحقق بإرادة الله، فمن أجل أن يوجد في نفسه دافعاً قوياً للشكر عليه أن يعتقد أن الله أراد له أن يتمتع بهذه النعم والخيرات التي يُنزلها. فالله أنزل المطر من أجله، وجعل النسيم اللطيف يهب لينتفع ببرودته. وبعبارة أخرى: من أجل شكر الله يجب أن يوجد في الإنسان اعتقادان، الأول أن يعتقد أن جميع الأمور - ومنها النعم، ونزول المطر والهواء - إنما تتحقق بإرادة الله ومشيئته، وحتى حركة أوراق الأشجار تتم بإرادة الله، وأنه مطلع على جميع الأمور وحقائق عالم الغيب وعالم الشهادة، ومن هنا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(١).

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٢).

وبعد هذا الاعتقاد بأن تدبير العالم بيد الله وهو الذي يُنزل النعم، يجب الاعتقاد بأن الله يعلم ما هي الموجودات التي تنتفع بخيره ونعمه، وكذلك يجب على كل شخص أن يعتقد بأن الله يعلم أنه ينتفع بهذه

(١) سورة الأنعام، الآية ٥٩.

(٢) سورة يونس، الآية ٦١.



النِّعم. وإلا فسيكون علم الله ناقصًا محدودًا، ولا مجال للمحدودية والنقص والجهل في الساحة الإلهية.

وحينما يُنزل الله خيرًا ونعمة، فلا يمكن أن يكون غير مريد أن نستفيد منها ونتمتع بها، ولا ريب أن الله يضع بين أيدينا كل ما هو خيرٌ وصالحٌ لنا. نحن البشر عندما نكون غير مريدين لشيء، فعدم إرادتنا له إمّا يكون لأننا لا نُدرك قيمته ولا نفعه لنا، وبسبب جهلنا وقلة إدراكنا لا نطلبه، أو لأننا غير محتاجين إليه، ولكن إذا نشأ لدينا شعور بالحاجة إلى الشيء ينشأ لدينا أيضًا دافع نحو طلبه ونتحرّك ونبذل الجهود لتحصيله.

أما في مسألة نعم الله، فالساحة الإلهية منزّهة عن الجهل، وعلم الله غير محدود ولا يخفى عليه شيءٌ، وكذلك هو سبحانه كمالٌ مطلق ولا يمكن أن يحتاج إلى شيء؛ لأن الاحتياج ناشئ عن النقص والمحدودية الوجودية، والله سبحانه هو الغني المطلق والخالى عن النقص والمحدودية، ومن هنا فإذا أنعم سبحانه بنعمة على الموجودات، فليس ذلك ناشئًا عن أنه يتوقّع أن يحصل على نفع من الموجودات مقابل استفادتها منها، بل لأنه ذو الرحمة غير المتناهية ويريد أن يوصل الموجودات إلى كمالها من خلال إفاضته النعم عليها، وأن ينفعها ببركات رحمته. فبما أنه يعلم أن الموجودات تنتفع من المطر ونور الشمس، وهاتين النعمتين الكبيرتين من النعم الإلهية غير المتناهية لهما نفع عظيم على الموجودات ومنها الناس، وهو سبحانه لا يخل بكل ما فيه الخير والصالح للمخلوقات، فقد وفّر لذلك هاتين النعمتين بكثرة لكل الموجودات.

وإذا أذعن الإنسان بأن العالم كله خير، وكل ما كان في الماضي وما هو موجود في الحاضر وما سيوجد في المستقبل له طيب الأثر



على وجودنا ومصاحتنا، وبتعبير آخر: إذا أذعن أن الله خَلَقَ كل شيء من أجله، فلن يغفل هذا الإنسان لحظةً واحدة عن شكر النِعم الإلهية اللامتناهية.

ومن الطبيعي أن هذا الإذعان والتصديق لدى الإنسان لا يتنافى مع أن الله خَلَقَ هذا العالم للآخرين أيضاً؛ لأن التدبير والإرادة الإلهيين يكونان بحيث إن الموجودات كلها تستفيد من إمكانيات هذا العالم ونعمه، واستفادة المخلوقات بنحو واسع من النِعم الإلهية لا يُحدث أي خلل في قابلية وسعة النِعم الإلهية اللامحدودة.

وبملاحظة التأثير المتبادل بين المخلوقات والارتباط النظامي القائم بين عناصر العالم، قال بعض الأكابر: إن الإنسان إذا تأمل بشكل حسن وإيجابي سيُدرك حقيقة أن الله خلق العالم كله لأجله، وفي الوقت نفسه خَلَقَ هذا العالم وهذا الشخص من أجل شخص آخر وهكذا!



المقال السادس والعشرون الشُّكر ردُّ فعلٍ فطري

الاستفادة من النِّعم وردُّ فعلِ الإنسان النفسي والسلوكي

بعد أن يُدرك الإنسان أنَّ الله وضع نعمةً بين يديه ورفع احتياجه، فمن الطبيعي أن تظهر عنده ردود فعلٍ وحالات نفسية خاصة تجاه ذلك. فإذا حصل الإنسان على شيء فيه فائدة فورية، كأن يُقدَّم الماء البارد للشخص العطشان، ويلتفتَ إلى أن الله أعطاه تلك النعمة، فإنه سوف يلتذّ بشرب هذا الماء والانتفاع من هذه النعمة، وسيستتبع الشعور باللذة إحساسٌ بالسعادة وحالة من انبساط خاص في الإنسان، ولا ريب أنَّ هذا الإحساس هو غير اللذة الحاصلة في البدء نتيجةً لشرب الماء البارد أو الاستفادة من أي نعمة أخرى.

وتبعًا لهذه الحالة من الانبساط والسرور يصبح الإنسان منفرج الأسارير، ويتعامل ويتحدّث مع الآخرين ببشاشة وأريحية، في المقابل حينما يفقد شخص نعمةً، تحصل لديه حالة من الانقباض ويشعر بالغم والانعراج ولا يبقى لديه مزاج للحديث مع الآخرين.





ثم الحالة الثالثة التي تعتري الإنسان حينما ينال النعمة هي حالة الرضا بالله أو بالشخص الذي وضع شيئاً بين يديه، فحينما يقدم شخص خدمة لشخص آخر ويلبّي له حاجةً ما، فبالإضافة إلى الالتذاذ وانسباط خاطر في الشخص الحاصل على النعمة، فإنه يشعر بنوع من الارتياح تجاه من لبّى حاجته، ويُقال لهذه الحالة النفسية الشعور بالرضا.

وخلافاً لتينك الحالتين والإحساسين السابقين اللذين لم يكن لهما متعلّق، فإن هذا الإحساس والحالة نسبيةٌ ولها متعلّق، ومتعلّقها هو الشخص الذي وفّر الحاجة للإنسان ولبّى احتياجه. وهذا الإحساس هو رضا فطريٌّ طبيعيٌّ يظهر عند الناس الذي يتحرّكون حول محور الإنسانية، وتبعاً لهذه الحالة يجد الإنسان قيمةً خاصّةً ويُكنّ احتراماً استثنائياً لمن قدّم له خدمةً أو أحسن إليه بما يتناسب مع مستوى الخدمة التي قدّمها إليه.

وبعد أن يوجد الشعور بالاحترام تجاه من قدّم الخدمة للإنسان، سيسعى الإنسان إلى إبراز ذلك الإحساس والاحترام الداخلي بواسطة الجوارح والأعضاء. ويختلف الأشخاص في إبراز احترامهم لمن أحسن إليهم بحسب محيطهم الاجتماعي وعاداتهم وتقاليدهم. وأول ردّ فعلٍ سلوكي في مقام شكر الآخرين وتقديرهم، هو شكر الآخرين وتقدير جهودهم باللسان، وهذا هو التصرف الأول تجاه الخدمة الواصلة إلى الإنسان. ثم يأتي دور الحركات والتصرّفات الخاصّة التي تُعدّ مصاديق للاحترام بحسب آداب وتقاليد مختلف المجتمعات. ففي بعض المجتمعات مثلاً يضع الإنسان يده على صدره لإبداء احترامه، وبعض آخر من المجتمعات ينحني أفرادها احتراماً، وبعض آخر يضع باطن يديه على صدره، وبعض يركع إبداءً للشكر.



٤٥



أما في الشريعة المقدسة فقد تمت مراعاة منتهى الأدب وحالة التقدير والشكر لله سبحانه من خلال الوقوع على التراب، ووضع الوجه عليه، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِذَا ذَكَرَ أَحَدُكُمْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَضَعْ خَدَّهُ عَلَى التُّرَابِ شُكْرًا لِلَّهِ، فَإِنْ كَانَ رَاكِبًا فَلْيَنْزِلْ فَلْيَضَعْ خَدَّهُ عَلَى التُّرَابِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَقْدِرْ عَلَى النُّزُولِ لِلشُّهْرَةِ فَلْيَضَعْ خَدَّهُ عَلَى قَرْبُوسِهِ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ فَلْيَضَعْ خَدَّهُ عَلَى كَفِّهِ ثُمَّ لِيَحْمَدِ اللَّهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ»^(١).

وفقاً لهذه الرواية، فمضافاً إلى الشكر اللساني قبال النعم الإلهية، يوجب الأدب الشرعي وأدب العبودية على الإنسان حين يتذكر نعمة إلهية أن يقع على التراب ويضع عليه خدّه شكراً لله.

وهناك نوع آخر من الشكر أسمى وأرفع مما تقدّم وهو من المظاهر البارزة لشكر الله، وهو أن يستفيد الإنسان من النعم الإلهية الاستفادة اللائقة والمناسبة، ويستثمر تلك النعم في المسير المطلوب وفيما يرضي الله تعالى. حينما يتأمل الإنسان في أنّ الله وضع نعمةً بين يديه فإن الاستفادة المناسبة والصحيحة من تلك النعمة يؤدي إلى نتائج دائمة، فالعقل السليم يقضي أن يستفيد الإنسان من تلك النعمة بالنحو الصحيح والمطلوب، وأن لا يُسيء الاستفادة منها؛ لأن سوء الاستفادة له نتائج مضرّة بالإنسان ويلحق به الخسارة. فحينما يعطينا صديقنا شيئاً ما فهو يتوقّع أولاً أن لا نسيء الاستفادة منه، وثانياً يتوقّع أن ننتفع بنحو يعود إليه شيء من نفعه. مثلاً حينما يُهدي لنا شخص ملابس جميلة فإنه يتوقّع أن نرتديها كي يراها ويتمتّع برؤيتها، أو حينما يهدي لنا خاتماً فإنه يتوقّع

(١) الكليني، الكافي، الجزء ٢، الصفحة ٩٨، الحديث ٢٥.



أن نستفيد منه بوضعه في يدينا. ومن الطبيعي أن الله سبحانه لا يسعى - من وراء النعمة التي يهبنا إياها - إلى أي منفعة أو لذة ترجع إليه؛ لأنه هو الغني عن العالمين. إذاً هو يريد منا أن لا نُسِيء الانتفاع من نعمته، وأن ننتفع من النعم التي منحنا إياها وبخاصة النعم المعنوية - كالعقل - في مسير الوصول إلى كمالنا وسعادتنا الأبدية.

وبكلمات أخرى: يريد الله منا ألا نستخدم نعمته في طريق الحرام والمعصية، بل ننتفع بها في مجال العبادة والطاعة والتكامل.

إذا استفاد الشخص من نعمة الله في طريق الحلال واستفاد منها استفادةً مباحة، ولم يستخدمها في طريق الحرام والمعصية حتى لا يبتلي بالعذاب والعقوبة الإلهية، أي لم يُبدل نعمة الله نقمةً ولم يكفر بنعمة الله، فهذا الشخص يكون مؤدياً لشكر نعمة الله، لكن إذا استفاد من تلك النعمة الإلهية - بالإضافة إلى الاستفادة المباحة الحلال - في طريق عبادة الله، فإنه يكون قد أتى بمرتبة أعلى من شكر الله.

وحينئذ تكون مراتب عبادة العباد [على درجات مختلفة]، تُعد أدنى درجة فيها هي العبادة الناشئة عن الخوف من نار جهنم، والدرجة التالية هي العبادة الناشئة عن الرغبة في نيل الثواب والجزاء، وأسمى مرتبة هي العبادة الناشئة عن طلب الرضوان الإلهي ونيل قرب المعبود، وكلما كانت دوافع الإنسان من عبادة الله أسمى وأعلى، ارتفعت مرتبة شكره للنعم الإلهية.

وبملاحظة ما تقدّم فمقابل النعمة التي يمنحها الله للإنسان تأتي أول مراتب الشكر - وهي التي تقتضيها الفطرة الإنسانية - هي أن يشكر الإنسان الله بلسانه ويشني عليه. والمرتبة الثانية هي أن يؤدي سجدة الشكر ويمرغ وجهه بالتراب. وثالث المراتب هي أن لا ينتفع من النعم



في طريق المعصية والذنب. ورابع مرتبة من مراتب شكر النعمة هي أن يستعملها في طريق عبادة الله، وفي هذه المرتبة كلما كان قصده ونيتته من العبادة أكثر خلوصاً وأكمل، فإنه يصل إلى مرتبة أعلى من مراتب شكر الله عز وجل.

عوامل ظهور دوافع الشكر في الإنسان

قد لا تتوفّر عند الإنسان دوافع شكر الله أحياناً، ومن هنا يأتي السؤال التالي وهو: كيف تنشأ دوافع شكر الله لدى الإنسان؟

بالرغم من أن الإنسان بفطرته يحترم مَنْ يمنحه نعمة، ويشكره عليها، لكنه لا يلتفت أحياناً إلى أن النعم التي بين يديه قد وفّرها الله له. وثانيًا، وحتى لو كان ملتفتًا، فإن المشاكل والمصاعب قد تمنعه من أن يشكر الله عليها، أو أنه في مقام الشكر يكتفي بقول «الحمد لله»، أو «الشكر لله»، ولا يؤدّي المراتب الكاملة لشكر نعم الله.

والجواب هو أنه من أجل تحفيز الدوافع للقيام بأي عمل يجب أولاً التفكير في منافع ذلك العمل، وإذا كانت منفعته ونتائجه ذات قيمة للإنسان ومهمّة بالنسبة إليه، فإنه يُقدّم على القيام به.

وبصرف النظر عن الموانع التي يمكن أن تقف في طريق القيام بعمل الخير، وفي الظروف الطبيعية العادية، فإن عدم الاعتقاد بالمنافع أو عدم الالتفات إلى منافع عمل الخير أو الغفلة عنها تؤدّي إلى أن لا يبادر الإنسان إلى أداء عمل الخير. إذًا فمن أجل إيجاد الدافع للقيام بعمل الخير، ومنه شكر الله، يجب في المرحلة الأولى أن يلتفت الإنسان إلى منافع وفوائد ذلك العمل. وأوّل فائدة ينالها الإنسان في التفاته إلى



النِّعم - حتى بالنسبة للذين لا يؤمنون بالدين - هي أنه يلتذُّ بها، ويشعر بالرضا بسببها.

حينما يلتفت الإنسان إلى ثروته وإمكاناته - سواء اعتقد أنها من الله أو لم يعتقد بذلك - فإنه يشعر بالسعادة والرضا. وبغضِّ النظر عن أننا نؤمن بالله ونعتقد أن وجودنا وجوارحنا وأعضاءنا كلها منه تعالى، وأنه سبحانه هو من يُدبِّرها، فإننا إذا تأملنا في أعضائنا - كالأذن والعين - سندرك حجم الثروة العظيمة التي بين أيدينا والتي لا نعرف قدرها.

فإذا عميت عينُ الإنسان فإنه على استعداد لأن يُنفق كل ثروته من أجل استعادة بصره، أو إذا أصيب قلبه أو سائر أعضائه، فإنه لا يتأخَّر عن إنفاق أي مبلغ - مهما كان - من أجل استعادة صحَّته. وحينما يفكِّر الإنسان في هذه الثروات التي منحها الله له مجاناً سوف يشعر بالسعادة والرضا، ولا يقلقه افتقاره لبعض الأمور.

والفائدة الأخرى التي تتحقَّق من الالتفات إلى هذه النِّعم هي أن الإنسان يدرك أنه محبوب من قِبَل الذي وفَّر له هذه النِّعم. ومِن أكبر احتياجات الإنسان النفسيَّة هي أن يكون محبوباً عند الآخرين. وقد ثبت في علم النفس أن الإنسان إذا شعر بأنه لا يوجد من يحبُّه، وأنه قد فقد اهتمام الجميع وسقط من أعينهم، فسوف يتعرَّض لأسوأ حالة نفسيَّة، وهي حالة قلماً يتعرَّض لها أحدٌ من الناس، وبسبب ذلك قد يُصاب بالجنون، أو يُقدِّم على الانتحار.

إذاً فاحتياج الإنسان لأنَّ يكون محبوباً هو احتياج نفسيٌّ ضروري، وحينما يدرك الإنسان أن الله يحبُّه وقد منحه كل هذه النِّعم مجاناً، فسوف يطمئن باله ويغمره شعور بالراحة النفسيَّة، ويشعر بشكر النِّعم



الإلهية. وحينما يلتفت الإنسان إلى أنه ربما يفقد هذه النعم، إلا إذا أدى شكرها، فسوف يقوى عنده عامل الشكر.

وكذلك حينما يدرك الإنسان أن شكره لله لا يؤدي إلى استمرار النعم فحسب، بل سيتسبب في زيادتها وكمالها، وكذلك حينما يعلم أنه بشكر الله فإنه سبحانه يعطيه الثواب والنعم الأبدية الأخروية، فإنه سيسعى بكل وجوده نحو شكر النعم الإلهية.

إن النعم الدنيوية التي يحبها الإنسان مؤقتة غير دائمة، كنعمة السلامة التي إذا تعرضت للخطر يكون الإنسان مستعداً لإنفاق كل ما يملك لاستعادتها، وسيأتي يوم تزول فيه جميع النعم الدنيوية ومنها نعمة حياة الإنسان التي ستبلغ نهايتها عاجلاً أم آجلاً، أما النعم الأخروية فهي أبدية وخالدة، ولا يمكن مقارنتها بالنعم الدنيوية في تأمينها احتياجات الإنسان المعنوية وتحقيقها لسعادته ورضاه.

وفي ضوء ذلك يجب على الإنسان زيادة الاهتمام من أجل اكتساب النعم المعنوية والأبدية. وأحد سبل نيل تلك النعم هو شكر الله.

إذاً فالغفلة عن نتائج شكر الله تعدّ عاملاً أساسياً من عوامل فقدان دافع الشكر والحافز له، أي الغفلة عن الالتفات إلى النعمة وشكرها وكونه باعثاً على طمأنينة النفس والروح وسعادة الإنسان، وعدم الالتفات إلى بعض الاحتياجات، وإلى أن الشكر يؤدي إلى دوام النعمة وزيادتها، والأسمى من ذلك كله أنه يُعدّ باعثاً على الثواب والجزاء الأخروي ويُعدّ نعمةً أبدية.

إن الالتفات إلى النعم الإلهية يستوجب من الإنسان - انطلاقاً مما يتطلبه الشكر والتعاليم الإسلامية - أن يمرّغ وجهه بالتراب خشوعاً



وخضوعاً، ولو تجاوزنا ذلك فإن هذا العمل لو تمّ بدافع شكر الله فهو يُعدّ عبادةً خالصةً.

ومن المناسب أن نتطرّق هنا إلى دوافع مثل هذه العبادة، فأحد تلك الدوافع هو رجاء دوام النعمة وزيادتها، ويمكن أن يكون الدافع هو الإحساس بالتكليف وكون هذه العبادة محبوبةً عند الله سبحانه، دون النظر إلى زيادة النعمة ودوامها، بل حتى دون النظر إلى الثواب والجزاء والخلص من نار جهنم. فدافع الواصلين إلى مرتبة من الكمال ممن استطاعوا أن يُخلصوا نيتهم وسلوكهم لله، فهو الإحساس بالتكليف وجلب رضا الله عزّ وجلّ. فحتى لو لم يعطهم الباري تعالى ثواباً فإنهم يواصلون عبادتهم له وشكرهم إياه.

فهؤلاء يرون أنفسهم مدينين لله ونعمه، ولا يشعرون بالطمأنينة ما لم يؤدّوا الشكر، وعلى الأقلّ يسعون من خلال شكرهم لله أن يؤدّوا دين الله بمقدار وسعهم. وفي مجال العلاقات القائمة بين الناس يُلاحظ أنه حينما يقدّم شخصٌ لآخر خدمةً، فالشخص الذي حصل على تلك الخدمة يجد نفسه رهيناً لمن قدّم له تلك الخدمة، ويسعى إلى ردّ ذلك الجميل بأن يشكره باللسان على أقلّ تقدير، ونراه يعمد إلى شكره والاعتذار منه، لكي يقلّل من ثقل الدين والمسؤوليّة المُلقاة على كاهله.

وإذا تطرّقنا أيضاً لدراسة هذا المستوى من الدافع سنُدرك أنه يشتمل على نوع من الالتفات الخفي إلى النفس؛ لأنّ الشعور بالانزعاج من عدم شكر النعمة، وسكينة القلب وطمأنينة الوجدان هما المحركان للشكر.

وأما خاصّة أولياء الله وأحبابه الذين نالوا أعلى مراتب الكمال والإخلاص، فهم غارقون في العظمة والمحبة والولاية الإلهيّة بحيث إنهم



ينسون حتّى أنفسهم، فلا تكون الدوافع النفسانية محرّكاً لهم في عبادة الله سبحانه.

دور الأدعية في تقوية روحية شكر الله

على أي حال يجب على الإنسان الشُّكر حتّى لو كان من أجل زيادة النعمة واستمرارها، ونيل الثواب الأخروي، وكما قلنا سابقاً فإن إدراك ضرورة شكر الله متوقّف على معرفة نعم الله، ومن الواضح أن الإنسان عاجز عن إدراك جميع نعم الله، ولو أمضينا عمرنا كلّه في الشُّكر فلن نوّدي حقّ شكر جميع النعم الإلهيّة.

إذاً فمن أجل تجنّب الوقوع في كفران النعمة وعدم الشُّكر، علينا أن نخصّ شيئاً من وقتنا - بقدر الإمكان - في الليل أو النهار لشُّكر نعم الله. والأفضل هو أن نتلو كل فترة الأدعية المخصّصة لشُّكر النعم الإلهيّة، من قبيل مناجاة الشاكرين وسائر الأدعية الواردة في الصحيفة السجّادية حول الشُّكر، والتي تمّ فيها الاعتراف بشُّكر الله بنحو مختصر.

وفي هذا المجال يعدّ أفضل الأدعية وأشدّها تأثيراً، حيث تكرّرت فيه الإشارة إلى نعم الله، دعاء الجوشن الصغير، وقد أكّد العلماء على آثاره الدنيوية والمعنوية الكثيرة، وربّما من الأفضل أن يتلو الإنسان هذا الدعاء الشريف في الأسبوع مرّة، أو على الأقل في الشهر مرّة، ليتذكّر نعم الله الكثيرة العظيمة التي يغفل الإنسان عنها أحياناً.

وقد ورد في فقرة من هذا الدعاء الشريف: «إِلَهِي وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ أَمْسَى وَأَصْبَحَ فِي كَرْبِ الْمَوْتِ وَحَشَرَجَةِ الصَّدْرِ وَالنَّظَرِ إِلَى مَا تَقْشَعِرُّ مِنْهُ الْجُلُودُ وَتَفْزَعُ لَهُ الْقُلُوبُ وَأَنَا فِي عَافِيَةٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ... فَلَكَ الْحَمْدُ يَا رَبَّ مِنْ مُقْتَدِرٍ لَا يُغْلَبُ وَذِي أُنَاةٍ لَا يُعْجَلُ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ



مُحَمَّدٌ وَاجْعَلْنِي لِنِعْمَائِكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ وَلَا لَائِكَ مِنَ الذَّاكِرِينَ، إِلَهِي وَكَمْ
 مِنْ عَبْدٍ أَمْسَى وَأَصْبَحَ سَقِيمًا مُوجِعًا فِي أَنْتِهِ وَعَوِيلٌ يَتَقَلَّبُ فِي غَمِّهِ لَا
 يَجِدُ مَحِيصًا وَلَا يُسِيغُ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا وَأَنَا فِي صِحَّةٍ مِنَ الْبَدَنِ وَسَلَامَةٍ
 مِنَ الْعَيْشِ كُلِّ ذَلِكَ مِنْكَ... إِلَهِي وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ أَمْسَى وَأَصْبَحَ خَائِفًا
 مَرْغُوبًا مُشْفَقًا وَجَلًّا هَارِبًا طَرِيدًا مُنْجَرًّا فِي مَضِيْقٍ وَمَخْبَأَةٍ مِنَ الْمَخَابِي
 قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِرَحْبِهَا لَا يَجِدُ حِيلَةً وَلَا مَنَجًى وَلَا مَأْوًى وَأَنَا فِي
 أَمْنٍ وَطَمَآنِينَةٍ وَعَافِيَةٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ»^(١).

وفي نفس الدعاء ورد أيضًا: «إِلَهِي وَسَيِّدِي وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ أَمْسَى
 وَأَصْبَحَ مَغْلُوبًا مُكْبَلًا فِي الْحَدِيدِ بِأَيْدِي الْعُدَاةِ لَا يَرْحَمُونَهُ، فَقِيدًا مِنْ
 أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ مُنْقَطِعًا عَنْ إِخْوَانِهِ وَبَلَدِهِ يَتَوَقَّعُ كُلَّ سَاعَةٍ بَأْيٍ قَتْلَةٍ يُقْتَلُ
 وَبَأْيٍ مُثَلَّةٍ يُمَثَّلُ بِهِ، وَأَنَا فِي عَافِيَةٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ... إِلَهِي وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ
 أَمْسَى وَأَصْبَحَ يُقَاسِي الْحَرْبَ وَمُبَاشَرَةَ الْقِتَالِ بِنَفْسِهِ قَدْ غَشِيَتْهُ الْأَعْدَاءُ
 مِنْ كُلِّ جَانِبٍ بِالسُّيُوفِ وَالرَّمَاكِ وَالْأَلَةِ الْحَرْبِ، يَتَفَقَّعُ فِي الْحَدِيدِ قَدْ بَلَغَ
 مَجْهُودُهُ لَا يَعْرِفُ حِيلَةً، وَلَا يَجِدُ مَهْرَبًا قَدْ أُذِنَفَ بِالْجِرَاحَاتِ، أَوْ مُتَشَحَّطًا
 بِدَمِهِ تَحْتَ السَّنَابِكِ وَالْأَرْجُلِ، يَتَمَنَّى شُرْبَةً مِنْ مَاءٍ أَوْ نَظْرَةً إِلَى أَهْلِهِ
 وَوَلَدِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا، وَأَنَا فِي عَافِيَةٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ»^(٢).

ضرورة شكر نعمة الحكومة الإسلامية

في مقام الشكر، قد يشكر الإنسان بشكل إجمالي جميع النعم الإلهية،
 لكن الذي ينبغي بنحو أكبر هو تقسيم نعم الله إلى فئات، وشكر كل
 واحدة من تلك الفئات بذكر اسم كل واحدة منها تفصيلًا. مثلًا يُخَطِرُ

(١) مفاتيح الجنان، دعاء الجوشن الصغير.

(٢) المصدر السابق.



الإنسانُ في ذهنه أو يذكر بلسانه النِّعمَ الموجودةَ في الجسم، والنِّعمَ النفسية والروحية، ونِعمة الإيمان والهداية، ونِعمة الأسرة، ونِعمة الولد الصالح السالم، ونِعمة الأقارب، ونِعمة الصديق الصالح، ونِعمة الأستاذ، ويقوم بشكر الله تعالى مقابل كل نِعمة من تلك النِّعم. وكذلك النِّعم الاجتماعية وبخاصة نِعمة الحكومة الإسلامية التي يقف على رأسها نائب إمام العصر عليه السلام، التي يجب الاهتمام بها وأن يحمد الله على هذه النعمة الكبرى. وهذه النعمة تتحقق في ظلها بركات كثيرة مادية ومعنوية، وقد نلنا بفضلها العزّة والرفعة، فأصبحنا نعيش في بلدنا الجمهورية الإسلامية بطمأنينة دون مضايقة، واستطعنا في ظل ولاية الفقيه أن نوّدي تكاليفنا الدينيّة والاجتماعية بشكل جيّد.

وأما في العهد البهلوي وحكومة نظام الشاه الظالم فقد كانت الأوضاع سيئةً بحيث إن الشاب المتدين لم يكن يجرؤ على الصلاة في المحيط الجامعي؛ لأنه يكون حينئذٍ عُرضَةً لسُخرية واستهزاء الآخرين. حتى أن المسؤولين في ذلك النظام كانوا يسعون إلى منع الحجاب في الجامعات. وكانت أجواء المُدن والمجتمع فاسدةً وملوثةً، وتنتشر مراكز الفساد كمحلات القمار ومحلات بيع الخمر بشكل واسع، بل كانت محلات بيع الخمر أكثر من المكتبات. إلى أن سقط ذلك النظام بجهد قائد الثورة الإسلامية سماحة الإمام الخميني رحمته الله وأتباعه الصادقين، فأقيمت الحكومة الإسلامية وتمّ إغلاق مراكز الفساد ومحلات الخمر، وتمّ نشر الثقافة الإسلامية، واستطاع الناس أن يؤدّوا تكاليفهم الفردية والاجتماعية بمنتهى الأمان والراحة.

ويجب علينا أن نقارن هذه الحكومة والنظام الإسلامي الذي تأسس بفضل جهاد سماحة الإمام الخميني رحمته الله وتضحيات الشهداء، يجب أن



نقارنه بالدول والحكومات المجاورة لبلدنا، أو نقارنه بسائر الحكومات الغارقة في الفساد ومسؤولي تلك الحكومات المُنغمسين بالترف والفساد وتبذير أموال شعوبهم، واستغلال الدخل الوطني لأغراض شخصية. لننظر إلى الظروف الأمنية في بلدان مثل أفغانستان والعراق حيث لا يمضي يوم إلا وتحدث تفجيرات أو عمليات انتحارية إرهابية يفقد بسببها الكثير من الأبرياء أرواحهم، مما يسلب شعوب تلك البلدان فرصة الحياة الآمنة، ويتعذر فيها النمو الاقتصادي. يجب علينا أن نشكر الله لأننا نعيش في بلد آمن ينعم بأمان لا نظير له في العالم.

قبل فترة جاء عدد من المسيحيين من مواطني بعض البلدان الأوروبية إلى مدينة قم لدراسة العلوم الإسلامية، وقد أُجريت معهم مقابلة صحفية قالوا فيها إن إيران تتمتع بمستوى أمني عالٍ جدًا، ولا نشاهد هذا الأمان في أي بلد آخر. وقالوا أيضًا: في بلدنا - وهو بلد متقدم جدًا - لا تجرؤ المرأة على الخروج من المنزل بعد غروب الشمس والمشي في الشوارع.

وقبل مدة قرأتُ في إحدى الصحف أن النساء في ألمانيا حينما يقدن السيارات يضعن إلى جانبهن دميةً حتى لا يُعتدى عليهن، لكي يتصور الأشخاص الفاسدون أن تلك المرأة يوجد إلى جانبها شخص آخر فلا يجروا أحد منهم على الاعتداء عليها. لاحظوا أن بلدًا مثل ألمانيا تتوفر فيه جميع اللذات المادية والحيوانية، لكن بما أن غريزة عبادة الشهوات لدى الأشخاص الفاسدين لا يُمكن إشباعها، نجدهم لا يشبعون بما لديهم من اللذات المتوفرة بين أيديهم، لذا يفكرون في الاعتداء والاعتصاب، فينتج عن ذلك سلب الأمان الاجتماعي والنفسي من المجتمع.



المقال السابع والعشرون موانع الشُّكر وضرورة شُكر النِّعم المعنوية

موانع شُكر النِّعم في كلام الإمام السَّجاد عليه السلام



تحدَّثنا في سياق دراستنا لمناجاة الشاكرين عن أهميَّة شُكر الله، كما وتقدَّمت الإشارة إلى أن شُكر النعمة أمرٌ فطريٌّ، وأنه حينما تتوفَّر نعمةٌ بين يدي الإنسان ويلتفت إليها، فإنه يسعى بفطرته إلى التقدُّم بالشُّكر إلى من أنعم بها عليه. وطبيعي أنه يجب الالتفات إلى أننا لا نستطيع شُكر جميع نعم الله. وعدم محدودية النِّعم الإلهيَّة يؤدِّي إلى عدم إمكانيَّة شُكرها كلّها، وظروف الحياة أيضًا لا توفِّر لنا مثل هذه الفُرصة.

وبغضِّ النظر عن ذلك، ثمة موانع وعقبات تحول دون شُكر الله، ولكي ننال توفيق شُكر الله، علينا أن نبذل جهدنا كي نعرف تلك الموانع بقدر المستطاع. وفي هذا المجال يقول الإمام السَّجاد عليه السلام:

«إِلَهِي أَذْهَلَنِي عَنْ إِقَامَةِ شُكْرِكَ تَتَابِعُ
طَوْلَكَ، وَأَعْجَزَنِي عَنْ إِحْصَاءِ ثَنَائِكَ
فَيُنْصُ فَضْلِكَ، وَشَغَلَنِي عَنْ ذِكْرِ



مَحَامِدِكَ تَرَادُفُ عَوَانِدِكَ، وَأَغْيَانِي عَنْ
نَشْرِ عَوَارِفِكَ تَوَالِي أَيْدِيكَ، وَهَذَا مَقَامُ
مَنْ اعْتَرَفَ بِسُبُوغِ النِّعْمَاءِ، وَقَابَلَهَا
بِالتَّقْصِيرِ، وَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْإِهْمَالِ
وَالْتَضْيِيعِ».

١ . دوام هطول النعم والبركات

يبيّن الإمام عليه السلام أن أوّل عامل من عوامل الغفلة عن شكر النعم الإلهية هو توالي تلك النعم وترادفها، يعني حينما يكون الإنسان في معرض الاستفادة من النعم الإلهية، وتجذب به تلك النعم نحوها، ويكون بصدد تلبية احتياجاته بها، فسوف ينصرف التفاته عن الخالق ويتّجه نحو تأمين الاحتياجات والالتذاذ بتلك النعم التي تتوفّر بين يديه.

الآن أعزائي، وأنا أتحدّث معكم في موضوع شكر نعم الله، أستعرض بعض النعم الإلهية بما يتناسب مع موضوع بحثي وألفتُ إليها، وربما كنتُ غافلاً عن بعضها في ظروف وأوضاع أخرى. وإحدى تلك النعم هي هذا المكان الذي نبحث فيه حول المعارف الإلهية، وكذلك هذا المجلس وحضوركم فيه أعزائي الحاضرين، كل هذا من النعم الإلهية، وكذلك ما تعلّمناه من أساتذتنا، وكذلك ما تعلّمناه من الآيات والروايات وكُتب العلماء، فهذه كلها نعم إلهية كبيرة. وكذلك الأجهزة الصوتية التي توصل كلامي إليكم هي نعم إلهية، وكذلك الفكر والذاكرة واللسان الذي نتكلّم به هي نعم إلهية، وكلنا غافلون عنها ولا نلتفت إليها، والنتيجة هي أننا لسنا بصدد شكرها.



لا شك أن ذلك القسم من النعم التي لها جاذبيّة قويّة يكون ذا تأثير أكبر في صرف انتباه الإنسان عن الله وشكره، فالإنسان الجائع مثلاً، حينما يجد طعاماً شهياً فإنه يلتهمه بشهوة وجشع بحيث ينسى أن هذا الطعام إنما هو نعمة الله، وأنه يجب عليه شكره، ولا ينبغي له أن يقتصر على مجرد إشباع غريزته وحاجته إلى الطعام ودفع الجوع عن نفسه. أو حينما تغلب على الإنسان غريزة الشهوة ويسعى إلى إشباعها فإنه يغفل عن أن هذه الشهوة ووسائل إشباعها كلّها من نعم الله، ويكون كل همّه إشباع الاحتياج الجنسي، وربما يغفل حتّى عن الإشباع الصحيح والمشروع لتلك النعمة، فيسعى إلى الاستفادة الحرام وغير المشروعة من تلك النعمة الإلهيّة، فيبدّل نعمة الله نقمةً وعاراً عليه.

إذاً فأحد العوامل الأساسية التي تقف عقبةً أمام معرفة نعم الله والالتفات إليها وتمنعنا نتيجةً لذلك من شكر الله على تلك النعم هو وفور وترادف نعم الله على الإنسان، وبحسب تعبير الإمام السجاد عليه السلام في هذه المناجاة هو «توالي النعم وتتابع العوائد»، يعني هطول النعم بشكل مستمرّ ومتواصل؛ لأن جميع ما يتوفّر بين يدي الإنسان ويُشبع احتياجاته، إنما هو من نعم الله، وهدف الله من منحه إيّاها إنما هو تسهيل وتوفير أرضيّة التكامل والسموّ للإنسان؛ لأنه من خلال الاستفادة الصحيحة من النعم الإلهيّة تتحقّق الغاية الأساسيّة من خلق الإنسان ألا وهي الوصول إلى الكمال والسموّ والقرب الإلهي. غير أن كفران النعمة وعدم الشكر والغفلة هي أمور تؤدّي إلى إساءة الانتفاع من النعم الإلهيّة، مما يُفضي إلى عدم تحقّق الهدف من تلك النعم، فيؤدّي بالإنسان إلى الانحطاط والسقوط في حضيض الحيوانيّة وعبادة الشهوات والأهواء.



ومن الواضح أن توالي النعم وترادفها ناشئ عن الفضل الإلهي غير المتناهي، وهو بنفسه كمالٌ وليس نقصاً، وإنما النقص والإشكال يردُّ علينا نحن؛ إذ إننا حينما ننتفع بنعمةٍ نغفلُ عن بقيّة النعم، وكذلك نغفل عن الذي أنعم بها علينا، وهو الله الذي وفّر لنا كل هذه النعم، ولا يمكننا أن نوسّع من دائرة ونطاق التفاتنا وتوجّهنا، كيما نتمكن - مضافاً إلى التفاتنا إلى النعمة التي بين أيدينا - من الالتفات كذلك إلى سائر النعم، والالتفات خاصةً إلى الله المُنعم لكل هذه النعم، ونتيجة هذا الالتفات هو التوجّه بالشكر إليه سبحانه.

إذاً يجب علينا أن نسعى إلى رفع هذا النقص من خلال ترويض أنفسنا واتباع التعاليم الدينيّة والمعنويّة. ومن أجل رفع هذا النقص والتفات الإنسان إلى المُنعم الذي يُنعم عليه بشكل متواصل، فقد اشتملت الشريعة المقدّسة على آداب تؤدّي رعايتها حين الاستفادة من النعم الإلهيّة إلى تقوية دوافع الشكر في الإنسان وتوجه التفاته إلى الله. ومن تلك الآداب أن يبدأ الإنسان تناوله الطعام بقول: «بسم الله الرحمن الرحيم»، أو يقول: «الحمد لله» أثناء تناول الطعام وبعد الانتهاء منه، أو يقول في دعاء الوضوء حين مشاهدة الماء: «الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً ولم يجعله نجساً».

إن الالتفات إلى هذه الآداب والمستحبات وتكرارها يؤدّي إلى زيادة الالتفات إلى النعم الإلهيّة ويُساعد على الاستفادة الصحيحة منها وشكر الله عليها.



٥٩



٢. عدم تناهي نعم الله

العامل الثاني الباعث على الغفلة عن شكر نعم الله - وقد ذكرته مناجاة الإمام عليه السلام أيضاً - هو عدم تناهي نعم الله وتواصل نزولها باستمرار، فعدم محدودية نعم الله يجعل الإنسان عاجزاً عن إحصائها، فإن عدم الالتفات إلى تلك النعم غير المحدودة يؤدي إلى غفلة الإنسان عنها وعدم إمكانية شكرها كلها.

ومصطلح «الفيض» الوارد في التعاليم الدينية بوفرة - ونحن كثيراً ما نتعامل مع تعابير من قبيل «الفيض الإلهي»، و«فيض الله» - هو بمعنى الهطول والنزول، من «فاض الماء» بمعنى انحداره من وعائه. وإن استعمال هذا المصطلح في دائرة الماديات والمحسوسات يأتي بمعنى الفوران من الداخل، والانحدار والسيل، ومن هنا فحينما يسيل الدمع من العين بغزارة يُقال «فاضت العين»، أو كما ورد في القرآن فيما يرتبط بالنصاري المؤمنين الذين حينما استمعوا إلى دعوة رسول الله ﷺ سارعوا إلى الإيمان به، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾^(١).

وأما استعمال مصطلح «الفيض» في حق الله تعالى، كما في قولنا «العالم فيض الله»، فليس المراد هنا المعنى المادي إطلاقاً، وهذا التعبير لا يعني أن الله فيه شيء ثم يفيض، وأساساً نحن حينما نريد أن ننسب المفاهيم والصفات المنتزعة من الماديات إلى الله سبحانه، يجب أن نجردّها من الحيثيات المادية، فيكون لدينا فهم معنوي صرف ومجرد لها،



كما في مصطلح «علا» من «العلو» الذي يعني الارتفاع والفوقية، ولكنه حينما يُستعمل بنسبته إلى الله تعالى يُجرّد منه معنى الارتفاع والعلو المادّي، فيفيد حينها العلو المعنوي لله سبحانه. أو مصطلح «العظيم» المأخوذ من «العظم»، وفي هذا الاستعمال يُطلق العظيم على الحيوان الكبير الذي له عظام كبيرة، غير أنّه حينما يُستعمل بنسبته إلى الله عزّ وجلّ لا يُلاحظ فيه المعنى المادّي مطلقاً؛ لأن الله مجرّد وليس له صفات الأجسام، وإنما يُراد منه المجد والعظمة.

وكذلك «الصانع» فإنه يُطلق على العامل الذي يصنع الأشياء والأدوات من خلال تركيب موادها وإيجاد التغييرات فيها، ومن المسلم أن هذا المعنى بهذا الاستعمال ليس مراداً في الله سبحانه، وإنما استعماله في حقّ الله تبارك وتعالى بمعنى أن الله أخرج الأشياء من كتم العدم وألبسها ثوب الوجود.

ومن هنا فحينما يَستعمل المتكلّمون هذه الصفات والمفاهيم المشتركة في الله سبحانه، فإنهم يسعون إلى تصفيتها من شوائب الجسمانية وتجريدها، فيقولون مثلاً: الله عالم لا كعلمنا، أو هو قادر لا كقدرتنا.

إلى هنا اتضح أن أحد عوامل الغفلة عن النعم الإلهية وعدم شكرها هو كثرتها وخروجها عن حدّ الإحصاء، ونزولها المتواصل المستمرّ، وهذا يؤدّي إلى عجز الإنسان عن معرفتها، وعدم قدرته على إحصائها؛ لذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعَاتِلُكُمْ مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(١).



وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾^(١).

ونحن مهما سعينا لمعرفة نعم الله فإننا لن نعرف سوى قسم صغير منها، وحتى معرفة هذا القسم الصغير هي معرفة ناقصة، ولا يمكننا بوجه أن نعرف جميع النعم المحيطة بنا، وكذلك الإمكانيات والنعم التي في أجسامنا ووجودنا، فنحن عاجزون عن شكر هذه النعم اللامحدودة، ونحن في مقام الشكر إنما يمكننا أن نشكر ذلك القسم الذي عرفناه معرفة ناقصة من النعم، وأما أداء حق الشكر فنحن عاجزون عن أداء حق شكر نعمة واحدة مما أنعم الله به علينا.

ومن أجل شكر نعم الله التي يمكننا معرفتها، يجب علينا الاستعانة بالعلوم ذات الصلة، وعلينا بمقدار الإمكان أن نتعرف على النشاطات الفيزيولوجية للجسم، وفعاليات الأعضاء والتفاعل بينها، والتفاعل بين الروح والنفس والجسد لدى الإنسان، وكذلك علينا معرفة خواص بعض النعم التي نستفيد منها. وعلينا أيضًا إدراك أن دفع أنواع البلاء والمصائب، وكذلك الملائكة الموكلين بحفظنا، كلها تُعدُّ من النعم الإلهية التي قلما نلتفت إليها ونشكر الله عليها، ومن هنا نجد الأئمة المعصومين عليهم السلام بالغوا في تبئيرنا إلى أنواع البلاء التي دفعها الله عنا، كما ورد في دعاء الجوشن الصغير، ودعاء الافتتاح، ودعاء أبي حمزة الثمالي.



ضرورة الالتفات الخاص إلى النعم المعنوية وشكرها

ينبغي لنا أن نجلس في مكان هادئ ونتأمل جيداً في النعم الإلهية ونعدّ قائمةً بها، وكلّما ذكرنا نعمةً منها نشكر الله عليها. وعلينا أن نقوم بأداب العبودية وشكر المعبود، وأن نشكر ما أنعم الله به علينا من نعم نعرفها. كما أنه حينما يقدّم لنا شخص خدمةً ويقوم بعمل من أجلنا، نجد أنفسنا مكلفين بشكره، وأحياناً نتقدّم بالشكر إلى الشخص الذي أحسن إلينا مراراً وتكراراً كلما التقينا به ونُبدي له خجلنا وشكرنا لجهوده. مع فارقٍ وهو أن ما يقدّمه الآخرون لنا محدودٌ كمّاً وكيفاً، لكن نعم الله لا حدّاً لها، ولا يمكن لنا أن نوّدي شكرها جميعاً، بل إن أداء حقّ إحدى تلك النعم غير مقدور لنا، وبخاصة النعم المعنوية كنعمة الإيمان والدين التي لا يمكن تقييمهما، ولا يمكننا أن نُدرك أهميتهما وقيمتها الحقيقية.

وقد ورد في رواية بيان ثروة ولاية الأئمة الأطهار عليهم السلام وأنها ثروة عظيمة، عن موسى بن جعفر عليه السلام: «إِنْ رَجُلًا جَاءَ إِلَى سَيِّدِنَا الصَّادِقِ عليه السلام فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَقْرَ، فَقَالَ: «لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتَ، وَمَا أَعْرِفُكَ فَقِيرًا».

قال: واللّه يا سيّدي ما استبّيتُ، وذكّر من الفقرِ قطعةً، والصّادقُ يُكذِّبُه - إلى أن قال له -: «خَبَّرَنِي لَوْ أُعْطِيتَ بِالْبَرَاءَةِ مِائَةَ دِينَارٍ، كُنْتَ تَأْخُذُ؟»

قال: لا. إلى أن ذكر أُلوفَ دنانيرٍ، والرَّجُلُ يَحْلِفُ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ.

فقال له: «مَنْ مَعَهُ سِلْعَةٌ يُعْطَى بِهَا هَذَا الْمَالُ لَا يَبِيعُهَا، هُوَ فَقِيرٌ؟!»^(١).



وعلى أي حال فإن النعم المعنوية كنعمة الإسلام، والتشيع، وولاية أهل البيت عليهم السلام، ومعرفة الله، ومعرفة أهل البيت عليهم السلام، والإمام الحسين عليه السلام والإمام الحجة عليه السلام، لها قيمة أكبر بكثير من النعم المادية، ولا يمكن قياسها بأي مقياس ولا تقييمها بأي ثمن، وإدراك هذه النعم فوق طاقتنا، ونحن مضطرون إلى أن نعتزف أمام الله بعجزنا عن شكر هذه النعم العظيمة، وبحسب ما تُشير إليه بعض الروايات فإن الاعتراف بالعجز عن شكر نعم الله يعدُّ بنفسه نوعاً من الشكر، ومن تلك الروايات قول الإمام الصادق عليه السلام: «وَتَمَامُ الشُّكْرِ اعْتِرَافُ لِسَانِ السَّرِّ خَاضِعاً لِلَّهِ تَعَالَى بِالْعَجْزِ عَنْ بُلُوغِ أَذْنَى شُكْرِهِ؛ لِأَنَّ التَّوْفِيقَ لِلشُّكْرِ نِعْمَةٌ حَادِثَةٌ يَجِبُ الشُّكْرُ عَلَيْهَا، وَهِيَ أَعْظَمُ قَدَرًا وَأَعَزُّ وُجُودًا مِنَ النِّعْمَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا وَفَّقَتْ لَهُ، فَيَلْزَمُكَ عَلَى كُلِّ شُكْرٍ شُكْرٌ أَعْظَمُ مِنْهُ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مُسْتَغْرِقًا فِي نِعْمَتِهِ، قَاصِرًا عَاجِزًا عَنْ دَرْكِ غَايَةِ شُكْرِهِ»^(١).

قصور الإنسان وتقصيره في شكر الله

يُقر الإمام السَّجَّاد عليه السلام في نهاية الفقرة المذكورة من مناجاته بتتابع النعم ووفرتها والعجز عن شكرها، وكذلك القصور عن تقديرها وشكرها. وبما أن نعم الله لا تُحصى ولا يستطيع الجنُّ والإنسُ إحصاءها، فالإنسان قاصر وعاجز عن أداء حقِّ شكرها، لكن بما أن الالتفات إلى النعمة والسعي للاستفادة منها يُنسي الإنسان ذكرَ الله، وبالتالي لن يسعى بمقدار وسعه لأن يشكر الله، فهو لذلك مقصّر؛ لأنه لا يجوز أن يؤدي تركيز الإنسان على بعض النعم إلى إن يُنسيه سائر النعم، ويُنسيه الله الذي هيأ له تلك النعم، ويجب على الإنسان في كل حال أن يركّز انتباهه

(١) المصدر نفسه، الجزء ٧١، الباب ٦١، الصفحة ٥٢، الحديث ٧٧.



على الله سبحانه، وأن لا يصرفه شيء عن ذكر الله، وفي الاستفادة من أي نعمة عليه أولاً أن يتوجه نحو الله وأن يشكره على تلك النعمة.

ثم يشهد ﷺ على نفسه بالإهمال وتضييع النعم، لكن إذا تأمل كل واحد منا في نفسه فسوف يجد أنه تمتع وما يزال يتمتع بالنعم الإلهية العظيمة التي تنهمر عليه طوال عمره وبشكل متواصل ولم يعرف قدر تلك النعم، ولم نستفد منها الاستفادة المثلى، بل وأحياناً لم نستفد منها الاستفادة الصحيحة، فمن منا استفاد الاستفادة المثلى من الشباب والصحة، هاتين النعمتين الإلهيتين العظيمتين؟ إذاً بالإضافة إلى أننا لا نستطيع الإحاطة بالنعم الإلهية ولا يمكننا معرفة جميع النعم التي وفّرها الله لنا وبالتالي نعجز عن شكرها، فنحن إلى ذلك مقصّرين - مع الأسف - في أداء الشكر والحمد حتّى بالمقدار الذي يمكننا القيام به.

ثم يواصل ﷺ مناجاته قائلاً:

«وَأَنْتَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ الْبَرُّ الْكَرِيمُ،
الَّذِي لَا يُخَيِّبُ قَاصِدِيهِ، وَلَا يَطْرُدُ
عَنْ فَنَائِهِ أَمَلِيهِ، بِسَاحَتِكَ تَحْطُّ
رِحَالُ الرَّاجِينَ، وَبِعِزَّتِكَ تَقِفُ أَمَالُ
الْمُسْتَرْفِدِينَ، فَلَا تُقَابِلُ أَمَالَنَا بِالتَّخْيِيبِ
وَالْإِيَّاسِ، وَلَا تُلْبِسُنَا سِرْبَالَ الْقُنُوطِ
وَالْإِبْلَاسِ».



«الفناء»، و«الساحة»، و«العرصة» بمعنى واحد، وتعبير «بِسَاحَتِكَ تَحُطُّ رِحَالُ الرَّاجِينَ» تعبيرٌ كناي، وهذا التعبير في الأصل يُستعمل لنزول المسافرين والقوافل في الأماكن المُعدَّة لذلك الغرض.

و«محط الرحال» يُستعمل في المحل الذي تُنزل فيه الأحمال وينزل فيه المسافرون والقوافل ويتوقفون للاستراحة، ويحيطون أمتعتهم، وفي الفقرة المذكورة من المناجاة كناية عن التجاء الآملين إلى ساحة القدس الربوبي وحضرة الرحمة والرأفة الإلهية وهو الملجأ الوحيد للعباد.

ثم يقول ﷺ:

«إِلَهِي تَصَاغَرَ عِنْدَ تَعَاظِمِ آلَانِكَ شُكْرِي،
وَتَصَاوَلَ فِي جَنْبِ إِكْرَامِكَ إِيَّايَ ثَنَائِي
وَنَشْرِي».

يجب على الإنسان أن يسعى للشكر اللائق مقابل الخدمة التي قُدِّمت له والنعمة التي وضعت بين يديه، وأن يكون بصدد تدارك اللطف والعطف الذي ناله. مثلاً إذا قَدَّمَ شخصٌ للإنسان بيتاً مجهَّزاً بجميع وسائل الرفاهية والراحة، وسجَّله باسمه هديةً دون ثمن، فلو اكتفى هذا الإنسان بقوله «شكراً» لِمَن قَدَّمَ له هذه الهدية الكبيرة، فإنه لا يكون قد أَدَّى حَقَّ شُكْرِ هذه النعمة والهدية. وهذا الإنسان إذا أراد أن يشكر هذه النعمة يجب عليه أن يتصرَّف تصرُّفاً ويسلك سلوكاً يتناسب مع ما وضع بين يديه، وإذا لم يكن في مقدوره تدارك تلك الخدمة الكبيرة، يجب عليه أن يتكلَّم بما يبيِّن شكره ومعرفته بالجميل الذي قُدِّم له، وأن يبذل جهوده



لتدارك هذه الخدمة الكبيرة، وأن يُبدي محبته وخجله ليكون قد أدى حقّ اللطف الذي حصله عليه.

لكن من الواضح جدًا أنه ليس بمقدورنا أداء حقّ شكر النعم الإلهية بما يليق بها، وشكرنا وإن كان يبدو كبيرًا من الناحية الكيفية والكمية، لكنه يبقى ضئيلاً لا قيمة له أمام النعم الإلهية، بل نحن عاجزون حتى عن تقدير قيمة النعم التي لا تبدو كبيرة للوهلة الأولى، وتُعدُّ صغيرة مقارنةً بالنعم الأخرى، وكذلك نحن عاجزون عن شكرها.

وكمثال لذلك نذكر نموذجًا للنعم الإلهية التي قلّما نلتفت إليها، وهي الأوتار الصوتية التي جعلها الله سبحانه في حناجرنا مما يعطينا القدرة على الكلام، والتي إذا ما تعرّضت للضرر - لأي سبب كان - فلن يعود الإنسان قادرًا على النطق بشكل واضح، بل لن يخرج حينئذٍ من فم الإنسان سوى أصوات غير مفهومة وحشجات، ولن يتمكن الإنسان بعدها من إقامة العلاقات والتواصل مع الآخرين. والإنسان حينما تتعرّض أوتاره الصوتية للضرر سوف يسعى بمقدار وسعه المالي إلى علاجها والشفاء من ذلك المرض، ولو احتاج الأمر إلى جراحة الحنجرة لاتخذ الخطوات الضرورية، وقد يُراجع عدّة مستشفيات وينفق الكثير من المال، بل إنه إذا لم يحصل على النتيجة المطلوبة من الإمكانيات الطبية والعلمية المتوفّرة في البدن الذي يعيش فيه سوف يسعى للعلاج في الخارج، على أمل استعادة صحته والشفاء من المرض الذي ألّمّ بأوتاره الصوتية، وسينفق في سبيل ذلك ما أمكنه من مال.

ومع الالتفات إلى أن الله سبحانه قد منحنا هذه النعمة مجّانًا، يجب علينا التأمل في مسؤوليتنا تجاهها، فهل يليق أن نسيء الاستفادة من

هذه النعمة الإلهية، وأن نتكلم - مثلاً - مع أبينا أو أمنا بكلام بذيء،
ونتكلم معهما بكلام حادّ خشن؟

هل يليق أن نستخدم هذه الأوتار الصوتية في الكذب على الآخرين
أو نتهم بها بريئاً، أو نعتاب مؤمناً، أو نتكلم بكلام باطل؟



المقال الثامن والعشرون

بحث في ظاهر السلوك والنعم وباطنهما

التجلي الملكوتي للإيمان والألطف الإلهية

إِنَّ أَكْثَرَ مَا نَلْتَفِتُ إِلَى النِّعَمِ التَّفَاتُّنَا إِلَى النِّعَمِ الْمَادِيَّةِ
وَالدُّنْيَوِيَّةِ، وَقَلَّمَا يَلْتَفِتُ وَاحِدُنَا إِلَى النِّعَمِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَمِنْ هُنَا
فَحِينَمَا نَكُونُ بِصَدِّ شُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّا نُلَاحِظُ وَنَنْظُرُ
إِلَى مَا نَنَالُهُ مِنْ نِعَمٍ مَادِّيَّةٍ وَدُنْيَوِيَّةٍ نَظِيرَ الْمَنْزِلِ، وَالطَّعَامِ،
وَالْمَكَانَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالْمَنْصَبِ، وَنَشْكُرُ اللَّهَ لِأَنَّهُ وَفَّرَهَا لَنَا، وَبَقِيَ غَافِلِينَ
عَنِ النِّعَمِ الْمَعْنَوِيَّةِ مِنْ قَبِيلِ نِعْمَةِ وَلَايَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) الَّتِي هِيَ
أَسْمَى بَكْثِيرٍ وَأَكْبَرُ قِيَمَةٍ مِنَ النِّعَمِ الْمَادِّيَّةِ، وَتُعَدُّ النِّعَمُ الْمَادِّيَّةُ حَقِيرَةً
تَافِهَةً مُقَارَنَةً بِهَا.

لَكِنَّا نَجِدُ الْإِمَامَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَمِنْ دُونِ أَنْ يَصْرَحَ بِالنِّعَمِ الْمَادِّيَّةِ - بِالرَّغْمِ
مِنْ أَنْ يُطْلَقَ كَلَامُهُ حَوْلَ النِّعَمِ نَاضِرٌ إِلَى النِّعَمِ الْمَادِّيَّةِ أَيْضًا - نَجِدُهُ
يَصْرَحُ بِالنِّعَمِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَيَذْكُرُ بَعْضَهَا قَائِلًا:

«جَلَّلْتَنِي نِعْمَكَ مِنْ أَنْوَارِ الْإِيمَانِ حُلُلًا،
وَصَرَبْتَ عَلَيَّ لَطَائِفَ بَرِّكَ مِنَ الْعِزِّ كِلَالًا،





وَقَلَّدْتَنِي مِنْكَ قَلَائِدَ لَا تُحَلُّ، وَطَوَّفْتَنِي
أَطْوَاقًا لَا تُفَلُّ».

يستعمل الإمام عليه السلام في كلامه الأدبي الرائع تشبيهات لطيفة جميلة يشبه بها أنوار الإيمان بالحلة أو الثوب والحلي التي تُجَمَّلُ الإنسان، وكذلك يجعل إحسان الله سبحانه بمثابة التاج الموضوع على رأس الإنسان.

في اللغة الفارسية حينما يُكْرَم شخصٌ شخصًا آخرَ ويقدره يُقال له [ماترجمته إلى العربية]: «يا له من إكليل ورد وضعته على رأسه»، وهذا المثل والتعبير يُستعمل من جهة أنه يُفاد من الورد في تزيين بعض الأشياء. وكمثال لذلك حينما تُرْسَل هديةً إلى شخصٍ، يوضع عليها وردة، وقد كان في الزمان الماضي يُستفاد منها من أجل تزيين الجَمَل - الذي كان يُستعمل كمركب ووسيلة للنقل - فيعلّقون على الجزء المرتفع من الهودج قطعًا من القماش والخيوط الملونة للزينة، وكذلك على رأسه وعنقه، لكي تمنحه هيبة وجلالاً.

وقد تبدو هذه التعبيرات - في بادئ الأمر - على جانب من الاستعارة والكناية فحسب، ما يجعل التحلي بحلة أنوار الإيمان أو التقليد بقلائد الإحسان عبارةً عن مجرد تعابير كنائية واستعارية، كما وَرَدَ نظير هذه التعبيرات في الآيات والروايات وذكروا لها تأويلات أيضًا.

لكن على أساس ما هو المستفاد من الآيات والروايات المؤيدة بتجارب بعض العظماء وأولياء الله، فإن هذه التعبيرات تُنبئ عن الملكوت والحقائق والصور الباطنية للسلوك والميول كالإيمان بالله.



فإن للأشياء التي نشاهدها في هذا العالم وندركها، بالإضافة إلى الصور الظاهرية التي يُمكننا مشاهدتها بواسطتها، لها أيضًا صورٌ باطنية إدراكها خارج عن نطاق قدرة عقولنا، ومن هنا فإن بعض السلوكيات التي تبدو جميلةً في ظاهرها، تكون صورتها الباطنية قبيحةً، والذين يتمتعون بعين الباطن يمكنهم مشاهدة قُبْح باطن هذا السلوك. وفي المقابل هنا بعض الأشياء وبعض السلوكيات التي لا تبدو جميلةً بحسب الظاهر، لكنها جميلة في الباطن، ويستطيع ذو العين الباطنية رؤية جمالها الباطني.

الهوية الباطنية للسلوك القبيح

إذًا فوفقًا لما هو المستفاد من الآيات والروايات، ثمة بالإضافة إلى الأنوار الحسية والظاهرية، أنوارٌ باطنية أيضًا، والسلوك مضافًا إلى هويته الظاهرية، له هوية باطنية كذلك، وما وَرَدَ في بعض الروايات والآيات من وصف بعض الأفعال والسلوكيات يتجاوز مجرد الكناية والتشبيه، ويحكي عن صورها الباطنية.

وبناءً على هذه الرؤية فإن الذين يأكلون أموال اليتامى، وكذلك الذين يكتمون حقائق الدين من أجل منافعهم ومصالحهم الشخصية فيحصدون بعض المنافع، أولئك يأكلون نارًا في الحقيقة، وهذه النار تتجسّم في البرزخ وفي يوم القيامة وتصبح حقائق عينية، وبالرغم من أنها في هذه الدنيا خافية عن الأشخاص الذين لا يرون سوى الظاهر، إلا أن الذين فتح الله عيونهم الباطنية، يمكنهم وهم في هذه الدنيا رؤية تلك النار ولهيبها الحارق، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ



أَلِيمٌ^(١)»، وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَتِهِمْ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(٢).

وحينما يبين القرآن الكريم حقيقة الغيبة وباطنها يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣).

فإن حقيقة الغيبة وذكر معائب الناس في غيبتهم هي بحسب الرؤية القرآنية عبارة عن أكل لحم الأخ الميت، وقد شاهد أهل الكشف والشهود وأهل الباطن هذه الحقيقة في بعض مكاشفاتهم مشاهدةً عيانةً.

التجلي الملكوتي للصلاة وتلاوة القرآن

كما تحكي لنا الكثير من الروايات أن عملنا سوف يتجلّى لنا في الليلة الأولى من القبر ثم في عالم البرزخ وبعدها في عالم القيامة، إما على صور جميلة أو على صور قبيحة مُخيفة، ومن جملة ذلك قول رسول الله ﷺ: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَأْتِي إِلَى الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ بِصُورَةِ شَخْصٍ أَنُورُ اللُّونِ يُؤْنِسُهُ فِي قَبْرِهِ وَيَدْفَعُ عَنْهُ أَهْوَالَ الْبَرْزَخِ»^(٤).

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٤.

(٢) سورة النساء، الآية ١٠.

(٣) سورة الحجرات، الآية ١٢.

(٤) علي رضا صابري يزدي، الحكم الزاهرة، الصفحتان ١٤٠ - ١٤١، الحديث ٧٢٤.



إن الصلاة بحسب الظاهر عبارة عن أذكار وحركات وأفعال يؤتى بها بوصفها عبادةً، لكن وفقاً للرواية المذكورة فإنه في عالم البرزخ الذي تتجسّم فيه أعمال الإنسان وتظهر فيها هويّتها الملكوتية والباطنية، فإن تلك الصلاة تتجلّى على صورة صديق نوراني عطوف يأتي في عالم القبر يؤنس صاحبه الذي قضى حياته بعبودية الله وعبادته ويقف إلى جانبه ولا يفارقه ويجالسّه ويسكن روعه ويزيل عنه الخوف.

أما كيف تتجسّم أعمال الإنسان في عالم الآخرة وكيف أن الصلاة - التي هي عبارة عن مركّب من أفعال وأذكار - تتجلّى على صورة شخص نوراني، فيمكن تبرير ذلك وفق نظام عالم الآخرة؛ فهو نظامٌ يختلف عن نظام الدنيا، والقوانين الحاكمة عليه قوانين مختلفة، ومن هنا لا يمكننا إدراك مثل هذا الأمر، وسعي البعض من أجل تسويته مع الأنظمة والقوانين التكوينية في هذا الدنيا سعي في غير محله، من قبيل قول البعض: إن تجسّم الأعمال هو من قبيل تبديل الطاقة إلى المادّة والمادّة إلى الطاقة، وليس الأمر كذلك قطعاً، فتبديل المادّة إلى الطاقة وبالعكس يرتبط بهذا العالم، وعلاقة هذا العالم بعالم الملكوت، وعلاقة عالم الدنيا بعالم البرزخ لها نظامٌ آخر، ولا تدخل ضمن قانون تبديل الطاقة بالمادّة. فكم هو مقدار الطاقة الموجودة في حركات الصلاة وسكناتها لكي تتبدّل إلى إنسان جميل. وما يبدو بحسب الظاهر عدم اختلاف حركات المصلّي مع حركات اللاعب الرياضي اختلافاً كبيراً، فلماذا لا تتحوّل حركات ذلك الرياضي إلى إنسان أو أي شيء آخر؟ إذاً لا يمكن القول بتفسير مادّي لما وُردَ في الروايات حول الصورة الملكوتية لسلوك الإنسان.

ووردَ في بعض الروايات أن البيوت التي يُتلى فيها القرآن الكريم تضيء للملائكة وأهل السماء مثل النجوم لأهل الأرض فقد روي عن



النبي ﷺ أنه قال: «نُورُوا بُيُوتَكُمْ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا كَمَا فَعَلَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى صَلُّوا فِي الْكَنَائِسِ وَالْبَيْعِ وَعَطَّلُوا بُيُوتَهُمْ فَإِنَّ الْبَيْتَ إِذَا كَثُرَ فِيهِ تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ كَثُرَ خَيْرُهُ وَاتَّسَعَ أَهْلُهُ وَأَضَاءَ لِأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا تُضِيءُ نُجُومُ السَّمَاءِ لِأَهْلِ الدُّنْيَا»^(١).

وكذلك وَرَدَ عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: «الْبَيْتُ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ وَيُذَكَّرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ تَكْثُرُ بَرَكَتُهُ وَتَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَهْجُرُهُ الشَّيَاطِينُ وَيُضِيءُ لِأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا تُضِيءُ الْكَوَاكِبُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ»^(٢).

حينما يرمي الإنسان ببصره إلى السماء في ليلة صافية خالية من الغيوم، فإن منظر النجوم سيخلب بصره وسيتمتع برؤية النجوم الرائعة المتلألئة، وسيشعر بسرور غامر، ولن يرتوي من النظر إليها، خاصةً وقت السحر حيث يزداد المنظر جمالاً، وسيتأثر الإنسان بشدة بهذا المشهد الرائع، فجمال السماء المليئة بالنجوم أمرٌ يدركه الجميع، وقد اهتمت به النصوص الأدبية والأشعار في مختلف الثقافات والشعوب، وحتى بعض الذين لا يؤمنون بالله ولا بالأديان الإلهية اعتبروا أنه ليس هناك شيء في العالم أجمل من السماء المليئة بالنجوم، وقد نُقِلَ عن «كانت» الذي هو من الفلاسفة والمفكرين الغربيين الكبار قوله إن هناك شيئين في هذا العالم يؤثر جمالهما فينا بشدة: أحدهما السماء المليئة بالنجوم، والآخر وجدان الإنسان. وكذلك يتحدث القرآن الكريم عن تزيين السماء بالنجوم والكواكب: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾^(٣).

(١) . الكليني، الكافي، الصفحة ٦١٠، الحديث ١.

(٢) . المصدر السابق.

(٣) سورة الصافات، الآية ٦.



وكما أن النجوم تمنح السماء جمالاً وزينة، وتلمع لأهل الأرض وتدخل عليهم السرور وتمنحهم اللذة، فكذلك البيوت التي يُتلى فيها القرآن الكريم تتلأل لأهل السماء من ملكوتين وملائكة، ويتمتع هؤلاء بمشاهدة هذه المراكز القرآنية النورانية.

ولا ريب أن درس سماحة آية الله جوادي آملي (حفظه الله) هو من مراكز النور والفيض، يتلأل للملكوتين ويُشع نوراً، فيتمتعون بمشاهدته، نرجو من الله أن يزيد في توفيقه، ويوفق الآخرين أيضاً للاهتمام بتعلم القرآن وفهمه.

إن مسألة إضاءة القرآن والبيوت التي يُتلى فيها القرآن أمر يتجاوز مجرد التشبيه والتمثيل، فهو حقيقة واقعية يستطيع أهل المكاشفة وخاصة أحباب الله إدراكها ومشاهدتها بوضوح.

كان المرحوم كربلائي كاظم ساروقي رحمته الله شخصاً مهتماً للغاية بالأحكام الإلهية وأداء التكاليف الشرعية، ومنها اهتمامه بالحقوق المالية من قبيل أداء الخمس والزكاة، ولذلك نال عناية الله الخاصة وعناية الإمام الحجة عليه السلام، ورغم كونه قروياً بسيطاً غير متعلم، إلا أنه حفظ القرآن فجأة، وصار يُدرك نورانية آيات القرآن الكريم بوضوح، وقد ألّفت كتب عدة تتحدث عن كرامات وسيرة هذا العبد الخالص لله، ونقل بعض العلماء شيئاً من أحواله وسيرته، وقد نقل المرجع الراحل آية الله الشيخ مرتضى الحائري رحمته الله أنهم فتحوا أمام المرحوم كربلائي كاظم كتاب **جواهر الكلام**، وهو كتاب فقهي معروف، ومع أنه كان أمياً لا يُحسن القراءة، إلا أنه كان يشخص آيات القرآن الكريم من بين سطور ذلك الكتاب، علماً أنها كانت مكتوبةً بنفس الخط والحجم، ويضع يده عليها قائلاً: هذه آية قرآنية. وينقل الشيخ أنه حينما سأله من أين يعرف أن



هذه الجملة من القرآن، فإنه كان يجب قائلًا: هذه الجملة تشع نورًا، وأنا أعلم أنها قرآن من نورها!

وقد نقل آية الله خزعلي: أن الكربلائي كاظم كان مدعواً في غرفة بعض طلاب العلوم الدينية، وكتب أحد الطلاب حرف «و» بنيّة كونه من القرآن، وكتب حرف «و» آخر دون تلك النيّة، وسألوا المرحوم: أي الحرفين من القرآن، فوضع الكربلائي يده على حرف الواو الذي كُتب بنيّة القرآن قائلًا: هذا الحرف نوراني ومن القرآن، والآخر ليس نورانيًا.

وهذه الكرامة تحكي عن أنه توجد في العالم أسرارٌ وحقائق لا تصل عقولنا وأفهامنا إلى إدراكها. لكن يجب علينا تصديقها بملاحظة الآيات والروايات ومشاهدات الأكابر والعلماء التي دلّت على أنها حقائق.

نظرة في تجسّم الأعمال

اتضح أن التعبيرات الأدبيّة في هذه المناجاة وسائر الروايات الحاكية عن أن أنوار الإيمان هي مثل الثياب والحليّ التي تزيّن المؤمن، وأن الجود والكرم والإحسان الإلهيّ تاجٌ عزّة على رأس المؤمن، وطوقٌ شرفٍ يطوّق به، إنما تحكي عن حقيقة معنوية يمنحها الإيمان للإنسان، ومن الطبيعي أن يعجز الأشخاص الظاهريون عن إدراك هذه الهوية المعنويّة والإلهيّة. وقد يكون مظهر الكفار مرتبًا ويبدو جميلًا بل أجمل من مظهر المؤمن، لكنه في نظر أهل الباطن يتجلّى قبيحًا سيئًا، رغم مظهره الجميل، ويتجلّى مظهر المؤمن جميلًا ونورانيًا، رغم أنه قد لا يبدو مرتبًا وجميلًا.

وهذه النعم المعنويّة أعظم بكثير من النعم الظاهرية، بل النعم الماديّة والظاهرية لا تُعدُّ شيئًا مقارنةً بالنعم المعنويّة. ومن هنا يؤكد عليها الإمام السجّاد (عليه السلام)، ويبين أنها أجمل زينة للإنسان.



وهذه الزينة والحلي المعنوي - التي هي انعكاس لعمل الإنسان الصالح - تتجلى يوم القيامة، وتُزيّن الإنسان المستحقّ الجنّة والواصل إلى رضا الله، وتطوّق رقبتَه ويديه وتهبه جمالاً وتمنحه مظهر أهل الجنّة، قال تعالى حكايةً عنهم: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوعًا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾^(١).

وعبارة «خلّوا أساور من فضة»، باعتبار أن أفضل أنواع الزينة - كما في الثقافة العربية - هي الذهب والفضة، وعلى أساس هذه الثقافة والذهنيّة يخبرنا القرآن عن أهل الجنّة أنهم يتزينون بحليٍّ من الفضة، وهذا التمثيل والتشبيه بهدف إيجاد فهم وإدراك ناقصٍ لبعض نعم الجنّة، وإلا فإن زينة الجنّة لا يمكن مقارنتها بالذهب والفضة وسائر الزينة الدنيويّة، وإدراك حقيقتها ليس بمقدورنا؛ ولذلك نرى الله سبحانه يبيّن لنا زينة الجنّة بمقدار فهمنا وإدراكنا.

تلك النعم والحليّ إنما هي تجسّم وانعكاسٌ لسلوكنا وأعمالنا، وما حصل عليه في الآخرة يتناسب بالضبط مع أعمالنا وأفعالنا في الدنيا، ومن هنا فإن أعمالنا الصالحة تستعيد في الآخرة هويّتها الحقيقية، وتتجلّى بصورة ثياب وحليّ وسائر نعم الجنّة وتقدّم لنا، وفي المقابل فإن أعمالنا القبيحة تتجلّى على شكل عذاب إلهي.

يحدّثنا القرآن الكريم عن الذين يعتدون على حقوق الناس وأموالهم، والذين يجمعون المال والذهب والفضة عن طريق الحرام قائلاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَّ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا



يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنَزْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ ﴿٣٢﴾

يخبرنا سبحانه وتعالى عن حال الذين يسعون وراء اكتناز وتجميع الذهب والفضة وتجميع الثروات، ولا يُخرجون الحقوق الشرعية من أموالهم، ولا يعيرون أي اهتمام للفقراء العاجزين عن توفير الحد الأدنى من متطلبات العيش الكريم، يخبرنا أنهم ستكوى جباههم يوم القيامة كما يكوى جبين الفرس، فالمال الذي جمعه من ذهب وفضة يُحمى في النار وتكوى به جباههم وأجسامهم، وبذلك ينالون العذاب الذي يستحقونه ويُفضح أمرهم على رؤوس الأشهاد.

الاعتراف بالعجز عن شكر الله

«فَالَاؤُكَ جَمَّةٌ ضَعْفَ لِسَانِي عَنْ
إِحْصَائِهَا، وَنَعْمَاؤُكَ كَثِيرَةٌ قَصَرَ فَهْمِي
عَنْ إِذْرَاكِهَا فَضْلاً عَنِ اسْتِقْصَائِهَا،
فَكَيْفَ لِي بِتَحْصِيلِ الشُّكْرِ وَشُكْرِي إِيَّاكَ
يَفْتَقِرُ إِلَى شُكْرٍ، فَكُلَّمَا قُلْتُ لَكَ الْحَمْدُ
وَجَبَ لِدَلِّكَ أَنْ أَقُولَ لَكَ الْحَمْدُ».

قد تكون الأشياء من الكثرة بمكان يعجز الإنسان معه عن عدّها وإحصائها، لكن ذهن الإنسان يستطيع أن يتصوّرها، بيد أن الإمام عليه السلام



يقول إن نعم الله بلغت من الكثرة حدًا لا يُمكن معه حتّى تصوّرها في إطار الذهن المحدود فضلًا عن إحصائها. وبملاحظة عجزنا عن إحصاء جميع نعم الله، بل عجزنا حتّى عن تصوّرها وفهمها، فإننا نجهل الكثير من النعم الإلهية، ولذلك فلا يمكننا أداء حقّ شكرها. وبالإضافة إلى ذلك فإن كل شكرٍ للنعمة هو توفيق وعناية من الله يستحقّ الشكر عليه.

وقد وردَ هذا المضمون في كثير من الروايات، ومنها ما تقدّم فيما سبق: «لأنّ التّوفيقَ للشّكر نعمةٌ حادثةٌ يَجِبُ الشُّكرُ عَلَيْهَا، وَهِيَ أَعْظَمُ قَدْرًا وَأَعَزُّ وُجُودًا مِنَ النُّعْمَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا وُفِّقَ لَهُ، فَيَلْزَمُكَ عَلَى كُلِّ شُكْرٍ أَكْبَرُ أَكْبَرُ مِنْهُ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مُسْتَعْرِقًا فِي نِعْمَتِهِ، قَاصِرًا عَاجِزًا عَنْ دَرْكِ غَايَةِ شُكْرِهِ»^(١).

فمن أجل أن نشكر الله ونحمده على نعمته لا بدّ لنا من أن نحصل على توفيق منه سبحانه لأن يمنحنا القدرة على الكلام، وإذا لم يمنحنا هذا التوفيق ولم يفتح ألسنتنا بالكلام فلن نستطيع أن نوّدي حمده وشكره.

إذاً فقول «الحمد لله» هو نعمة إلهية أيضًا يجب أن نشكر الله ونحمده عليها، وكل شكر يستوجب شكرًا آخر، وبما أن الإنسان يعجز عن الشكر والحمد إلى ما لا نهاية، فهو عاجز عن أداء شكر نعمة واحدة من نعم الله، فما بالكم بشكر نعمه التي لا تُحصى التي يتنعم الإنسان بها.

ومع ذلك يجب على الإنسان السعي لأداء شكر نعم الله، وفي هذه الحالة سوف تزداد العناية الإلهية الشاملة له، وإذا لم يشكر وبدلاً عن ذلك قام بكفران النعم الإلهية، فإن الله سيصيبه بعذاب شديد. قال تعالى:

(١) . محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٧١، الباب ٦١، الصفحة ٥٢، الحديث ٧٧.

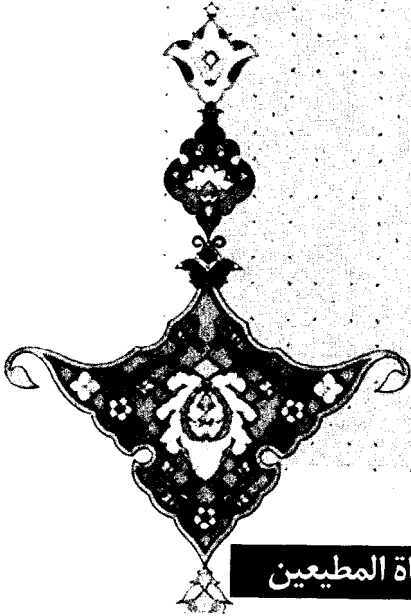


﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾

٨٠



«إِلَهِهِ فَكَمَا غَدَّيْتَنَا بِلُطْفِكَ وَرَبَّيْتَنَا
بِصُنْعِكَ فَتَمَّمْ عَلَيْنَا سَوَابِغَ النِّعَمِ وَادْفَعْ
عَنَّا مَكَارَهَ النَّقَمِ، وَأَتِنَا مِنْ حُظُوظِ الدَّارَيْنِ
أَرْفَعَهَا وَأَجَلِّهَا عَاجِلًا وَأَاجِلًا، وَلَكَ الْحَمْدُ
عَلَى حُسْنِ بِلَائِكَ وَسُبُوغِ نِعْمَائِكَ حَمْدًا
يُؤَافِقُ رِضَاكَ، وَيَمْتَرِي الْعَظِيمَ مِنْ بَرَكَ
وَنَدَاكَ، يَا عَظِيمُ يَا كَرِيمُ بِرَحْمَتِكَ يَا
أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».



شرح مناجاة المطيعين



المقال التاسع والعشرون مُناجاة المطيعين

طلب توفيق طاعة الله والخلاص من الشكوك ووساوس
الشیطان

بعد إتمام شرح ودراسة مناجاة الشاكرين، نبحت باختصار
مناجاة المطيعين.



في هذه المناجاة يقدم الإمام السجاد عليه السلام طلباته إلى الله، وفي
طليعة هذه المناجاة نقرأ:

«اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا طَاعَتَكَ، وَجَبِّبْنَا مَعْصِيَتَكَ،
وَيَسِّرْ لَنَا بُلُوغَ مَا نَتَمَنَّى مِنْ ابْتِغَاءِ
رِضْوَانِكَ، وَأَخْلِلْنَا بِحُبُوحَةِ جَنَّاتِكَ،
وَأَقْشَعْ عَن بَصَائِرِنَا سَحَابَ الْاِزْتِيَابِ،
وَاجْشِفْ عَن قُلُوبِنَا أَغْشِيَةَ الْمِرْيَةِ
وَالْحِجَابِ، وَأَزْهِقِ الْبَاطِلَ عَن صَمَائِرِنَا،
وَأَثْبِتِ الْحَقَّ فِي سَرَائِرِنَا، فَإِنَّ الشُّكُوكَ



وَالظُّنُونُ لَوَاقِحُ الْفِتَنِ، وَمُكَدَّرَةٌ لِصَفْوِ الْمَنَائِحِ وَالْمِنَنِ.

عندما يكون هدف الإنسان أداء التكليف الإلهي، فإنَّ أوَّل طلب يريده من الله سبحانه وتعالى هو أنَّ يوفِّقه لأداء الواجبات وأعمال التقرب، وتَرَكَ المحرِّمات وكل ما هو مذموم عنده سبحانه؛ ذلك لأنَّ أداء التكاليف الإلهية والتزيين بجوهرة التقوى وكسب الرضا الإلهي هو الذي يوفِّر السعادة الدنيوية والأخروية للإنسان، ويؤدِّي به إلى العاقبة الأبدية الحسنة، وهو الذي يجعله لائقاً بالجنة الخالدة والانتفاع بالنعم الأبدية. لكن الذي يُثير الانتباه والتأمل هو أنَّ الإمام عليه السلام وبعد طلب توفيق العبودية وأداء التكاليف الإلهية، يطلب من الله أن يزيل الشكَّ والريب من القلب، ويبيِّن أنَّ الشكَّ والظنَّ الفاسد يمثل الأرضية الممهَّدة للفتنة؛ إذ حينما يصبح الشكَّ والظنَّ بديلين عن اليقين في دائرة الاعتقادات والقيم الدينية والإلهية، فإنَّ هذا سيشكِّل بدايةً للانحراف والتخلّي عن العقائد التي تمنح الإنسان هويَّته الدينيّة.

وإذا ما ألقينا نظرةً على الحوادث والانحرافات التي كانت قبل الثورة الإسلامية وبعدها، وما وقع من فتن، فإننا سنُدرك أنَّ جذور ذلك ترجع إلى التشكيك في الاعتقادات، وقد أدَّى رسوخ الشكَّ واستقراره في العقائد إلى إزالة إيمان الكثير من الثوريين والمتديّنين. وفي هذا المسير وجدنا كثيراً من الذين كانوا مستعدّين للتضحية بحياتهم من أجل الثورة والإسلام، وكانوا يضعون أرواحهم على أكفَّهم في ميادين الثورة، حتّى أنهم كانوا قبل انتصار الثورة يُشاركون في الجهاد المسلَّح ضد النظام البهلوي، وجدناهم قد أدَّى بهم الشكَّ والترديد في العقائد الإسلامية إلى



عدم الاهتمام بالمسائل الدينيّة والقيميّة، وانتهى بهم الأمر إلى القول بأنّ تعاليم الإسلام السامية تاريخيّة وترتبط بالماضي.

وبعض الذين كانوا على استعداد للتضحية بأرواحهم في سبيل الإسلام والوطن والشعب، نجدهم اليوم يضعون في أعناقهم طوق نير العبودية والخدمة لأشدّ أعداء الإسلام والشعب، وتحولوا إلى كلبٍ مُطيع لأمرىكا والاستكبار.

فقد يصل الإنسان إلى اليقين بالبرهان والدليل العقلي ويلتزم به، ثمّ يعرض له شكٌّ في ذلك المطلب اليقينيّ القطعيّ، وقد يستمرّ هذا الشكُّ للحظات، وربما يستقرّ في قلب الإنسان ولا يزول.

وقد يكون الإنسان منشغلاً بالصلاة وتعتريه فجأةً حالة من الشكِّ والتردّد في بعض تعاليم الصلاة، لكن سرعان ما يدفع ذلك الشكَّ.

أو حينما يزور الإنسان أحد المعصومين ويقرأ: «إنك تسمعُ كلامي وتردُّ سلامي»^(١)، فإنه قد يشكُّ في هذا الكلام، ويقول في نفسه: ربّما لا يوجد من يسمع كلامي.

وهذا التردّد والشكُّ ناشئ عن أنه رغم وجود اليقين والقطع بالشيء، غير أنه مع ذلك ربّما يتسرّب الاضطراب والتزلزل إلى القلب، ويشكُّ الإنسان ولو للحظات في الأمر حتّى وإن كان مسلماً.

إن معنى «القلب» في الأساس هو الانقلاب، وبما أنّ قلب الإنسان في معرض التغيّر والتزلزل فقد أُطلقت عليه هذه التسمية.

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ١٠٠، الباب ١٤، الصفحة ٢٩٥، الحديث ٢٠.



إِذَا فَعَامَّةُ النَّاسِ لَيْسُوا مُصَانِينَ عَنِ الشَّكِّ وَالتَّرَدُّدِ، لَكِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا يَفَارِقُهُمْ لَطْفُ اللَّهِ وَعَنَائَتُهُ، لَا يَلْبَثُ الشَّكُّ فِي قُلُوبِهِمْ بَلْ يَخْرُجُ مِنْهَا سَرِيعًا، وَلَا تَسْتَقَرُّ وَسَاوِسُ الشَّيْطَانِ فِي قُلُوبِهِمْ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ حَوْلَ هَذَا الْأَمْرِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(١).

إِنَّ نُورَ التَّقْوَى فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ الْوَاقِعِينَ سُرْعَانِ مَا يَزِيلُ الظَّلَامَ وَالْكَدْرَ النَّاشِئَ مِنْ وَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ، وَهَذِهِ الْوَسْوَسةُ تُشَبِّهُ مَوْجَةَ الْبَحْرِ الْقَصِيرَةِ الَّتِي تَعْبُرُ عَلَى قَلْبِ الْإِنْسَانِ وَتَتَوَقَّفُ بِذِكْرِ اللَّهِ، لَكِنَّ الَّذِينَ عَمِيَتْ قُلُوبُهُمْ وَالْغَافِلِينَ الَّذِينَ انْخَدَعُوا بِفَخِّ الشَّيْطَانِ الَّذِي يَبْدُو جَمِيلًا فِي أَعْيُنِهِمْ، جَعَلُوا قُلُوبَهُمْ مَوْطِنًا لِّوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ الْمُتَوَالِيَةِ، وَقَدْ أَغْلَقُوا جَمِيعَ مَنَافِذِ النُّورِ وَالْهُدَايَةِ أَمَامَ أَنْفُسِهِمْ، ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(٢).

الشَّيْطَانُ مُؤَنَسُ الْغَافِلِينَ عَنِ الْحَقِّ وَغَمِي الْقُلُوبِ

عَلَى أَسَاسِ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانِ يَصْبَحُ مُؤَنَسَ الْغَافِلِينَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَمَنْ أَفْرَغُوا قُلُوبَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِ سُبْحَانَهُ، وَجَلِسَهُمْ، وَيَتَصَدَّى لِتَدْبِيرِ فِكْرِهِمْ وَذَهْنِهِمْ، وَيُوحِي إِلَيْهِمْ بِأَمَالِهِمْ، وَبِالتَّالِي سَيَكُونُ حَاصِلُ سُلُوكِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ هُوَ الظُّلْمَةُ وَالْإِنْحِطَاطُ.

وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الْقَلْبَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ خَالِيًا مِنَ الرَّفِيقِ وَالْمُؤَنَسِ، وَإِذَا فَقَدَ الْإِنْسَانُ لِيَاقَةَ الْأَنْسِ بِالْمَعْبُودِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانِ سَيَصْبَحُ قَرِينَهُ،

(١) سُورَةُ الْأَعْرَافِ، الْآيَةُ ٢٠١.

(٢) سُورَةُ الزُّخْرَفِ، الْآيَةُ ٣٦.



فيزيد من ظُلمة قلبه باستمرار، حتى يسقط في العمى متخبطاً في مستنقع الضياع والمعصية.

و«طائف»، بمعنى الذي يطوف ويتجول، فيقال له «المتجول» في أدبيات اللغة العربية: طائف. يقول الله سبحانه إن الشيطان يتجول حول قلب الشخص المتقي الذي أثار قلبه بذكر الله كي يجد منفذاً له يلج منه. بيد أنه - ورغم ما يبذله من جهد كبير - لن ينجح سوى في إقامة اتصال بسيط بقلب المؤمن المتقي، ويجعله في معرض إلقاءاته ووساوسه، لكن الإيمان الراسخ والالتفات الدائم إلى الله ينجي المؤمن من تلك الغفلة القصيرة، ويرفع من مستوى وعيه إلى درجة لا يبقى معها مجال لرسوخ وساوس الشيطان في قلبه.

وجملة «إذا هم مبصرون» ناظرة إلى عين الباطن التي تضعف وتعيشو نتيجةً للغفلة ووسوسة الشيطان والحُجب التي يُلقِيها أمامها، ولكن بما أن قلب الإنسان المتقي مجلى النور الإلهي والتوجه إلى المعبود، سيكون سواد الباطن الذي يصيبه مؤقتاً فحسب، والتوجه إلى الله يزيل تلك الغفلة، فتعود عين الباطن مبصرةً مرةً أخرى، وتتجلى له الحقائق، ويرجع إلى فطرته. لكن إذا لم يكن القلب مزيناً بنور التقوى، وترسخت الغفلة فيه، وغطت وساوس الشيطان مرآة القلب وعرصه فكر الإنسان وذهنه، وزين الشيطان الرغبات الفارغة التي لا قيمة لها، فإن عين القلب ستصاب بالعمى، وسينجر ذلك إلى عجز الإنسان عن مشاهدة الحقائق، وبتعبير آخر: سيصير عمى الباطن جزءاً من هوية الإنسان الغافل التي ستتجسم يوم القيامة وتكتسب حقيقة العينية. يقول سبحانه حول العصاة المصابين بعمى الباطن: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي



أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٦٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١﴾.

إن الإنسان ليبتلّي - في العادة - بالشك والترديد والغفلة، فالمتمتعون بقابلية الاستفادة من نور الهداية، يشملهم اللطف والعناية الإلهية فإذا هم متذكرون، وهذا التوجّه والتذكّر يُنير عين قلوبهم فيجعلهم مبصرين، ويبعد الشيطان عن ساحة قلوبهم. وأما الغفلة قلوبهم، فأولئك حين يزيّن الشيطان في أعينهم مظاهر الدنيا، فبدلاً من أن يتذكروا وينتبهوا، ويخلصوا أنفسهم من فخ الشيطان، تراهم يزداد سعيهم ولهاثهم وراء الرغبات الشيطانية، وبالتالي تجتمع حُجب أكثر حول قلوبهم، وتزداد قلوبهم ظلمةً وسواداً، ويغرقون في مستنقع الغفلة بحيث يشمئزون من ذكر الله فيشعرون بالأذى، كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم قائلًا: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١).

إن ذوي الفطرة السليمة يسعون إلى طاعة الله وأداء تكاليفهم، ويسعون إلى معرفة أصول دينهم بنحو أفضل، ويقبلون بسهولة الأدلة التي تُقام على إثبات الله، والنبوة، والإمامة، وسائر الأصول والقيم الدينية. لكن البعض حتى إذا قبلوا هذه الأدلة في الظاهر، فإنها لا تترك فيهم أثراً كبيراً، ولا يلتزمون بها. والأعجب من ذلك أن البعض حينما تصلهم أخبار حول المسائل السياسية، أو الاجتماعية، أو حول بعض الأشخاص نراهم يتلقونها بالقبول دون تدقيق في صحتها أو سقمها، ويطمئنون لها، غير

(١) سورة طه، الآيات ١٢٤-١٢٦.

(٢) سورة الزمر، الآية ٤٥.



أنهم يمتنعون عن التصديق بما قاله ١٢٤ ألف نبي - وهم معصومون ومن أفضل الناس - ويعاندونهم ويخالفونهم، ولا يقتنعون بالأدلة القطعية المحكمة التي تقام على الاعتقادات الإلهية الأصيلة.

وقد ذكر القرآن الكريم قصة رجلين كان كل واحد منهما يمتلك بستاناً، يجري بينهما حوارٌ يفخر فيه أحدهما على صاحبه بسبب ما يمتلكه من الثمار الكثيرة، ويعيش حالة الغفلة عن الله والحق وينكر المعاد، وقد نقل لنا القرآن كلامه إذ قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾^(١)، وفي آية أخرى يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾^(٢).

الأنانية والانحلال عاملان للتمرد على الحق

إنَّ السرُّ في امتناع الإنسان عن قبول دعوة الأنبياء والقادة الإلهيين، وقبوله من غيرهم الكلام الواهي الذي لا أساس له واطمئنانه به، هو الأحكام القبلية والتعلق بالرغبات والميول. ومن هنا فحتى لو أقيم دليل في غاية الضعف، بحيث تصعب تسميته دليلاً، على ما يرغب الإنسان في تصديقه، أو ما عنده حكم نفسيّ قبليّ تجاهه، فإنه يسلم به، ولأن هذا الدليل موافق لرغباته وميوله فسوف يراه قوياً مُحكماً خالياً عن أي نقص أو شائبة عيب. وفي المقابل، إذا أقيمت أدلة قوّة ومحكمة ضدَّ رغباته وميوله، تراه يمتنع عن قبولها ويشكك فيها، ويرى أنها غير معتبرة.

(١) سورة الكهف، الآية ٣٦.

(٢) سورة الجاثية، الآية ٣٢.



وفيما يرتبط بقضايا الحياة، فإننا لو تأملنا في الأحكام التي نُصدرها طوال حياتنا، أو الاختيارات التي نقوم بها، فسندرك بوضوح أننا نقبل بما يتوافق مع رغبات أنفسنا بكل سهولة، بل حتى لو لم يكن عندنا دليل عليه فإننا نخلق له الدليل. كما أننا نرفض ما يخالف رغباتنا، حتى ولو كانت هناك مؤشرات قوية تؤيده.

وقلائل من الناس هم من يتعاملون مع القضايا دون أحكام مسبقة ودون انحياز، وإذا ما واجهوا دليلاً قوياً قاطعاً على مسألة يخضعون له، أما إن كانت فاقدةً للدليل فيرفضونها. ومثل هذا المنهج متبع في بعض المسائل من قبيل مسائل الرياضيات؛ إذ عندما يواجه التلميذ مسألة رياضية فإنه لا يملك ميلاً أو رغبةً في أحد الأجوبة بالخصوص، لذا تجده يسعى إلى الإجابة عليها جواباً صحيحاً دقيقاً دون انحياز لأي من الأجوبة.

يبين الله سبحانه أن الانحلال والحرية المفرطة التي لا تعرف حدوداً في تلبية الرغبات والأهواء النفسانية هما العاملان الأساسيان في عدم الخضوع للحق والإعراض عن المعاد والآخرة، يقول عز وجل: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۖ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۚ بَلْ قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۚ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۚ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ ۚ﴾^(١).

لقد كانت مشكلة الناس الأساسية مع الأنبياء هي مسألة المعاد؛ إذ لم يسهل عليهم تقبل أن الإنسان سوف يعود إلى الحياة مرةً أخرى بعد الموت؛ لأن الاعتقاد بالمعاد والحياة الأخرى يُحمّل الإنسان مسؤوليةً ثقيلة، وهذا الاعتقاد يمنع الانحلال والتمكّن من رغبات الإنسان. فإذا قَبِلَ



الإنسان الدينَ والقيامَةَ والمعادَ، فإنه سوف يكون مسؤولاً في رعاية حرام الله وحلاله، ويجب عليه حينها التصديق أنه لا يوجد شيء أو فعل يبقى دون حساب وجزاء.

وعليه فإنَّ الشخص المُنقاد لرغباته سينكر المعاد من البداية لكي يفتح أمام نفسه طريق الفسق والفجور، واتباع الشهوات والرغبات النفسيّة دون أي حدود. إذًا، فإنكار المعاد من قبل المشركين وعبيد الهوى ناشئ عن الأحكام القبلية، والرغبات النفسانية، والحُجب التي تُطفئ شعلة المعرفة، لا أن المعاد لم يقم عليه دليل وبرهان.

إنَّ تحصيل الاعتقاد والمعرفة اليقينيّة لا يتبع البرهان والدليل دائماً، وإنما يتحقّق اليقين من البرهان والدليل فيما لو خُلّي الإنسان من الأحكام قبلية، وتلقّى الدليل والبرهانَ دون أحكام مسبقة، وكان يسعى حقاً وراء الوصول إلى الحقيقة، لكن حينما تُحدّد الأحكام القبلية والميول والرغبات اعتقادات الإنسان واختياراته، فسوف لن يرغب بتصديق بعض الأشياء وإن قامت عليها أدلة كثيرة وقويّة؛ ومن هنا كان انكار دعوة الأنبياء التي قامت عليها الأدلة الواضحة والمعاجز الباهرة.

ويخبرنا القرآن الكريم عن تمزّد المشركين أمام دعوة النبي ﷺ ومقاومتهم لها قائلاً: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾^(١).



آفة الانحراف عن الحق وعاقبة الانحطاط

نحن بحمد الله نؤمن بالله، ونعتقد بالنبوة والمعاد وسائر أصول الدين وفروعه، لكن يجب علينا الحذر من خطر الانحراف عن مسير الدين، فلا يمكن لأحد أن يطمئن إلى أن إيمانه سيبقى ثابتاً حتى النهاية، وأنه لا يعرض له الانحراف. ألم يكن هناك أشخاص كانوا مؤمنين يعبدون الله لكنهم في النهاية انحرفوا وكفروا وكانت عاقبتهم الهلاك؟ ألم يكفر إبليس بعد عبادة متواصلة لله استمرت ستة آلاف سنة، فصار علماً للطغيان والتمرد على الله؟ ومن هنا يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عبادة الشيطان: «فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبْدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ، لَا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ [مِنْ] سِنِي الْآخِرَةِ، عَنْ كِبَرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ»^(١).

وكذلك ما نقله القرآن الكريم حول بلعم بن باعورا الذي كان يتمتع بعلم وافر وكرامات جمة، إلا أنه في النهاية اتبع الشيطان وعصى رسول الله، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنْسَلَخَ مِنْهَا فَٱتَّبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَٰوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ ٱخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا فَٱقْصِصْ ٱلْقَصْصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

ومن أجل أن يبقى إيماننا محفوظاً وثابتاً، يجب علينا الثبات على يقيننا بمتعلقات الإيمان، وإذا لم نحصل على اليقين ببعضها فعلى السعي لتحصيل اليقين، وأن نحذر من الشك والوسوسة، وأن نعتبر بمصير

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان ١٧٥ - ١٧٦.



أمثال بلعم بن باعورا الذي هبط إلى حضيض الذل - بعد أن كان في أعلى مراتب الإنسانية - بسبب اتباعه هوى النفس والأنانية.

فضيلة الاستفادة من التجوى مع المعبود والتوحيد الخالص

«اللَّهُمَّ احْمِلْنَا فِي سَفْنِ نَجَاتِكَ، وَمَتَّعْنَا
بِلَذِيذِ مُنَاجَاتِكَ، وَأَوْرِدْنَا حِيَاضَ حُبِّكَ،
وَأَذِقْنَا حَلَاوَةَ وَدَّكَ وَقُرْبِكَ، وَاجْعَلْ
جِهَادَنَا فِيكَ، وَهَمَّنَا فِي طَاعَتِكَ، وَأَخْلِصْ
نِيَّاتِنَا فِي مُعَامَلَتِكَ، فَإِنَّا بِكَ وَلَكَ، وَلَا
وَسِيلَةَ لَنَا إِلَيْكَ إِلَّا أَنْتَ».

بعد طلب الإمام عليه السلام من الله أن يزيل عن قلبه الحُجُب التي تمنع مشاهدة الحقائق، وينقي ضميره من الشكوك والوساوس التي تُؤدِّي إلى الفتنة والانحراف، فإنه يطلب منه أن يحمله على سفن نجاته، ليتمتع بلذيق مناجاة معبوده؛ فإن تذوق طعم المناجاة مع الله والتمتع بالتوفيق لا يفوز به أي شخص كان، وإنما يفوز به الذين نقوا قلوبهم من الظلمات، ونوروها بأنوار الهداية الإلهية. أحياناً ينتظر الإنسان مجيء شهر رمضان المبارك، وبخاصة ليالي القدر، ليناجي فيها الله ويتلو أدعية أبي حمزة الثمالي، والجوشن الكبير، وسائر الأدعية والمناجاة المأثورة ليجلي قلبه ويصقله، لكن حينما تجيء تلك الفرصة الذهبية لا يستغلها الإنسان بالنحو المطلوب، فنراه يجبر نفسه على البقاء مستيقظاً بصعوبة، وحينما يبدأ تلاوة الدعاء ويناجي الله لا يلتذ بذلك، وسبب هذا هو أن الإنسان



لم يوفّر الأرضيّة المناسبة في نفسه للاستفادة من لذة المناجاة مع الله، ولم يشعر بحلاوة مودّة الله والتقرب من المعبود.

المقصود من «الجهاد» في عبارة: «واجعل جهادنا فيك»، هو المفهوم العام للجهاد والمجاهدة في سبيل الله، ولا ينحصر بالجهاد الاصطلاحي - الذي هو الجهاد الحربي وقتال أعداء الله - بل يشمل جهاد النفس وبناء الذات أيضًا الذي هو الجهاد الأكبر.

وعبارة «فإنّا بك وإليك» - وهي عبارة قصيرة مليئة بالمعنى، وقد وَرَدَتْ في أدعية أخرى أيضًا - تُشير إلى التوحيد النقيّ الخالص، الذي يُدرك الإنسان في ظلّه أنه لا أصالة له ولا استقلالية، وأنّ وجوده عارية وناشئ عن الإرادة الإلهية. ومن أجل أن نفهم - ولو بنحو ناقص - كيفية الارتباط الوجودي للإنسان وسائر المخلوقات بالله، وأن كل شيء تابع لإرادة الله، فنحن مضطرون إلى الإشارة إلى دور إرادة الإنسان.

بالرغم من أنّ فهم دور إرادة الإنسان وتأثيرها لا يمكن بأي وجه أن يعطينا فهمًا حقيقيًا لإرادة الله، بل لا تصح مقارنة إرادة الله سبحانه بإرادة الإنسان التي هي أمرٌ ممكن الوجود، بل هي بنفسها ناشئة عن إرادة الله، ولكن ذكر هذا المثال إنما هو لمجرّد تسهيل الفهم للإرادة الإلهية التي يسمو إدراك حقيقتها على آفاق عقولنا الناقصة.

تمثّل روح الإنسان حقيقته وهويّته التي هي منشأ الإدراكات والأحاسيس والعواطف، وفي هذا المجال فإن روح الإنسان هي أيضًا منشأ القرار والإرادة، تلك الإرادة الحادثة التي تتحقّق ضمن عملية خاصّة.

وبعد هذا التوضيح نقول: نحن حينما نريد إيجاد صورة حديقة أو تفّاحة في أذهاننا، فبعد تلك الإرادة والالتفات تتحقّق صورة الحديقة



أو التفاحة في أذهاننا، ولأن تلك الصورة الذهنية تابعة لتلك الإرادة والالتفات، فإذا زالت تلك الإرادة والالتفات، فسوف تزول تلك الصورة لا محالة. وبتعبير آخر: إن الالتفات والإرادة وتلك الصورة الذهنية تتحقق وتوجد دفعةً واحدةً، وتلك الصورة الذهنية هي تجلُّ وأثر وجودي للإرادة، فتزول تبعًا لزوال الإرادة.

وفي أفق أعلى وأسمى من النسبة بين الممكنات، نجد أن كل المخلوقات تابعة لإرادة الله، وتحققها مرتبط ومنوط بالإرادة الإلهية، ووجود أي شيء منها إنما هو تجسّم للإرادة الإلهية، ويتحقق بالإرادة الإلهية، ويفنى ويزول كذلك بالإرادة الإلهية. وهذه هي الحقيقة التي أوضحها الله لنا في القرآن الكريم إذ يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

إن شأن الله المتعالي هو أنه إذا تعلّقت إرادته بتحقيق شيء، فإن ذلك الشيء يتحقق مباشرةً ومن دون تأخير، بل ليس هناك حاجة إلى أي لفظ يصدر عنه سبحانه وتعالى، وإلا لزم التسلسل، لأن التلفظ نفسه شيء يأتي بعد تلفظ آخر، وذلك التلفظ هو أيضًا شيء من الأشياء يحتاج إلى إرادة وتلفظ آخر. وكذلك لا يوجد في البين مخاطب يمتلك أذنًا يسمع بها الخطاب أو يوجد من باب الامتثال؛ لأنه إذا كان موجودًا فهو ليس بحاجة إلى إيجاد.

إذاً فالكلام في الآية الشريفة التي نبحث فيها كلام تمثيلي، «الآية من غرر الآيات القرآنية تصف كلمة الإيجاد وتبين أنه تعالى لا يحتاج في



إيجاد شيء مما أَرَادَهُ إلى ما وراء ذاته المتعالية من سبب يوجد له ما أَرَادَهُ أو يعينه في إيجادهِ أو يدفع عنه مانعاً يمنعهُ»^(١).

لذا فالإمام عليه السلام يقول في مناجاته إن وجودنا تجسّم الإرادة الإلهية، وإذا لم يُرد لم يكن لنا أي وجود أو تحقق. وكذلك حياتنا هي لله، وما يعطي عمرَ الإنسان وحياته قيمتها هو الرضا والقرب الإلهي، وقيمة حياتنا رهينة بأن نجعل القرب والرضا الإلهي هدفاً وغاية لنا، وإلا فستكون حياتنا فارغة لا قيمة لها وملينة بالخسران والفساد.

وعبارة «ولا وسيلة لنا إلا أنت»، الواردة في الأدعية والمناجيات الأخرى، هي بمعنى أنه عليه السلام يجعل الله وسيلةً وشفيعاً له، ولا يعرف وسيلةً وشفيعاً إلا الله، وهذا الكلام شبيه بأن يقول الشخص: «لا يتم أي عمل دون إذن الله»، أو «الله يُتم أي عمل بإذنه»، كما وردَ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

إذا سأل شخصٌ شخصاً آخر: مَنْ الذي سمح لك بارتداء هذه الملابس؟ وأجاب قائلاً: أنا الذي سمحتُ لنفسي بارتدائها. فالجواب يعني: أنني أنا المالك لهذه الملابس، ولست بحاجة إلى إذن أحد في ارتدائها. وكذلك حينما يقول الله سبحانه أنه هو الذي يُخرج الناس من الظلمات إلى النور، فيمكن الاستظهار من كلامه أنه سبحانه لا يحتاج إلى الاستئذان

(١) راجع: العلامة الطباطبائي، الميزان، الجزء ١٧، الصفحة ٥٨.

(٢) سورة المائدة، الآيتان ١٥-١٦.



من أحد، لا أنه يحتاج إلى إذن وسماح من نفسه. وكذلك جعل الله شفيعاً وسيلةً عند ذاته سبحانه بمعنى أن الإنسان يقصد الله مباشرةً دون سيلة وشفيع سواه، ولا يحتاج إلى شفيع أو سيلة.

خيلة مجالسة الأنبياء والصالحين

«إِلَهِي اجْعَلْنِي مِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ،
وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ الْأَبْرَارِ، السَّابِقِينَ
إِلَى الْمَكْرُمَاتِ، الْمَسَارِعِينَ إِلَى
الْخَيْرَاتِ، الْعَامِلِينَ لِلْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ،
السَّاعِينَ إِلَى رَفِيعِ الدَّرَجَاتِ، إِنَّكَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ،
بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

يَعْلَمُنَا الْإِمَامُ عليه السلام - بطلبه من الله أن يجعله من «المصطفين لأخيار» الذين وَرَدَ ذِكْرُهُمْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ^(١) - ضرورة أن يكون عندنا همة عالية وأن ننظر إلى الآفاق العالية والسامية، وأن نطلب من الله أن يبلغنا أعلى المقامات وهي مصاحبة الأنبياء الإلهيين.

وكذلك يطلب عليه السلام من الله أن يجعله في زمرة الصالحين والأخيار لمتقدمين على غيرهم في الاتصاف بفضائل الأخلاق ومكارمها، من الذين بمضون أعمالهم في أعمال الخير الباقية.

(١) «وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ»، وهم [إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، و...]. سورة ص، الآية ٤٧.



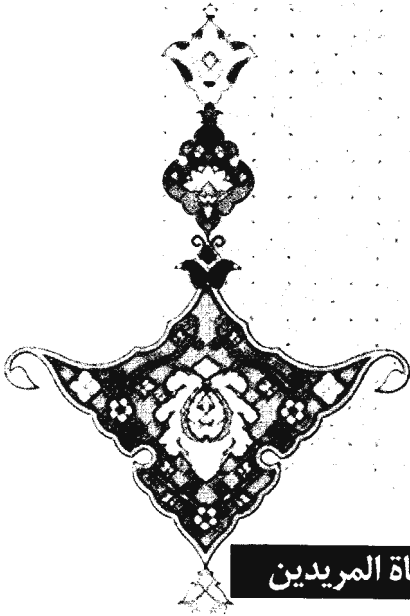
و«الباقيات الصالحات» هي الأعمال الخالدة الباقية التي تتمّ بهدف جلب الرضا الإلهي والتقرب إلى الله في سبيل عبوديته. ولأنّ هذ الأعمال تؤدّي من أجل الله فهي تكتسب لذلك صبغة البقاء والخلود وتكون في غاية القيمة. ويقابل ذلك اللهاث وراء الذات الدنيوية وإهدا العمر من أجل الوصول إلى الميول النفسانية والرغبات الماديّة العابر الزائلة، الفاقدة للقيمة الإنسانية الأصيلة. ولا يليق بالإنسان أن يسعى وراء الرغبات العابرة التافهة مستبدلاً بها البحث عن السموّ واكتساب القيد الأصيلة الخالدة.

وقد بيّن الله لنا في آيات من القرآن الكريم مصاديق «الباقيات الصالحات»، ومنها رضوانه وجزاؤه الأخروي الخالد حيث قال: ﴿إِنَّكُمْ عِنْدَكُمْ يَنْقُذُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَرِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١)، وبيّنت آية أخرى أن «الله» خالد وخير حيث جاء فيها: ﴿إِنَّا عَامِتًا بِرَبِّنَا لِيَعْفَرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٢)، وبيّنت آية ثالثة أن عالم الآخرة خالد وخير ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٣).

(١) سورة النحل، الآية ٩٦.

(٢) سورة طه، الآية ٧٣.

(٣) سورة الأعلى، الآية ١٧.



شرح مناجاة المريدين



المقال الثلاثون بحث في القرب الإلهي

ضرورة شرح ودراسة أدعية ومناجاة الأئمة المعصومين عليهم السلام

إن أدعية أئمتنا ومناجاتهم تشتمل على معارف سامية، وحكم لا مثيل لها، وملاحظات عرفانية نقيّة غالبًا ما يغفل عنها الإنسان وقلمًا يتم التطرّق إليها في الأبحاث.

إنّ عدم الالتفات إلى هذه الدرر الفريدة التي لا نظير لها وعدم الغور في بحر معارف أهل البيت عليهم السلام اللامتناهي يُعدُّ بالدرجة الأولى جفاءً في حقّ هؤلاء العظماء وبخسًا لحقّهم وتضييعًا لكلامهم النوراني، ثم وبالدرجة الثانية هو جفاء في حقّ أنفسنا؛ إذ نحن بذلك نكون قد حرّمنا أنفسنا من تلك الثروة الخالدة.

وفي فراغ الحرمان من عرفان أهل البيت عليهم السلام النقيّ يبدأ الدجالون والانتهازيون بالترويج لأنواع العرفان الكاذب، ويخدعون الشباب المحرومين من المعين الحقيقي للمعارف التوحيدية النقيّة، فيسقونهم بدل ذلك النмир العذب سمًّا زعافًا، ويملؤون رؤوسهم أفكارًا فارغةً منحرفة.



ونحن وإن كنّا عاجزين عن فهم حقيقة تلك المعارف النقيّة، لكننا يجب علينا أن نفكر ونتحاور فيها، وأن نقدّم فهمنا لذلك الكلام النوراني وإن كان فهمًا ناقصًا، كي نساهم بذلك في نقل معارف أهل البيت عليهم السلام إلى الأجيال الآتية، ونمهّد الأرضيّة للطاقات الجديدة والقلوب النورانية، ليفهموا ما عجزنا عن فهمه، في ضوء ما يمتلكونه من استعداد وقابلية، وخاصّة في ظل توفيق الله لهم حتّى يدركوا ويفهموا تلك المضامين السامية، وبذلك ننال الثواب والأجر على نقلنا تلك المعارف لهم، كما قال رسول الله ﷺ: «نَضَرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاَهَا وَبَلَّغَهَا مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، قَرُبَ حَامِلٍ فَقِهِ غَيْرِ فَقِيهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَقِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»^(١).

فرغم أن قدرة استنباط وفقاهة المحدثين لا تصل إلى قدرة استنباط وفقاهة العلماء الكبار من قبيل الشيخ الأنصاري (رضوان الله عليه)، لكن حفظهم مآثر أهل البيت عليهم السلام ونقلها إلى سائر الأجيال مهّد الأرضيّة للفقهاء كالشيخ الأنصاري كي يصلوا إلى نتائج فقهية عظيمة من خلال تأملهم العميق في الروايات وتفقّهم فيها.

وفي سبيل هذه الرسالة العظيمة نحن عقدنا مجلسنا هذا لبحث ودراسة مناجيات الإمام السجاد عليه السلام.

والآن نحن نسعى لدراسة مناجاة المريدين، يعني مريدي الله، علّنا ننتفع بهذا الجهد من المعارف النقيّة لهذا الإمام الهمام، ونشارك في تقديم تلك المعارف إلى الآخرين.

يقول عليه السلام في الفقرة الأولى من هذه المناجاة:

(١) الكليني، أصول الكافي، الجزء ١، الصفحة ٤٠٣، الحديث ١.



«سُبْحَانَكَ مَا أَضْيَقَ الطُّرُقَ عَلَى مَنْ لَمْ
تَكُنْ دَلِيلَهُ، وَمَا أَوْضَحَ الْحَقَّ عِنْدَ مَنْ
هَدَيْتَهُ سَبِيلَهُ. إِلَهِي، فَاسْلِكْ بِنَا سُبُلَ
الْوُصُولِ إِلَيْكَ، وَسَيِّرْنَا فِي أَقْرَبِ الطُّرُقِ
لِلْوُفُودِ عَلَيْكَ، قَرِّبْ عَلَيْنَا الْبَعِيدَ، وَسَهِّلْ
عَلَيْنَا الْعَسِيرَ الشَّدِيدَ».

أقرب الطرق للوصول إلى المعبود

يستفاد من أول ما جاء في المناجاة أن المُناجي يسعى إلى الوصول إلى الله تعالى والتقرب إليه، وهو بصدد العثور على طريق يوصله إليه، ومن أجل نيل هذا المقصود يتوسل بالدعاء والطلب من الله قائلاً: إلهي، إن الذي لا ترشده إلى الطريق يسير في طريق ضيق غير معبد مليء بالوعورة، ولا يصل إلى أي مقصد، وأما الذي تهديه إلى أقصر الطرق وأكثرها أماناً من بين الطرق المختلفة، فإنه سيجد في ضوء هدايتك وإرشادك طريقه ويصل إلى هدفه، وسوف يميز بوضوح الحق من الباطل، ولن تؤدّي المطبات والعراقيل في طريق الهداية إلى وقوعه في الشك والترديد والتعمية.

إن من الطبيعي وجود المصاعب في الطرق، وبخاصة إذا كان الهدف في ذلك الطريق سامياً ونفيساً، فإن مصاعبه تكون أكثر، والسالك في هذا الطريق عليه أن يتحمل المصاعب، وأن يسعى بوعي ورؤية مستنيرة للوصول إلى الهدف، فالإنسان الجاهل الفاقد للوعي والمعرفة لا يمكنه أن يمضي في طريق التعالي والسمو، بل سوف يبتلي بالاعوجاج والانحراف عن المسير، وإن الجهل والشبهة والتردد تؤدّي به إلى اتباع



الذين يقطعون طريق السعادة، والسعي وراء كل ناعق واتباع كل مدع، وبالتالي خسران السعادة والكمال، قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾^(١)، والأسوأ من هذا هو الشخص الذي ابتلي بالجهل المركب، واختار طريق الشقاء وهو يتوهم أنه يسير في مسير السعادة، قال سبحانه وتعالى في بيان حال هؤلاء الأشخاص: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾^(٢) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا^(٣).

ومن الواضح أن الحيرة والضلال والانحراف إنما هي عقوبة على الأعمال القبيحة الصادرة من الإنسان بوعي منه، وأن الله لا يظلم أحداً، وإنما الإنسان هو الذي يظلم نفسه، وبسلوكه يحرم نفسه من السعادة ويدفعها إلى الخذلان.

يستفاد من الفقرة الأولى من هذه المناجاة، أن الهدف النهائي للإنسان هو الوصول إلى الله تعالى، فيجب على الإنسان أن يطلب الوصول إلى معبوده، ومناجاة المريدين ناظرة إلى الأشخاص الذين يريدون الله ويسعون للوصول إلى المعبود.

الأمر الآخر هو أن هناك طرقاً مختلفة للوصول إلى الله، وعلى المرء أن يطلب من الله إرشاده إلى أقرب الطرق وأقلها خطراً.

(١) سورة النور، الآية ٤٠.

(٢) سورة الكهف، الآيتان ١٠٣-١٠٤.



الموجودات جميعاً سائرة نحو الله

يُستفاد من التعاليم القرآنية والروائية أنَّ كل ما في هذا العالم في حالة مسير وحركة، والمقصد النهائي والغاية القصوى لهذه الحركة هو الله تعالى. والله سبحانه يشير إلى هذا المعنى بتعابير مختلفة، منها قوله:

١. ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾^(١).

٢. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾^(٢).

٣. ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾^(٣).

ويُشير الله سبحانه إلى أن الخزائن اللامتناهية لكل ما هو موجود في هذا العالم عنده سبحانه حيث يقول: ﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾^(٤).

وجملة «وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ» تُشعر بأن خزائن الموجودات الإمكانية غير محدودة؛ لأنَّ الله وما عنده غير محدود، وإنما ينزل منه مقداراً محدوداً من تلك الخزائن إلى هذا العالم الذي هو قرين للمحدودية وتوأم لها.

وبعبارة أخرى: إنَّ خاصية هذا العالم الذي نتواجد فيه مع سائر الموجودات هي وجود المحدوديات، فإن كل ما يوجد فيه محدود، وله حدٌ ومقدارٌ معيَّن، إلا أنَّ جميع هذه الموجودات المحدودة لها عند الله خزائن لا محدودة، يُنزل الله سبحانه موجودات هذا العالم من تلك

(١) سورة الشورى، الآية ٥٣.

(٢) سورة هود، الآية ١٢٣.

(٣) سورة العلق، الآية ٨.

(٤) سورة الحجر، الآية ٢١.



الخزائن، ثم بعد ذلك تعود تلك الأمور النازلة مرةً أخرى راجعةً نحوه عز وجل.

وفي آية تتحدّث عن تدبير أمور العالم ورجوع تلك الأمور إلى الله، قال سبحانه وتعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾^(١).

وعلى أي حال فكل ما هو موجود في هذا العالم هو في قوس النزول من الله يُرسل نحو هذه الدنيا، ثم يرجع في قوس الصعود نحو الله والعالم الآخر، والآية تُشير إلى أن كل يوم من تلك الأيام يعادل ألف سنة من سنوات الدنيا، وعلى أساس آية أخرى فإن كل يوم منها يعادل خمسين ألف سنة^(٢). وللإنسان - باعتباره جزءاً من الأشياء والموجودات في هذا العالم - مسيران: نزولي وصعودي، والآيات المرتبطة بحشر الإنسان ورجوعه نحو الله وملاقاته لرب العالمين ناظرةً إلى السير الصعودي، ومن هذه الآيات قوله سبحانه وتعالى حول لقاء عامّة العباد ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾^(٣).

فالخطاب في الآية متّجه إلى جميع الناس ولا يختص بالمؤمنين. والمقصود من الحركة في هذه الآية هو الحركة التكوينية واللقاء العام ورجوع الجميع إليه سبحانه، ومن هنا فلا يُعدُّ هذا اللقاء امتيازاً وفخراً لأحدٍ.

(١) سورة السجدة، الآية ٥.

(٢) ﴿تَفْرُخُ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، سورة المعارج، الآية ٤.

(٣) سورة الانشقاق، الآية ٦.



١٠٧



فكما أن جميع الموجودات - ومنها الإنسان - جاءت إلى هذا العالم من دون اختيار، فكذلك سوف يرجع الجميع إلى الله ويلاقونه، غير أن للإنسان - بالإضافة إلى هذه الحركة التكوينية - مسيرةً وحركةً اختياريةً أيضًا هي السبب في امتيازه عن سائر الموجودات، فإذا استفاد من هذه الحركة الاختيارية تمام الاستفادة، فإن مقامه سيعلو على مقام الملائكة، وإذا لم يختار الطريق الصحيح في هذه المسيرة وأساء الاستفادة منها، فإنه سيهبط إلى أسفل درجات الانحطاط ويسقط في الحضيض.

وهذا السير الاختياري والتكاملي يختص بالمؤمنين بالله، وأما الذين لا يؤمنون بالله فلا حظَّ لهم من هذا المسير الاختياري التكاملي وهم محرومون منه.

مفهوم «أنَّ الله غاية السير الإنساني الاختياري التكاملي»

إن لازم كون الله هو الهدف والمقصد للمسير الاختياري والتكاملي للإنسان هو أن يكون الإنسان في البدء بعيدًا عن الله، ثم يقلل الفاصلة بينه وبين الله تعالى من خلال السير في ذلك الطريق الموصل إليه سبحانه، وحينما يصل إلى نهاية المسير يكون قد اقترب من الله غاية القرب. كما أن الإنسان حينما يسافر من مدينة إلى أخرى فإنه يقلل المسافة بينه وبين تلك المدينة من خلال سيره نحوها، وحينما يصل إلى المدينة تزول الفاصلة بينهما في نهاية المطاف.

ويجب على المؤمن الذي يسعى للوصول إلى الله عزَّ وجل أن يصبغ سلوكه وعبادته بصبغة إلهية، وأن تكون أعماله بقصد التقرب، فقصد التقرب إلى الله لازم الإيمان، وهو مطلوب ذاتي للمؤمن. فكل من يؤمن بالله يسعى إلى تحقيق القرب منه، وإن لم يكن ملتزمًا بلوازم اعتقاده،



بل ربما يسلك طريقاً غير صحيح من أجل الوصول إلى مقصوده، ويتوهم أن هذا الطريق يوصله إلى الله، كما كان حال عبدة الأصنام الذي توهموا باطلاً أن التمسك بالأصنام وعبادتها يقربهم إلى الله، وأنها واسطة بينهم وبينه سبحانه، ومن هنا يقول سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾^(١).

بيان المطلوبة الذاتية والعرضية للقرب الإلهي

كل المؤمنين يرغبون في القرب الإلهي والوصول إلى الله تعالى، وهذا القرب مطلوب ذاتي عند بعض، ولكنه مطلوب بالغير عند بعض آخر منهم، وبتعبير أدق: إن البعض يعتبرون القرب الإلهي مطلوباً بالعرض، بمعنى أن غرضهم من التقرب إلى الله هو التمتع بنعيم الجنة، والرحمة الإلهية، ومن حور العين وقصور الجنة التي تُعد من لوازم التقرب إلى الله وآثاره. فحيث إن أفراد هذه المجموعة يعلمون أن نيلهم لهذه النعم إنما يتحقق في ظل التقرب إلى الله، تراهم يسعون نحو التقرب إليه، ولو أن ذلك لم يكن مؤثراً في تحصيلهم النعم الأخروية الخالدة لما سعوا لتحقيقه.

أما الذين يعتبرون القرب الإلهي مطلوباً ذاتياً، فإنهم يسعون للتقرب إلى الله حتى لو لم تكن الجنة موجودة، بل حتى لو كان رضا الله وإرادته هي في دخولهم النار واحتراقهم فيها آلاف السنين فإنهم سيرضون بذلك، ويرجحون ذلك على ما يخالف الرضا الإلهي.



ومن هنا نقرأ في حديث المعراج نقلاً عن روح السالك الواصل إلى رضوان الحق: «إِلَهِي عَرَفْتَنِي نَفْسَكَ فَاسْتَغْنَيْتُ بِهَا عَنْ جَمِيعِ خَلْقِكَ، وَعَزَّتْكَ وَجَلَّالِكَ لَوْ كَانَ رِضَاكَ فِي أَنْ أَقْطَعَ إِرْبًا وَرَبًّا وَأُقْتَلَ سَبْعِينَ قَتْلَةً بِأَشَدِّ مَا يُقْتَلُ بِهِ النَّاسُ لَكَانَ رِضَاكَ أَحَبَّ إِلَيَّ»^(١).

قلنا إن التقرب إلى الله تارةً يكون مطلوباً ذاتياً وأخرى يكون عرضياً، أي إن البعض يسعون للتقرب إلى الله من أجل أن ينالوا الجنة ويحظوا بالنعيم الإلهية، والبعض الآخر يكون التقرب إلى الله وجلب رضاه مطلوباً ذاتياً وأصيلاً عندهم، فهؤلاء لم يلحظوا الجنة والنار والنعيم الإلهية، ومن أجل تسهيل فهم ذلك، علينا أن نستحضر أن هناك نوعين من الارتباط العاطفي والتقرب في العلاقات الإنسانية: فأحياناً يكون الإنسان محتاجاً إلى بعض الأمور، ومن أجل تلبية تلك الاحتياجات يقصد صديقه، وتكون الاستفادة من النعم والطعام والأموال التي يوفرها له صديقه هي مقصوده الأصلي، بحيث لو لم يوفر له صديقه تلك الأمور لما قَصَدَه ولا ذهب لزيارته. لكن أحياناً تكون علاقته مع صديقه من العمق والقوة بحيث يتجه إليه ليشعر بالراحة والانشراح بقربه، ويكون الأمر الأصيل عنده هو لقاء صديقه والتحدث إليه والجلوس معه، ولا يهتم بعد ذلك أن يقدم له ذلك الصديق مساعدة أم لا، ولا أن يقدم له الطعام والشراب، فهو لم يقصد هذه الأمور من زيارته، فلو قَدِمَ له شيئاً من الطعام والشراب فإنه يجده طيباً ولذيذاً لأنه من صديقه. وحتى لو قَدِمَ له صديقه طعاماً مالحاً أو مرّاً، فإنه يتناوله ويلتذ به، ويفضّل هذا الطعام الذي قَدِمَه له صديقه على أفضل أطعمة العالم.

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٧٧، الباب ٢، الصفحة ٢٧، الحديث ٦.



إِنَّ مَنْ كَانَ هَمُّهُ لِقَاءَ اللَّهِ وَالِاشْتِيَاقَ إِلَى لِقَاءِ الْمَحْبُوبِ، وَالسَّعْيَ لِكَسْبِ رِضَا الْمَعْبُودِ، وَكَانَ رِضَا مَعْبُودِهِ فِي الْإِحْتِرَاقِ بِنَارِ جَهَنَّمَ فَإِنَّهُ سَيُلْقَى بِنَفْسِهِ فِيهَا وَهُوَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِأَنْ يَحْتَرِقَ فِيهَا أَلْفَ الْمَرَّاتِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنَالَ ذَلِكَ الرِّضَا.

وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَا يَبْتَلِي أَحِبَّابَهُ بِجَنَّتِهِمْ، بَلْ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ وَيَسْتَقْبِلُهُمْ بِأَفْضَلِ مَا يُمْكِنُ، وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ نِعَمِ الْجَنَّةِ الْخَالِدَةِ الَّتِي لَا نَظِيرَ لَهَا. وَالْهَدَفُ مِمَّا قِيلَ كَانَ بَيَانِ أَسَاسِ مَعْرِفَةِ خَاصَّةِ أَحِبَّابِ اللَّهِ وَأَوْلِيَائِهِ، وَأَنَّهُمْ لَا هَدَفَ لَهُمْ سِوَى الْقَرَبِ مِنَ اللَّهِ وَجَلْبِ رِضَا، وَمَا مَحَبَّتِهِمْ لِنِعَمِ اللَّهِ إِلَّا بِسَبَبِ أَنَّهَا تَنْتَسِبُ إِلَى مَعْبُودِهِمْ وَآتِيَةٌ مِنْهُ.

خلاصة المطالب

اتضح مما تقدّم أن جميع المؤمنين يريدون القرب من الله، لكن بعضهم يريد القرب منه بهدف الاستفادة من لوائمه والنعم الإلهية، والواقع أن القرب من الله مطلوب عرضيٌّ لهم، وفي المقابل فإن هدف الواصلين إلى أعلى مراتب معرفة الله ومطلوبهم الذاتي هو نفس القرب من الله، والاستفادة من لوائمه مطلوب عرضيٌّ لهم. ولقد كانت هذه المرتبة العالية موردًا للطلب في الأدعية والمناجيات الواردة عن المعصومين ومنها هذه المناجاة، وعلى هذا الأساس لا نجد ذكرًا للجنة وجهنم في هذه المناجاة، وفي ختام المناجاة يبيّن ﷺ أن الله سبحانه هو نعيمه وجنته، وهذا حاكٍ عن المحو في الجمال الإلهي.

وإن من الطبيعي أن يكون الطمع في الجنة والخوف من نار جهنم أمرًا مؤثرًا جدًّا عند أصحاب المراتب المعرفية الأدنى، فهذا يُثير فيهم العزيمة والدوافع لعبودية الله، وأداء التكاليف الإلهية، ويحضهم على أن



يشكروا الله على ما عندهم من هذا المستوى من المعرفة، وفقدان هذا المستوى من المعرفة ناشئ عن ضعف الإيمان والنفاق.

وقد اتضح أيضاً أنه بالإضافة إلى السير التكويني لجميع الموجودات - ومنها الإنسان - نحو الله، فإن الإنسان يختصّ بسير اختياري نحوه سبحانه، وهذا السير باعث على كماله وسموه.

إن البعض بذلوا جهوداً كبيرة وفهموا بذلك معنى السير إلى الله والقرب منه، وطبيعي أنهم يجب عليهم أن يشكروا الله على وصولهم إلى مثل هذا التصديق والاعتقاد. وأما الأشخاص الذين فشلوا في فهم معنى القرب إلى الله، فإنهم سعوا إلى تبرير التعبيرات الحاكية عن القرب من الله في القرآن قائلين إن هذه التعبيرات قد حُذِفَ فيها متعلّق القرب وأن مرجع «القرب إلى الله» هو «القرب إلى رحمة الله»، أو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنْتَهَىٰ﴾^(١) في الأصل هو إلى رحمة ربك المنتهى.

ومن هنا فإن هؤلاء لا يستطيعون أن يتصوّروا أن هناك مطلوباً آخر للإنسان غير رحمة الله والنعم الأخروية.

يجب علينا أن نشكر الله على أننا حصلنا على معرفة - وإن كانت ناقصة - بمعنى التقرب إلى الله وبكونه مطلوباً ذاتياً، ونحن نعتقد أن التصديق الحقيقي بذلك مختصّ بالنبي الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار ﷺ، والذين تربّوا في مدرستهم.

الملاحظة الثالثة التي تطرّقت إلينا هي أنه من أجل الوصول إلى القرب الإلهي هناك طُرُق خاصّة، ومن خلال سلوك تلك الطُرُق فقط يمكن



الوصول إلى الله، لا أن لكل شخص أن يخترع طريقًا بما يناسب ذوقه
وسليقته كيفما أراد.



إذاً يجب علينا أن نسعى لمعرفة طرق الوصول إلى الله، وخاصة
أقرب الطرق إليه عزّ وجل، ولا ريب أن الوصول إلى هذه المعرفة
والتصديق بها يُعدُّ توفيقاً عظيماً يمنحه الله للمؤمنين.

فمن الممكن أن يتعرّف بعض الأفراد على طرق القرب من الله أو
آثار وبركات عبادة الله وأعمال الخير من خلال مطالعة الآيات والروايات،
لكنهم لا يصلون إلى مستوى من الاعتقاد يحرك فيهم الهمة والعزيمة
للعمل بمقتضى معرفتهم.

إنّ ما يؤدّي إلى تحقّق العزم والهمة للعمل بمقتضى معرفة تلك
الحقائق هو التصديق بتلك الحقائق، مما يدفع الإنسان نحو السير في
طريق القرب من الله والعبادة الخالصة والقيام بأعمال الخير. فإذا ما
آمن المرء بأن في الصلاة أوّل الوقت ثواباً كثيراً، فإنه لن يُقصر حينها في
الالتزام بها ولن يُهمل صلاته أو يؤخّرها عن أوّل وقتها، بيد أنه إذا لم يصل
إلى هذا المستوى من التصديق، فإنه لن يختلف عنده الأمر في الصلاة
أوّل وقتها أو آخره، وبالتالي فسوف يُحرم فضيلة الصلاة أوّل الوقت ويُحرم
ثوابها.



المقال الحادي والثلاثون رَوَادِ مَسِيرِ الْقُرْبِ الْإِلَهِيِّ (١)

استعراض المطالب السابقة

هدف الإنسان ومقصده النهائي هو القرب من الله والوصول إليه، ولكي يصل الإنسان إلى هذا المقصد فإن أمامه طريق طويل مليء بالمنعطفات والمطبات، بحيث نجد عظيمًا كأمر المؤمنين عليهم السلام مع كل عباداته المضية ومناجاته العميقة يتأوه بعمق قائلاً: «آه مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَطُولِ الطَّرِيقِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَعَظِيمِ الْمَوَدِّ»^(١).

أمر المؤمنين عليهم السلام يتأوه من قلة زاده ومتاعه للمضي في طريق الآخرة الطويل، وهو عليه السلام يرى أن عبادته ليست من شأن مقصد الآخرة ومنزلها الأبدي، بينما كانت عبادة الإمام الطويلة المضية بحيث قد روي عن الإمام السجاد عليه السلام أنه أخذ بعض صحف عبادات أمير المؤمنين فقرأ فيها يسيراً ثم تركها من يده تَضَجُّراً وقال: «مَنْ يَقْوَى عَلَى عِبَادَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام؟»^(٢).

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٧٧.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٤١، الباب ١٠١، الصفحة ١٧، الحديث ١٠.



ورغم أن المستفاد من الروايات والتعاليم الدينية هو أن طريق الآخرة طويل ومليء بالمنعطفات، غير أن الإنسان بسعيه وجهوده يستطيع أن يطوي الطريق ويصل إلى مقصده بسلامة، والأنبياء الإلهيون والأئمة الأطهار عليهم السلام جاؤوا من أجل إيضاح مقصد الآخرة وقمة السعادة والكمال، وليساعدونا في المسير نحو تلك القمة ونقطة الفلاح.

وكل شخص يسعى بمقدار همته وجهده ليقطع شوطاً من هذا الطريق بسلامة، فإنه يكون قد قام بعملٍ في غاية القيمة. لا أن الأمر مقتصر على الوصول إلى القمة بحيث إن من لم يصل إليها يكون خاسراً بشكل مطلق، بل إن كل خطوة تُخطى في هذا المسير فإن صاحبها مأجور عليها وهي خطوة مباركة، وتترتب عليها آثار إيجابية. وطبيعي أن على الإنسان أن يكون ذا همّة عالية وأن يتّجه هدفه نحو الوصول إلى أعلى المقامات من القرب الإلهي، وأن لا يكتفي بالمقامات الدانية.

خصائص رُؤاد طريق القرب الإلهي

يستفاد من الفقرة الأولى من المناجاة أن هناك طرقاً مختلفة للوصول إلى مقصد الآخرة والقرب الإلهي، وأقرب طريق يوصل إلى ذلك المقصد هو الطريق المستقيم، وسائر الطرق تكون بمثابة الزاوية أو القوس، تُبعد الإنسان عن مسيره ومقصده، ويجب علينا أن نطلب من الله هدايتنا إلى أقصر الطرق، وتذليل مصاعب الطريق وعقباته لنا.

بعد أن نعرف المقصد وهو القرب الإلهي، وكذلك بعد التعرّف على أقرب الطرق للوصول إليه، وعلى فرض أن الله استجاب دعاءنا وعرفنا أقرب الطرق إليه، وكذلك أعاننا في المضي في ذلك الطريق، فمن المسلّم أنه لا يكفي مجرد التواجد على أقصر الطرق لتحقيق الهدف؛ وذلك



لوجود مخاطر المسير للوصول إلى الله؛ ولذلك فنحن بحاجة ماسة إلى رفيق لائق.

لاحظوا المثال التالي: كان السفر - في الماضي - يتم على وسائل النقل المتعارفة في ذلك الزمان، وهي الخيل والبغال والإبل، كما كان بعض الناس يسافرون مشيًا على أقدامهم، وقد كان المسافرون يحتاجون إلى رفيق في الطريق حتى في السفر القصير كالسفر من قم إلى جمران، فإن الرفيق الصالح ضروري وخاصة عند السفر مشيًا على الأقدام، فإن رفيق الدرب المناسب يبث في المسافرين روح النشاط ويتقدمهم بجدٍّ وعزم راسخ، ويزيل المصاعب من طريقهم. وعلى خلاف ذلك إذا كان الرفيق شخصًا تافهًا كسولًا فإنه سيسلب من الإنسان المسافر نشاطه ويصعب عليه المسير. وبناءً على هذا فإن أحد مفاتيح النجاح هي العثور على رفيق نشيط ذي همّة عالية، وينبغي على الخصوص أن يكون عارفًا بالطريق، مما يؤدي إلى زيادة الحيوية وتقليل تعب السفر. ومن هنا نجد الإمام عليه السلام في هذه المناجاة يهتم كثيرًا برفقاء السفر والرواد الذين يتقدمون الآخرين في مسير السلوك إلى الله ممن هم على دراية جيدة بالطريق، ويُعدُّ كلامهم وسلوكهم نموذجًا يحتذى به الآخرون؛ لذا يقول عليه السلام:

«وَأَلْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الَّذِينَ هُمْ
بِالْبِدَارِ^(١) إِلَيْكَ يُسَارِعُونَ^(٢)، وَبَابِكَ عَلَى

(١) مصطلحا «البدار» و«المبادرة» يستعملان فيما لو كان أمام الإنسان عدة أعمال، فاختار واحدًا منها وسعى بشكل جادٍ لإنجازه وترك سائر الأعمال جانبًا.

(٢) «المسارعة» من باب «المفاعلة» يدل على معنى أشد من السرعة، فهو يدل على المسابقة والسعي إلى التقدم على الآخرين وسبقهم.



الدَّوَامِ يَطْرُقُونَ، وَإِيَّاكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَعْبُدُونَ، وَهُمْ مِنْ هَيْبَتِكَ مُشْفِقُونَ».

بعد أن يطلب من الله أن يدلّه على أقرب الطرق للوصول إلى مقام القرب منه، يطلب الإمام عليه السلام من الله سبحانه أيضًا أن يرزقه رفاق سفرٍ لائقين يتصفون بالصفات التالية:

- ١ . سريعو الحركة.
- ٢ . يواصلون قطع الطريق دون توقّف.
- ٣ . أهل عبادة في الليل والنهار.
- ٤ . أهل خشية من عظمة الله.

أ) السرعة في الحركة نحو القرب الإلهي

من أجل تبين الصفة الأولى - وهي السرعة في الحركة - نلفت نظر القارئ إلى المثال التالي: افترض أنك تقف في مكان مرتفع بحيث يمكنك مشاهدة منطقة واسعة، وتشاهد مجموعة من الناس يتحركون كلّهم باتجاه مقصد واحد، لكن فريق منهم يطوون بسرعة وبجدٍ وعزم راسخ، وفريق آخر يتحركون بسرعة أبطأ وبنشاط أقل، وفريق ثالث يتحركون نحو الهدف والمقصد بمنتهى البطء ودون أي نشاط ولا دافع كافٍ. ومع فرض أنك أنت أيضًا تنوي السفر تجاه ذلك المقصد وتسعى أن تصل إليه بسرعة، فأَي فريق سوف تختار؟ قطعًا سوف تختار الفريق الأول وهو الأسرع الذي يسلك الطريق الأكثر استقامةً.



وفي مسير التعالي والكمال والقرب إلى الله، على السالك أن يسعى إلى أن يمضي مع الذين يحثّون الخطى ويسارعون السير من رواد قافلة السموّ العظيمة، وأن يتأسّى بهؤلاء، وأن يقتبس من صفاتهم الممتازة ويقتدي بتعاليمهم.

والإمام السجاد عليه السلام يقصد بالأشخاص الذين يريد مرافقتهم الأنبياء الإلهيين، وخاصةً خاتم الأنبياء عليه السلام، وأمير المؤمنين عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام، وهم رواد قافلة الإنسانية العظيمة وهم الراسخون والجادّون في السير في هذا المسير، الذين لا تلتفت قلوبهم إلى سوى الله سبحانه، ولا يجذب نظرهم أي شيء جانبي، وبالتالي فيصلون أسرع من الجميع.

بناءً على هذا فإنّ أول ميزة وصفة لرفيق الدرب اللائق في مسير التعالي والقرب الإلهي هي الجديّة والسرعة، والتقدّم على الآخرين وسبقهم، وطرح الكسل جانبًا، والتصميم القاطع على قطع طريق التعالي والسموّ.

ب) الثبات والاستمرار في الحركة

الصفة الثانية لهؤلاء الأشخاص هي أنهم لا يفتأون يطرقون باب الله على الدوام. وهذا المعنى كنائي ويستعمل في المورد الذي يكون فيه الإنسان محتاجًا، ولرفع هذه الحاجة يقصد شخصًا ويطلب منه المساعدة.

وعبارة: «طرق باب شخص» كناية عن طلب المساعدة منه. والإنسان كلّ حاجة إلى الله، وليس لديه شيء من ذاته، وكل ما بين يديه هو إعارة من الله وأمانة وضعها بين يديه، وبملاحظة هذا الأمر وكذلك بالالتفات إلى أن احتياجات الإنسان مستمرة متزايدة يومًا بعد آخر، فإنه يجب عليه



أن يواصل الطلب من الله طالبًا عونَه ومساعدته، ويستعين به ويستمدُّ منه بكل وجوده. فمثلاً إذا واجه الإنسان مشكلةً بسيطةً فربما يذهب في يوم مرَّةً واحدةً إلى بيت صديقه لطلب العون، لكن إذا كانت الحاجة أشدَّ، فإنَّه سيذهب إلى بيت صديقه مرَّات أكثر، ولكن إذا كانت الحاجة شديدةً للغاية وكان الإنسان يواجه ضغوطًا كبيرةً بسببها فإنه يسعى إلى حلِّها بفارغ الصبر، ويسارع إلى طلب المساعدة من الآخرين، سعيًا إلى حلِّ مشكلته بأسرع وقت ممكن. مثل هذا الإنسان حاله حال المريض الذي تكون حياته في خطر، وسوف يموت إذا لم يُعالج بسرعة ولم يصل إليه الدواء المطلوب، فنجدَه يصرخ بكل ما أوتي من قوَّة طالبًا المساعدة، ويستنفر كل طاقاته لكي ينجو من الموت. أو الشخص الذي يواجه مشكلة في التنفُّس ويحتاج إلى الأوكسجين، وإذا لم يتوفَّر له الأوكسجين فإنَّ حياته ستكون في خطر، فإنَّه لن يفوِّت فرصةً لطلب مساعدة الآخرين، فنراه يطالبهم باستمرار بمساعدته وبأن يوفِّروا له الأوكسجين، ويسعى إلى أن يُنقذ حياته في أسرع وقت ممكن.

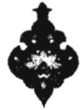
الشخص الذي سار في المسير الطويل لنيل القرب من الله، يعلم جيّدًا أنه في كل خطوة يخطوها مفتقر إلى مساعدة الله وعونه، وهو يطلب هذا العون باستمرار، وأن لا ينقطع عنه نظر الله والتفاته حتى لا يسقط في جهنم. أما نحن فحينما تتجلى الاحتياجات فينا - كالحاجة إلى الطعام، أو حاجة التلميذ إلى الأستاذ والدراسة، أو تبرز الاحتياجات الاجتماعية عند الإنسان - فإنَّنا من أجل توفير كل قسم من احتياجاتنا نراجع أشخاصًا يُمكنهم تلبية تلك الاحتياجات، لكن أحيانًا ننسى لأسابيع أو لأشهر أننا بحاجة إلى الله، وأننا يجب علينا أن نقصده أوَّلًا ليوفِّر لنا كل ما نحتاجه.



فالشخص الذي يُصاب بمرض، نراه يسأل كثيرًا من الناس عن طبيب جيد متخصص يمكنه تشخيص مرضه وعلاجه، وأحيانًا يطلب مرارًا وتكرارًا من يتوسَّط له بأن يوصي ذلك الطبيب بالاعتناء به، وقد ينتظر عدَّة أشهر لكي يحين موعد علاجه، ونراه دائمًا يلتفت إلى الأسباب والوسائل، ولكنَّه لا يخطر في باله أن يدعو ويتوسَّل إلى الله الغني المطلق كي يلبي حاجته ويشفيه من مرضه.

ولا غرو أنَّ الذين لا يعتقدون بالله لا يلجؤون إليه، إلا أننا نحن الذين نؤمن بالله ونؤدِّي الصلاة ونطيع الله، قد ننسى أن نلجأ إلى الله لتلبية احتياجاتنا. فنذهب عند مرضنا إلى الطبيب، لكننا نغفل عن الالتجاء إلى الله الشافي للآلام. أو حينما نسجِّل في المدرسة من أجل الدراسة، فإننا نذهب باستمرار إلى الأستاذ على طول فترة الدراسة التي قد تستمرَّ خمسة عشر عامًا أحيانًا، ولكننا ننسى في تلك الفترة الطويلة أننا في اكتساب العلم بحاجة إلى الله وأن علينا اللجوء إليه.

أما العباد السالكون، وهم الأسوة الحسنة، فإنهم في جميع الأحوال يقصدون باب الله، ويمدّون أيدهم إليه دائمًا طلبًا لعونه ومساعدته، ولا يرون شأنًا لغيره. ورغم أنَّ هؤلاء يأكلون الطعام حينما يجوعون، ويراجعون الطبيب حينما يمرضون، ومن أجل تلبية جميع احتياجاتهم يستفيدون من الأسباب الماديّة، غير أنَّ قلوبهم متَّجهة دائمًا نحو الله، ويرون أن جميع الأمور بيده، ويعلمون أن الله إذا أراد فإن الأسباب والعوامل سوف تؤثر، وإذا لم يُرد فإنَّها لن تؤثر، بل قد تُعطي أثرًا عكسيًا، كما أنَّ الطبيب قد يُخطئ أحيانًا في وصف الدواء مما يؤدِّي إلى إهلاك المريض. فأولئك قد تعلَّموا جيّدًا أن عليهم أن يقصدوا باب الله في كل حال ومن أجل أي حاجة، كما ورد في الحديث القدسي أن الله يخاطب



موسى عليه السلام قائلاً: «يَا مُوسَى سَلْنِي كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، حَتَّى عَلَفَ شَاتِكَ وَمَلَحَ عَجِينِكَ»^(١).

فيجب على الإنسان تقوية هذه القناعة لديه، وهي أن كل شيء من الله، وأن عليه أن يقصد باب الله في كل أموره واحتياجاته. وهذا لا يعني أن يترك الأسباب والوسائل، وأن لا يعمل بأوامر الله الواردة في الاستفادة من الوسائل والأسباب في كسب الرزق، والعلم، والصحة وغيرها؛ لأن الله سبحانه وفقاً لحكمته يُدير أمور هذا العالم عن طريق الأسباب. فالغرض هو أن يصل الإنسان إلى الاعتقاد بأن الله هو المؤثر في هذا العالم، وجميع العوامل إنما تؤثر بإرادته ومشئته.

ج) عبودية الله

الصفة الثالثة لرفاق السفر الصالحين هي أنهم يعبدون الله ليلاً ونهاراً، ولا عمل لهم سوى عبودية الله، وكل أعمالهم تصطبغ بصبغة العبودية، والعمل الذي يقومون به يجب أن يكون مرضياً عند الله. تناول الطعام، والنوم، والدراسة، وكل عمل آخر يؤدونه فإنه مصداق لعبودية الله: ينامون حتى يتهيؤوا للعبادة، ويتناولون الطعام حتى يتقووا على العبادة، ويعملون لكي يعيشوا حياةً كريمةً شريفةً وتتوفر لهم الفرصة لعبادة الله وعبوديته، فكل أعمالهم تكون بقصد التقرب إلى الله وعبوديته وكسب رضاه، وكلها تُعدُّ عبادة لهم.

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، الجزء ٧، الباب ٥، الصفحة ٣٢، الحديث ٨٦٣٤.



د) خشية الله والخوف منه

الصفة الرابعة هي أنهم يخشون الله في كل حال؛ لأن الله يُحِبُّ أن يخشاه عباده في كل حال.

كل شخص يقف أمام موجود في غاية العَظَمَة ويُدرك أنه أمام أي موجود يقف، فسوف تنشأ فيه حالة انفعالية تُسمَّى الهيبة أو الخشية، وهذه الحالة تقارن التلعثم حين الكلام، ورعشة اليدين والرجلين، وانخطاف لون الوجه، وسائر الانفعالات النفسِيَّة والجسمِيَّة الحاكِية عن أن الإنسان فقد السيطرة على نفسه. وكلما أدرك الإنسان عظمة الشخص الذي يواجهه والتفت إلى حقارة نفسه أمامه، فإن تلك الحالة ستكون أقوى وأشدَّ لديه. من هنا، فكلما ازداد إدراك الإنسان لعظمة الله وقدرته اللامتناهية، ازدادت هيبة الله وخشيته في نفسه.

لم يرد في القرآن الكريم مصطلح «الهيبة»، وإنما ورد فيه مصطلح «الخشية»، لكن وَرَدَ مصطلح الهيبة في الروايات والأدعية، ومنها ما وَرَدَ في هذه المناجاة.

ويبدو أن الهيبة هي نفس تلك الحالة التي عبّر عنها القرآن الكريم بـ«الخشية»، وقد بيّن سبحانه وتعالى حالة الملائكة وهم الذين يدركون عظمة الله إدراكاً سامياً بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْزُقَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾^(١).

إذاً فإن رَوَاد طريق القرب الإلهي، وحيث إنهم أدركوا مقام العظمة الإلهِيَّة اللامتناهي، تعتربهم حالة الخشية أمام تلك العظمة، ويشعرون بالحقارة تجاهها. وإذا أدرك الإنسان عظمة الله اللامتناهية، وأدرك ضآلة



ذاته هو وصِغرها، فسوف تعتريه حالة من الانفصال والخشية، وإذا لم يكن لدينا مثل هذه الحالة أمام الله، فما ذلك إلا لأننا لم نُدرِك طرفي المعادلة أو أحدهما؛ فإِما أننا لم نُدرِك حقيقة عظمة الله، أو أننا أدركنا عظمة الله لكننا لم نُدرِك حقارة أنفسنا وضآلتها. فأحياناً نشعر بالحقارة أمام السلطات والقوى الظاهرية، ونحن غافلون عن أن جميع هذه القوى مأخوذة من القدرة الإلهية اللامتناهية. وإذا أدركنا المعادلة السابقة بشكل صحيح وبخاصة في جانب ضعف وحقارة أنفسنا، وأدركنا أن جميع القوى ناشئة عن قدرة الله، فسوف تنشأ في أنفسنا حالة الخشية والهيبة حتماً. كما أن هذه الحالة كانت لدى المعصومين عليهم السلام - الذين نالوا أسمى وأرفع درجات المعرفة الإلهية - في غاية القوة والشدة، إلى درجة أنهم كانوا يسقطون على الأرض مغشياً عليهم نتيجةً لمشاهدة عظمة الله اللامتناهية وإدراك فقرهم الذاتي، وربما استمرت هذه الحالة لديهم حتى يظن المحيطون بهم أنهم فارقوا الحياة.

طريق إيجاد حالة الخشية أمام الله

طبعاً لا يمكننا أن نصل إلى مرتبة معرفة المعصومين عليهم السلام، لكن يجب علينا أن نخصّص وقتاً للتفكير في عظمة الله وحقارة أنفسنا وصِغرها. علينا أن نتأمّل في ماضينا، حينما كنّا صغاراً ضعفاء لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا، وحينما كان أحدنا نطفةً حقيرةً لا تُعد شيئاً وقد وقر الله لنا فرصة النمو، وتحوّلت تلك النطفة بالإرادة الإلهية إلى جنين ثم إلى طفل قطع مراحل النمو واحدةً تلو الأخرى، إلى أن أصبح أحدنا شخصاً بالغاً قادراً، كل ما يتوفّر بين يديه إنما هو من النعم الإلهية التي وضعت بين يديه أمانةً وعاريةً ليمتحنه الله بها. فهل بعد ملاحظة أننا كنّا في يوم ما نطفةً



لا أكثر، وكل ما حصلنا عليه هو من الله ونحن لا نمتلك شيئاً من أنفسنا، هل بعد هذا يمكن لأحدنا أن يتكبر ويفخر؟

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وَعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نُطْفَةً وَيَكُونُ غَدًا جِيفَةً»^(١).

كيف يمكن للموجود الذي كان يوماً قطرةً نتنة، ثم يتحول إلى ميتة عفنة تُزكم رائحتها الأنوفَ ما لم توارى التراب، أن يفخر؟ نحن أذلاء حقراء، إنما نكتسب العزة في ظل الارتباط بالله والانتساب إليه؛ ولهذا نقرأ في دعاء عرفة: «إِلَهِي كَيْفَ أَسْتَعِزُّ وَفِي الذُّلِّ أَرْكَزْتَنِي وَكَيْفَ لَا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي»^(٢).

حينما يدرك الإنسان أنه مخلوقُ الله، والمخلوق عبد الله وكله حاجة إلى الخالق بل هو فقيرٌ محضٌ، ووجوده عين الذلة والفقدان، فلا ينبغي له أن يفخر بنفسه.

والأثر الطبيعي للالتفات إلى الحقارة والذلة مقابل قدرة الله العظيمة اللامتناهية هو حالة تجاهل الذات والخشية.

ولا شك في أنَّ هذا الخوف ليس هو الخوف الذي يُعدُّ من رذائل الأخلاق، بل هو حالة تحدث للإنسان حين الإحساس بالفقر والخطر، ومواجهة عظمة الخالق، وتؤدي إلى أن لا ينحرف عن مسير عبودية الله؛ لذلك يجب على الإنسان أن يبذل جهوده في طاعة الله وعبوديته من أجل أن لا يُحرَم من النعم الإلهية، وأن لا تُسلب منه العناية الربانية.

(١) نهج البلاغة، الحكمة ١٢٦.

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء عرفة.



المقال الثاني والثلاثون رواد مسير القرب الإلهي (٢)

رعاية مستوى فهم الناس في البيانات القرآنية والحديثية

نفهم من فقرات مناجاة المريدين المتقدمة أن وراء الأمور المطلوبة والذات والرغبات الدنيوية التي يمكننا أن ندركها ونلاحظ أهميتها فنسعى لها سعياً حثيثاً، هناك نعماً معنوية وأخروية أيضاً أعلى وأسمى بكثير من النعم الدنيوية، بل لا يمكن مقارنة النعم الدنيوية بها. لكن بما أن الناس العاديين مقيّدون بقيود الطبيعة وعالم المادّة، وإدراكهم وأنسهم مشغول بالأمور الطبيعية والذات الدنيوية فهم لا يدركون النعم الأخروية اللامحدودة، إلا أن الله سبحانه بشّرهم بها من باب اللطف بعباده وعنايته بهم، وقد وصف سبحانه تلك النعم الأبدية بنحو يتسنى لعباده إدراكها وفهمها.

ومن الواضح أن الناس الاستثنائيين والمصطفين الإلهيين وهم الأنبياء والأئمة المعصومون عليهم السلام وأولياء الله يُدركون جيّداً نعمه سبحانه ومواهبه الأخروية والمعنوية اللامحدودة؛ لذا فهم لا تعلّق لهم ولا أنس بالأمور المادّية والدنيوية، وإنما هم يأنسون بعبادة الله والأمور المعنوية والأخروية.





ولو لم يبين الله وأولياؤه إلا المقامات العالية والمختصة بخاصة أوليائه، لما تيسر لأكثر الناس القدرة على الوصول إلى تلك المقامات العالية، ولما كان لهم القدرة على فهم تلك المقامات والمراتب، وحينئذ لن تتحقق لهم الدوافع لاتباع الأنبياء والسير في طريقهم.

فإذا قارنا مستوى فهم طفل ذي عامين، مع رجل كبير يبلغ أربعين عامًا، فلا ريب أن اختلاف الفهم والفاصلة بينهما أقل بكثير من مستوى اختلاف فهمنا عن فهم وإدراك المعصومين عليهم السلام. وبملاحظة هذه الحقيقة فإننا لا يمكننا فهم وإدراك طلبات الأئمة المعصومين ومناجاتهم الخاصة؛ لأنه باستثناء بعض الموارد النادرة التي تسنى لبعض الأشخاص التواجد مع المعصومين في مناجاتهم وخلوتهم ونقل شيء من تلك الأدعية والمناجاة لنا، فإننا لا نعلم شيئاً أكثر عن غالبية الأدعية والمناجاة الخاصة للمعصومين في خلوتهم مع الله تعالى. لكننا نجد أن الأدعية والمناجاة هي ذات جانب تعليمي ووردت من أجل تقديم القدوة للجميع، ومن هنا فقد روعيت فيها سهولة المطالب حتى يتمكن الجميع من فهمها، فتنشأ لديهم دوافع التقرب إلى الله ويحصل عامة الناس على التربية الإلهية في ظلها. وهذه هي المسألة ذاتها التي راعاها الحق تبارك وتعالى في تمثيلاته ووصفه للجنة ونعمها، فكانت جميع آيات القرآن بنحو يمكن لكل أحد الاستفادة منها بمستوى فهمه وإدراكه، وبالتالي فإن نور الهداية القرآنية يمتد شعاعه ليُغني جميع القابليات ويُشبعها، ولا تبقى قابلية خارج نطاق هداية معارف القرآن وأنواره.

وبملاحظة أن أكثر الأدعية والمناجاة فيها جانب تعليمي وتربوي، وقد روعيت فيها قابلية وفهم جميع الناس، وكذلك بملاحظة أنه تم فيها عرض كيفية سير روح الإنسان نحو الله سبحانه وتعالى، نجد الإمام



١٢٧



الراحل قُدِّسَتْ رُوحُهُ يقول: «قال مشايخنا: القرآن قرآن نازلٌ. هبط إلينا نزولاً، والدعاء يصعد إلى الأعلى، وهو القرآن الصاعد»^(١).

هذه الملاحظة اللطيفة في كلام الإمام الراحل تبين أن الأدعية والمناجاة تشتمل على معارف سامية وشاملة، ويجب علينا نحن الذين نتنسب إلى أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام أن نكون أكثر من يستفيد منها. ولا ينبغي أن تمضي علينا سنوات ولم تقع أعيننا فيها على الأدعية الواردة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام، ونحرم أنفسنا من فيض تلك العين النضّاخ بالمعرفة.

وقد روي عن الشيخ عباس القمي قُدِّسَتْ رُوحُهُ مؤلف كتاب مفاتيح الجنان أن هذا الكتاب كان برنامجه العملي، وقد كان ملتزماً بتلاوة جميع أدعية هذا الكتاب والاستفادة منها مراراً وتكراراً.

وحينما نظر إلى تلك الأدعية ندرك أنها تشتمل على مضامين سامية وعالية ومُثيرة للدهشة، وأن من المناسب العمل في مجال تلك المضامين العالية وأن تتم دراستها بالنحو اللائق والشامل، لكي يُقدّم هذا المنبع المعين للمعرفة، الذي ما يزال بكراً لم تمسه يد إلى الآن، ثماراً غنيّة ذات قيمة بين يدي الباحثين عن المعارف التوحيدية النقيّة.

(١) الإمام الخميني، صحيفة نور [صحيفة النور]، الجزء ١٣، الصفحة ٣٢.



التعريف بنعيم الجنة في القرآن

يقول الله سبحانه حول الجنة ونعيمها الخالد: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾^(١).

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾^(٢) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٣) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٤) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ^(٥).

وفي آية أخرى يتحدث القرآن الكريم عن نعيم الجنة وأعظم النعم وأكبرها هو نعمة الرضوان الإلهي قائلاً: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٦).

عناية الله ولطفه برواد مسير القرب الإلهي

استفدنا من الفقرات المتقدمة من مناجاة المريدين أن الإنسان لا ينبغي له أن يجعل هدفه الأساسي والأصلي هو النعم الدنيوية، بل ولا حتى النعم الأخروية العامة، بل عليه أن يكون هدفه الأساسي التقرب إلى الله، فإذا التفت الإنسان إلى هذا الهدف وأدرك لذة الأُنس بالله ومناجاته، فإن سائر النعم الأخروية سوف تفقد رونقها مقابل ذلك.

(١) سورة الرعد، الآية ٣٥.

(٢) سورة الزخرف، الآيات ٧٠ - ٧٣.

(٣) سورة التوبة، الآية ٧٢.



إن الوصول إلى هذا الهدف السامي بحاجة إلى همّة عالية وسعي حثيث، وكذلك يجب الالتفات إلى أنه يمكن الوصول إلى ذلك الهدف السامي عبر طرق خاصّة، ويجب السعي للعثور على أقصر تلك الطرق، لا أنه يمكن الوصول إلى القرب الإلهي عبر أي طريق يستحسنه الإنسان ويناسب ذوقه ومزاجه.

والملاحظة الأخرى هي أنه بعد معرفة طريق التقرب إلى الله، يجب على الإنسان أن يستمد - وسط الطريق - العون من الله باستمرار، وأن لا ينصرف نظره لحظة عن الله؛ لأنه لا يمكن قطع طريق التقرب إلى الله الصعب من دون الهداية والتوفيق الإلهي.

والملاحظة الأخرى هي أن على الإنسان - من أجل قطع ذلك الطريق - أن يقتدي برواد طريق التعالي والتكامل، وأن يعدّهم بمثابة أفضل رفاقه ويختارهم ليسير معهم، ومن هنا نجد الإمام السجّاد عليه السلام يبيّن لنا أفضل صفات هؤلاء كي يتيسّر لنا اختيارهم بعد معرفتهم. وهو عليه السلام بعد أن يذكر صفات رواد وقادة طريق القرب الإلهي، يبدأ بتعديد العنايةات الإلهية التي شملتهم فيقول:

«الَّذِينَ صَفَّيْتُ لَهُمُ الْمَشَارِبَ، وَبَلَّغْتَهُمُ
الرَّغَائِبَ، وَأَنْجَحْتُ لَهُمُ الْمَطَالِبَ،
وَقَضَيْتُ لَهُمُ مِنْ فَضْلِكَ الْمَآرِبَ، وَمَلَأْتُ
لَهُمُ صَمَائِرَهُمْ مِنْ حُبِّكَ وَرَوَيْتَهُمْ مِنْ
صَافِي شَرِبِكَ، فَبِكَ إِلَى لَذِيذِ مُنَاجَاتِكَ



وَصَلُّوا، وَمِنْكَ أَقْصَى مَقَاصِدِهِمْ
حَصَلُوا».

(أ) الورد إلى نبع الكمال والسمو

يشتاق الإنسان بطبعه إلى تلبية احتياجاته، فحينما يجوع يسعى إلى تلبية هذه الحاجة في أسرع وقت، وهذا بسبب الرغبة في إشباع تلك الحاجة، لكن بين هذه الاحتياجات الجسدية ربما لا توجد حاجة أهم وأشدّ ضرورة من الحاجة إلى الارتواء، فإن ألم العطش أشدّ من ألم الجوع، والإنسان بإمكانه تحمّل الجوع أكثر من تحمّل العطش؛ لذا سُمّي الماء بعنصر الحياة. وبملاحظة أهميّة نعمة الماء وأهميّة حاجة الإنسان إليه، وَرَدَ في الأمور المعنوية التعبير بمفردات من قبيل العطش، والمشرّب، ومنها ما ورد في كلام الإمام السجاد عليه السلام في مناجاته حيث يخبرنا عن صفاء مشارب الكمال الزلال التي وضعها الله بين يديّ رَوَاد طريق القرب الإلهي. فحين يسير الإنسان في طريق، فإنه يشعر بالعطش أثناء مسيره ويتجه إلى البحث عن الماء، وحينما يشاهد نهراً يجري لكن مياهه ممزوجة بالوحل فإنه يستمرّ في المسير سعياً للوصول إلى منبعه لكي يحصل على الماء الصافي الزلال النقيّ من التلوّث، ويتلذّذ بمشاهدة ذلك الماء الزلال ويروي به ظمأه.

وهكذا حال ورّوَاد طريق القرب الإلهي، فهم يبحثون عن ماء المعرفة الزلال، ويصلون إلى منبع المعارف التوحيدية النقية بفضل الهداية الإلهية، ويروون عطش أرواحهم بها، ويبرّدون حرارة قلوبهم ببرودة تلك المعارف الصافية.



١٣١



ويستفاد من جملة «صَفِيَّتْ لَهْم المِشَارِبِ» أن من يجب أن يكونوا قادة، وقدوة، ورؤادًا للإنسان في طريق التعالي والكمال هم الذي ارتووا من مشارب المعارف الإلهية الصافية الزلال. وفي الواقع فإن هذه الجملة فيها طلب ضمني يقول يا إلهي اهدنا إلى مشارب معارفك الصافية الزلال، وضع أيدينا بأيدي الذين هديتهم وطهرت قلوبهم من التلوّث، والكدر، والحيرة.

وإنّ زلال وصفاء المدخرات العرفانية والمعنوية لرؤاد طريق القرب الإلهي ناشئ عن رعاية الله وهدايته لهم، فهم حينما يعتمدون على الله فإنهم سيتعرّفون على الطريق بوضوح ويشاهدونه جليًا دون أن يعترى قلوبهم أي غموض أو تشكيك. فالغموض والتشكيك ناشئ عن تدخّل الأوهام الباطلة ووساوس الشيطان، لكن حينما يضعُ الله تعالى الحقيقة نقيّة واضحةً بين يدي الإنسان، فلن يبقى بعدها أي مجال للتردد والتشكيك.

إنّ من كان هدفه الدنيا كانت أهدافه ومقاصده دنيويّة، وكان بصدد إعداد الموائد المتنوّعة، والوصول إلى المنصب والمقام والبيت الفاخر. أما من كان هدفه أخرويّ ويتوخّى القرب الإلهي فإن أهم مقاصده وأهدافه ورغباته ستكون أخرويّة ومعنويّة أيضًا.

والاحتياجات التي يذكرها الإمام أخرويّة ومتناسبة مع الهدف السامي الذي يسعى له رؤاد مسير التعالي والكمال، وتؤدي إلى تسهيل الوصول إلى ذلك الهدف والتركيز عليه، لا المقاصد والاحتياجات الدنيوية التي تؤدي إلى الابتعاد عن ذلك الهدف، وقد تشغل الإنسان بنفسه وتعيقه عن هدف القرب الإلهي السامي.



ب) التمتع بمحبة الله الخالصة

١٣٢



المطلب الآخر الذي يشير إليه ﷺ هو أن الله سبحانه قد ملأ قلوب رؤاد مسير التعالي والقرب إليه بمحبته، فلا يوجد في قلوب هؤلاء سوى محبة الله، ومحبة أولياء الله ومن هم في شعاع المحبة الإلهية، ومحبة هؤلاء تُعدُّ تجلياً لمحبة الله، فلا يوجد في قلوبهم مكان لمحبة ما سوى الله.

نستفيد من كلام الإمام أن لكل شخص قابلية عاطفية واستيعاباً للعواطف والمحبة، وأن على الإنسان أن يسعى إلى إشباع هذا الاستيعاب ومثله، وأن لا يتركه فارغاً. ثانياً يجب على الإنسان أن يملأ استيعاب القلب ووجوده بمحبة الله والمظاهر والتجليات الإلهية، وأن يُبعد من قلبه محبة غير الله التي تُزاحم محبة الله وتعارضها، وتمنع من أداء الوظائف الإلهية، بمعنى أن لا يرى لمحبة غير الله أي أصالة، ولا يجعله في عرض محبة الله، فضلاً عن أن يقدم محبة غير الله على محبة الله؛ إذ إنه في هذه الصورة سوف تؤدي تلك المحبة الكاذبة إلى منعه من التعالي وعبودية الله، وأداء وظائفه.

يُشير الله سبحانه إلى الأمور التي عادةً ما تكون متعلّقة لمحبة الإنسان، وقد تُرجح محبتها على محبة الله، فتؤدي إلى عدم القيام بالتكاليف والوظائف الإلهية، ويذم الأشخاص الذين يرجحون محبة غير الله على محبته تعالى قائلاً: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١).



١٣٣



ج) إدراك لذة المناجاة ونيل المقاصد العالية

إِنَّ رَوَادَ طَرِيقِ الْكَمَالِ وَالْقَرَبِ الْإِلَهِيِّ هُمُ الَّذِينَ سَعَوْا لِلظَّفَرِ بِمَاءِ الْحَيَاةِ وَالْمَعَارِفِ وَالْكَمَالَاتِ التَّوْحِيدِيَّةِ النَّقِيَّةِ، وَقَدْ سَقَاهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ مَعِينٍ زَلَالٍ مَعَارِفِهِ وَكَمَالَاتِهِ، وَرَوَّى ظَمَأَ أَرْوَاحِهِمْ. وَمِنْ هُنَا يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَبِكَ إِلَى لَذِيذِ مُنَاجَاتِكَ وَصَلُّوا، وَمِنْكَ أَقْصَى مَقَاصِدِهِمْ حَصَلُوا».

وقد تم في هذا الكلام أيضاً التأكيد على هذا الأصل التوحيدي، وهو أن شيئاً لا يتحقق بدون الإرادة الإلهية، وأن الإنسان يعجز دون مساعدة الله وعونه عن أن يخطو في مسير التعالي والكمال، ولا يمكن له بدون العناية والتوفيق الإلهي نيل مقام النجوى مع الحق.

إِذَا فَطِئَ مَسِيرَ التَّعَالِيِّ وَالْكَمَالِ مَتَوَقَّفٌ عَلَى الْهَدَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَلَا يَذُوقُ الْإِنْسَانُ لَذَّةَ مُنَاجَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا فِي ظِلِّ تَوْفِيْقِهِ سُبْحَانَهُ. وَكَذَلِكَ بَعَوْنُ اللَّهِ وَمُسَاعَدَتُهُ يَنَالُ الْإِنْسَانُ التَّوْفِيقَ لَطَيِّ الْمَنَازِلِ وَالْمَقَاصِدِ فِي مَسِيرِ التَّكَامُلِ وَالْقَرَبِ الْإِلَهِيِّ، وَفِي ظِلِّ رِعَايَةِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ يَقْطَعُ مَسِيرَ مَرَاكِحِ السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ وَاحِدَةً تَلُو أُخْرَى، وَفِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ يَصِلُ إِلَى أَعْلَى مَقْصَدٍ وَهُوَ مَقْصَدُهُ النَّهَائِي، وَحِينَئِذٍ يَجِبُ عَلَى السَّالِكِ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ عَلَى تَوْفِيقِهِ لَهُ وَعِنَايَتِهِ الْمُتَوَاصِلَةِ بِهِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَسْجُدَ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ الْمَعْنَوِيَّةِ.



المقال الثالث والثلاثون لمحات من ألطاف الله وعنايته بعباده

استعراض المطالب المتقدمة

من خلال دراسة الفقرات المتقدمة من مناجاة المريدين نُدرِك أنّ - فيما عدا الأهداف التي يسعى عامة الناس إلى تحقيقها من المناجاة والدعاء - هناك هدفًا أسمى هو التقرب إلى الله تعالى، وهو ما يسعى أولياء الله وخاصة أحبائه للوصول إليه.

إنّ عامة الناس يرجون الوصول إلى المنافع وأنواع البهجة والسعادة التي عرفوا أمثالها في الدنيا وذاقوها، وكذلك يرجون الخلاص من عذاب الآخرة وآلامها التي يحترزون منها في الدنيا. ومن أجل الوصول إلى الثواب والجنة ونعيمها والنجاة من العقاب الإلهي وعذاب جهنم يبادر هؤلاء إلى تأدية بتكاليفهم، وهم في غفلة عن وجود هدف أسمى، يتمثل ببلوغ مقام القرب الإلهي، وهو الأمر الذي ينبغي أن يكون مطلوبًا بنفسه مقصودًا لذاته.

وفي هذا المجال نرى الإمام عليه السلام يعرف طلاب القرب الإلهي الذين يمتلكون إرادة ذلك القرب، ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف السامي





يطلبون من الله أن يهديهم إلى أقرب الطرق الموصلة إليه وأقلها خطرًا، لكي يصلوا إلى هدفهم الغائي في أسرع وقت ممكن.

الملاحظة الثالثة التي تم التطرق إليها في هذه المناجاة هي الاحتياج إلى القدوة والرائد من أجل السير والسلوك وطبي مسير التكامل الخطير والمليء بالمطبات والصعود والهبوط؛ ذلك لأن وجود القدوة يعد في أي حركة - وعلى وجه الخصوص الحركة المعنوية - أمرًا أساسيًا في نجاح الإنسان، فإذا ما حصل الإنسان على رفيق لائق وعارف بمسير الوصول إلى المعبود، فإنه سيطوي الطريق بسرعة وطمأنينة. ومن هنا يشرع الإمام عليه السلام ببيان أوصاف رواد مسير السير والسلوك ونيل القرب الإلهي.

دور الالتفات إلى الكرم والرحمة الإلهيين في نشوء دوافع العبودية

الملاحظة الرابعة التي كان الإمام يرمي إليها هي معرفة اهتمام المعبود وعنايته بالسالك في طريقه؛ لأنه بعد معرفة مسير ومقصد ورفاق طريق القرب الإلهي، إذا عرف الإنسان كيفية عناية الله واهتمامه به وأنه مشتاق إلى تقرب عبده منه، فسوف يزداد عزم السالك لطبي طريق القرب إلى الله ويشتد رسوخًا، وعلى هذا الأساس يبين عليه السلام هذه الملاحظة قائلاً:

«فَيَا مَنْ هُوَ عَلَى الْمُقْبِلِينَ عَلَيْهِ مُقْبِلٌ،
وَبِالْعَطْفِ عَلَيْهِمْ عَائِدٌ مُفْضِلٌ، وَبِالْغَافِلِينَ
عَنْ ذِكْرِهِ رَحِيمٌ رَوُوفٌ، وَبِجَذْبِهِمْ إِلَى
بَابِهِ وَدَوْدُ عَطُوفٌ».



١٣٧



يَصُوبُ الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من المناجاة النظرَ صوب صفات اللطف والعناية والإحسان الإلهي بعباده المطيعين، ورحمته ورأفته في حقِّ الغافلين. وَذِكْرُ هذه الصفات راجع إلى أن الإنسان إذا تكلم مع شخص ولم يعتنِ به فإنه سيشعر بأذى كبير، لكنه إذا علم أن ذلك الشخص الذي يخاطبه مهتم به وملتفتٌ إليه، بل إن رحمته ورأفته تشمل الغافلين عنه، وأنه يوفرُّ مقدّمات ووسائل جذب اهتمامهم إليه، ويخلق فيهم دوافع مضاعفة للاهتمام والحوار مع مثل هذا المُخاطَب، فإن معرفة عناية الله بعباده والاطلاع عليها توفرُّ الأرضية لإدراك تجليات صفات الجلال والجمال الإلهي، وتلعب دورًا مؤثّرًا في تقوية اندفاع حركة الإنسان نحو الله والوصول إلى القرب الإلهي.

ومن أجل أن نُدرِك المعاني السامية المرتبطة بالساحة الإلهية، ومنها عنايته ولطفه بالعباد، فنحن مضطرون إلى أن ننزلَ المطلب إلى مستوى أدنى، وهو مستوى العلاقات بين الأفراد العاديين، حتى يتسنى لنا من خلال ذلك تبيين النماذج التي يمكن فهمها، ونصلَ بالتدرّج إلى فهم المفاهيم والنماذج الأعلى والأدق. ومن هنا فإننا نتصوّر: إذا أراد الإنسان إنشاء علاقة مع شخص ما، فإن دافعه إلى ذلك قد يكون هو الاستفادة من ماله أو علمه، وقد يكون دافعه تمهيد الأرضية للوصول إلى الجاه والمقام، أو يكون دافعه الأُنس معه وإيجاد العلاقة الحميمة بينهما، وعلى كل حال، فإن عليه في سبيل ذلك أن يقوم بعمل يجذب انتباهه. فإذا أراد التلميذ أو الطالب الجامعي مثلاً جذبَ نظرَ أستاذه كي يستفيد منه بنحو أكبر، فعليه أن يُبدي سلوكًا أو حركةً يجعل الأستاذ بها محبًّا له وراغبًا في مقابلته. وقد يستطيع الإنسان بحركاته الأولى أن يستجلب انتباه الطرف المقابل، وحينها سوف يسهّل العمل لنفسه، وسرعان ما يصل إلى النتيجة المطلوبة.



لكن الإنسان قد يبذل أحياناً جهوداً تستمرّ سنوات طويلة كيما يلفت انتباه شخصٍ إليه. كشابٍ يريد أن يتزوَّج فتاة، ومن أجل أن يحصل على رضا الفتاة وأسرتها نجده يسعى مدّةً طويلةً وراء ذلك، بل نجده يوسّط أشخاصاً ويسعى إلى تلبية طلباتهم وإكرامهم حتى يصل إلى هدفه المنشود.

كما أن هناك في سائر الأمور الدنيوية موارد عدة نجد فيها الناس يبذلون جهودهم ويقضون وقتاً طويلاً ثم ينجحون في جلب نظر الآخرين والوصول إلى الأهداف المطلوبة.

لكن عظمة الله وعنايته ولطفه في حقّ الإنسان، تشمل الإنسان بمجرد الارتباط معه والالتفات إلى ذلك المعبود الذي لا مثيل له، فيشمل الإنسان بالفتاته وعنايته، وتنمحي عندها كل فاصلة بينه وبين الإنسان، ويستطيع الإنسان بكل سهولة الاختلاء معه والأنس به، ولا يوجد أي مانع من قبل الله أمام عباده. وما يحرم الإنسان من الارتباط مع الله هو الأنانيّة وهوى النفس ووساوس الشيطان لا غير، وإذا نجح الإنسان في الخلاص من هذه الموانع فسوف يتسنى له أن يرتبط بالله، وتبعاً لذلك سوف ينال عنايته ولطفه اللامتناهي.

وهل هناك قيمة أسمى من أننا نستطيع أن نتصوّر أن الله ذاته يدعونا إلى أعظم ثروة وجودية ألا وهي السعادة الأبدية والقرب منه، ويرشدنا إلى أقصر طريق للوصول إلى هذا الهدف السامي، ويزيل العقبات التي تقف أمامنا في هذا الطريق؟

من الصعب على غالبية الناس إدراك مقام القرب الإلهي والأنس بالله، وإذا استطاع المرء أن يدرك هذا المقام وعظمة الوصول إليه من خلال بذل الجهود وبناء الذات - بتوفيق الله طبعاً - ووجد هذا الهدف



١٣٩



أسمى وأقصى هدف له، وقام بمقارنة هذا الهدف بالأهداف الدنيوية، فحينئذٍ سوف يُدرك أن الوصول إلى مثل هذا الهدف وتحقيقه يستحقّ الجهد والتعب، حتى لو بذل من الجهود في سبيله مئات السنين، وهو الجهد الذي لا يستطيع القيام به عملاً.

إذاً فكما يتعب الإنسان من أجل الوصول إلى المقاصد الدنيوية، وكلّما كان المقصد أكبر سوف يزداد سعيه أكثر، فمن أجل الوصول إلى هذا الهدف الأخروي السامي القيّم يجب عليه أيضاً أن يبذل جهوداً كبيرة مضاعفة، وينبغي أيضاً أن يُنفق الإنسان عمره من أجل الوصول إلى هذا الهدف الرفيع، لكن الله رؤوف ورحيم إلى درجة أنه يُحب ارتباط عباده به والتفاتهم إليه، ويُريد - لأدنى سبب كان - أن ينشر رحمته فوق رؤوس عباده، فبمجرّد التفات العبد إليه وبأدنى جهد يبذله العبد للارتباط به سوف تشمله عنايته ولطفه سبحانه، ويجعله في أحضان إحسانه وإنعامه وفضله اللامتناهي.

والأسمى من ذلك أن رحمته تشمل أيضاً العباد الغافلين المنبهرين بزخرف الدنيا والأهواء النفسانيّة من الذين جذبتهم الدنيا إليها وأنساهم هوى النفس والغرور ووساوس الشيطان ذكر الله عزّ وجلّ.

أسباب وعوامل التوجّه والالتفات إلى الله

لقد وُفّر الله سبحانه مجموعتين من العوامل من أجل تنبيه الغافلين إلى مظاهر جماله وجلاله هما:

المجموعة الأولى: هي العوامل والأسباب التشريعيّة، ومنها إنزال الكتب السماوية - التي من جملتها القرآن الكريم - وإرسال الأنبياء الإلهيين.



المجموعة الثانية: العوامل والأسباب التكوينية، وهذه العوامل تتنوع وتنتشر في طيفٍ واسع بحيث قد لا يمكن معرفتها كلها، لكن بمساعدة إرشادات القرآن الكريم وكلمات أهل البيت عليه السلام يمكن الحصول على معرفة محدودة بهذه العوامل والقيام بتصنيف أنواع التدابير [والمخططات] الإلهية من أجل تنبيه العباد إليه.

ومن تلك التدابير الإلهية نذكر رشحات وتجليات لطف الله تعالى التي أودعها سبحانه في صميم الحيوانات والناس، وفي ظلّها تتكوّن العواطف والمودة فيما بينها. فإذا لم يسقط الإنسان في فخّ عبادة الذات والغرور، ولم يؤدّ الاهتمام بالذات الدنيوية إلى إماتة قلبه، وكان يتمتّع بقلبٍ حيٍّ خالٍ من القسوة، ووجدانٍ واعٍ، فإن وجود تلك العواطف والمحبة سوف تهديه إلى مبدأ الرحمة والرأفة الإلهية، وتكشف له حقيقة أن الله يُحبّ من عباده أن تكون قلوبهم مركزاً للمحبة والعطف بعضهم على بعض.

وإن أنقى وأصفى وأخلص وأعمق تلك العواطف هي عاطفة الأبوين ومحبتهم لأبنائهم، لا سيما محبة الأم وعاطفتها تجاه ابنها، ولو أن شخصاً ادّعى أنّ عدم وجود عاطفة الأم تجاه أبنائها يؤدي إلى انقراض البشرية، لما كان يقول جزافاً.

إنّ وجود ذلك العطف والمحبة هو أداة ووسيلة لإدراك ومعرفة حدود رحمة الله ورأفته اللانهائيتين، وفي ظل محبته لمخلوقاته وعباده أودع رشحةً من محبته في قلب عباده ومخلوقاته خاصة في قلب الأبوين ليتوفّر لهم الفرح والسرور، وتتوفّر المتطلبات الحياتية والعاطفية والروحية، ولا ريب أنّ التفكير والتأمل في عطف الأب والأم تجاه أبنائهم



يُرشد الإنسان إلى المحبة والعطف الإلهي اللانهائي، فيأخذ بشكر المعبود الذي ليس كمثله شيء.

سبب التوصية باحترام «الأب» و«الأم» و«الله» في كلام الله سبحانه

بملاحظة طريقيّة محبة الأب والأم لمعرفة محبة الله ونعمه اللانهائية، فقد جعل الله سبحانه شكره في مصاف شكر الأب والأم وأوصى الجميع بالالتزام بذلك حيث قال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي غَمَمَيْنِ أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾^(١).

إن السرّ التربويّ في التوصية بشكر الأبوين إلى جانب شكر الله في الآية الشريفة هو أنه إذا لم يعلم الإنسان قدر الأب والأم وغفلَ عنهما، ولم يقدّر بشكر الأب والأم اللذين يتواجدان قربهما باستمرار ويقومان على خدمته ومحبته، فإنه سينشأ على عدم الشكر، ولن يشكر الآخرين على أي نعمة تُوفّر بين يديه. فإن الالتفات إلى عواطف الأبوين ومحبتهم وسيلة وأداة لمعرفة محبة الله للإنسان والالتفات إلى لطف ومحبة المعبود الذي وضع راحةً من بحر اللانهائي في قلب الأم فكانت بذلك مستعدّة للتضحية بحياتها فداءً لابنها.

ولو أنّنا جمعنا محبة الأمّهات كلهن منذ بدء الخليقة إلى يوم القيامة فإنها لن تبلغ مقدار قطرة من بحر محبة الله اللامتناهية، وحينئذٍ فهل يليق بالإنسان أن لا يكون شكورًا قبال نعم الله ومحبته، وأن لا يؤدي وظيفة العبودية تجاهه؟

(١) سورة لقمان، الآية ١٤.



إِنَّ الأم - التي تسرّب إلى قلبها شيء يسير من محبة الله - حينما يقوم ابنها بعمل غير لائق - سيما إذا لم يكن هذا الخطأ والزلل ناشئاً عن العناد، بل عن الغفلة - لا تطرده ولا تبعده عنها، بل ستبقى تغمره بعطفها وحنانها، وتجذبه إليها... فهل يُتصوّر أنّ الله يحرم عباده الغافلين من محبته ولطفه وعنايته؟

الرحمة والمحبة بين الزوجين، إحدى تجليات الرحمة الإلهية

ومن النماذج والمظاهر الأخرى للمحبة الإلهية، المحبة والمودة بين الزوجين، قال سبحانه في ذلك: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

المحبة بين الزوجين علامة للمحبة الإلهية والتدبير الإلهي من أجل أن يمتلئ مركز العائلة بالمحبة والسكينة، وعبر هذا الطريق تستمرّ الأجيال الإنسانية، وترسخ بينهم المحبة والنقاء، وتتوفر الأرضية لتفتح القابليات والإمكانات؛ إذ في المحيط والأجواء المليئة بالمحبة والعاطفة الحميمة والمحيط الذي تسوده السكينة والطمأنينة تتفتح طاقات الإنسان وتتجلى قابلياته. ووجود هذه المحبة بين الزوجين - التي هي وديعة إلهية في فطرة الإنسان - إنما هو أداة للاتفات إلى محبة الله وعنايته بعباده، وبالرغم من تواجد مثل هذه المحبة - التي هي عامل أساسي لاستمرار الحياة وبقاء نسل الإنسان - لا ينبغي أن نغفل عن لطف المعبود ومحبه العظيمة، فرشة من محبته - تجلّت بعقد الزواج - أدّت إلى أن نشوء علاقة بين إنسانين ليس بينهما أية قرابة.



١٤٣



وكذلك المحبة بين الأصدقاء، وبين الأستاذ وتلاميذه، وسائر أنواع المحبة والعواطف القائمة بين الناس، كلها ذوات مناشئ فطرية، وكذلك فإن التدابير الإلهية للحفاظ على العلاقات بين الناس هي أداة للالتفات إلى مبدأ الرحمة والمحبة والعطف، وتدابير الله سبحانه هي من أجل اجتذاب الناس إليه.

تدابير الله المتوالية من أجل تنبيه الغافلين واجتذابهم

الإنسان - مع شديد الأسف - غافل عن هذه التدابير الإلهية، والتفاتته إلى النعم والمحبة السائدة بين الناس يشغله عن الالتفات إلى المنعم ومبدأ الرحمة والمحبة اللانهائية.

وإن الإنسان ليتمتع بالفهم والوعي لإكرام الأبوين والأشخاص الذين أحسنوا إليه واهتموا به فيكرمهم ويحترمهم، إلا أنه يغفل عن الله سبحانه الذي قرب القلوب بعضها من بعض، وجعل بينها المودة، والذي لا تزيد كل أنواع محبة الإنسان على قطرة في بحر محبته اللامتناهية.

وقد يصل الأمر بالمرء أحياناً إلى درجة أنه لا يقتصر على مجرد الاستفادة من النعم الإلهية والغفلة عن دورها كوسائط وآلات ينبغي له وعن طريق الاستفادة منها أن يُجذب إلى الله تعالى، بل نجد بعض الناس يهرب من ذكر الله، وتعتريه حالة من الخوف والفرار من ذكر الله، ويهرب من المجالس التي يُذكر فيها الله والعبودية والطاعة، ويشارك في المجالس التي تتوفر فيها فرصة التلذذ والتمتع المادي (لا شك في أنه لا حرج عليه فيما لو كانت في هذا المجلس لذات محللة ومشروعة، أما إذا كانت اللذات محرمة فحينئذٍ يستحق اللوم والذم على ارتكابها)، لكن الله لا يترك هؤلاء الغافلين لأنفسهم، فإن لم تنبهم آيات رحمة الله وعطفه



وتجذبهم إليه، فإن لدى الله تدابير وطرقاً أخرى لتنبيه عباده الغافلين واجتذابهم نحو رحمته لينتفعوا من الرحمة الإلهية واللفظ اللامحدود.

وما دام الناس ملتزمين بعهدهم في عبودية الله، ولم ينطفئ مصباح الإيمان في قلوبهم، فإن رحمة الله ومحبته سوف تشملهم، وسوف يزيل الله الغفلة عن قلوبهم وينبهم إلى أطفاه ورحمته اللانهائية، غير أنه إذا انطفأ نور الهداية في قلوبهم، وحل محل الكفر والعناد لله، فإن هؤلاء سيتجهون نحو محاربة الله وأوليائه، وسيشملهم الغضب الإلهي، وسيختم الله على قلوبهم وأبصارهم لكيلا يعثروا على طريق الهداية ويبقوا في ضلالهم وسقوطهم في مستنقع العصيان والكفر، حتى ينالوا العقوبة في الدنيا، ويبتلوا بعذاب القهر الإلهي في الآخرة، قال سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

نعم لا يترك الله عباده الغافلين لأنفسهم، بل يشملهم بلطفه وعنايته ورحمته اللامتناهية، ولا يحرمهم من ذلك.

أولئك الذين انخدعوا بمظاهر الجمال الدنيوية وسقطوا في مكائد خداع الشيطان يجدون المنصب والمقام ومحبة الناس أموراً مهمةً وذات قيمة عالية، ومن هنا يسعون لأن ينالوا مكانةً بين الناس، غافلين عن مسألة مهمة هي أنه يجب على الإنسان أن يكون محبوباً وعزيزاً عند المالك ومن بيده كل شيء، لا عند الذين هم مثله فقراء لا يملكون شيئاً. هؤلاء حينما لا تجذبهم آثار لطف الله ورحمته ومظاهر



١٤٥



الجلال والجمال الإلهي إلى رحمته اللامتناهية، ويبقون غارقين في الاهتمام بمظاهر الدنيا، ويمضون قُدماً في طريق لذات الدنيا، فإنهم سيقون بأمر الله وإرادته غارقين في هذا الطريق الخاطئ الذي اختاروه لأنفسهم، وسيصلون في نهاية المطاف إلى طريق مسدود، وستصطدم رؤوسهم بالصخور، ولأن نهاية طريق عبادة الدنيا والانحراف عن مسير الحق مسدود، ولا يوجد طريق يوصل الإنسان إلى المقصود سوى طريق الحق، فلعله يمكن حمل الآيات المرتبطة بضلال الغافلين عن ذكر الحق وحرمانهم من الهداية الإلهية على هذا الطريق الذي وضعه الله أمام الغافلين، لكي يلتفتوا في نهاية المطاف إلى رحمته، فمثلاً حينما يقول الله سبحانه في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١)، فالمقصود من الهداية في هذه الآية ليست هي الهداية الإلهية العامة؛ لأن المؤمن والكافر وكل العباد تشملهم هذه الهداية، بل المقصود هو الهداية الإلهية الخاصة، ونتيجة هذا الحرمان من الهداية الإلهية الخاصة هي وصول المرء إلى طريق مسدود، وفقدان المخرج، وحينها يدرك أنه كان يمشي في طريق الباطل، وأنه أمضى عمره في الضلال.

ونتيجةً لهذا التدبير الإلهي الذي يصل فيه الغافلون إلى ما يقارب اليأس والإحباط والفشل ويجدون جميع الأبواب مقفلة في وجوههم، وأن ليس هناك من يرشدهم ويهديهم السبيل، ونتيجةً لما تبقي من نور الإيمان في قلوب هؤلاء الغافلين، وفي قمة اضطرابهم ويأسهم من الوسائل والأسباب المادية، نتيجة كل ذلك وحينها فقط يوفر الله لهم الملجأ، وينقذهم من الهلاك الأبدي، ما يجعلهم يلتفتون إليه.



ويرسم لنا الله سبحانه هذا التدبير الإلهي قائلاً: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾^(١).

لعل المثل الذي يُشير إليه الله في هذه الآية الشريفة هو أكثر التجارب العينية والمحسوسة التي يواجهها الإنسان في حياته؛ إذ حينما يركب مجموعة من الناس في سفينة وسط بحر متلاطمة أمواجه مثل الجبال، ويواجه السفينة خطر الغرق، ولا يجد الركاب أي وسيلة للنجاة، فإنهم حينئذٍ يلجؤون لا شعورياً إلى الله، ويطلبون المساعدة والعون منه.

وفي الحياة اليومية يواجه كل واحد منا مواقف يبلغ فيها قمة الابتلاء، ويفقد الأمل بكل شخص وبكل شيء، ولا يجد شخصاً يمدُّ له يد المساعدة، وتجده في قمة اليأس والبؤس يتوجّه إلى الله فتبرق في قلبه بارقة الأمل والخلاص من الابتلاءات والمشاكل.

وبواسطة هذه التدابير المؤثرة يجتذب الله سبحانه عباده الذين انسدت كل الطرق في وجوههم، ويظهر لهم رحمته اللانهائية، وقد جاء في شعر فارسي:

خلق را با تو بد و بد خو کند
تا تو را نا چار رو آن سو کند
يُسيءُ إليك الخلق ويعاملونك بالسوء
كي يضطروك إلى الحركة في اتجاه آخر



١٤٧



نعم أحياناً يهيئ الله سبحانه الأوضاع بحيث إن الإنسان لا يحصل على أي نتيجة مهما طرق الأبواب وسلك الطرق، وفي نهاية المطاف وفي قمة اليأس والخيبة يصرخ «يا الله» ويطلب من الله أن يستنقذه. وفي تلك الظروف يكون بحاجة شديدة إلى رحمة الله ولطفه، ويدرك جيداً لذة لطف الله وعنايته. كما أن الإنسان إذا ما كان في غاية العطش فإنه يدرك جيداً طعم الماء العذب، ويلتذّ بشربه، أو كان يشعر بجوع شديد فإنه يشعر بطعم الأطعمة الشهية، ويلتذّ بتناولها. وكذا حين يكون في حاجة شديدة إلى المحبة، فإنه يفهم جيداً لذة المحبة والملاطفة، ويعرف جيداً قدرِ عناقِ العطف والمحبة.

إن الطفل الذي تغمره أمه بمحبتها دائماً، ولم يذق طعم الحرمان من العطف والمحبة يوماً، لن يدرك جيداً لذة المحبة والعطف، سيما الأطفال المشاكسون المدللون الذين كلما دُلُّوا أكثر زادت جساتهم وتمردهم، أما حينما يفقد الطفل العناية والاهتمام، ولا يجد شخصاً يهتم لحاله، فإنه سيشعر بالمهانة، وسيعرف عندها قدر المحبة، وسيفهم جيداً قيمة يد العطف والمحبة التي تمسح على رأسه.

ينقل العلامة الطباطبائي عن المرحوم آية الله السيد القاضي الطباطبائي: قد يبتلي الله عبداً من عباده بالمرض والمشاكل سنوات طويلة لكي يقول «يا الله» مرةً واحدة.

إذاً فهذا الالتفات إلى الله وما يستتبعه من نورانية تحصل للإنسان له من القيمة والفائدة ما يستحقّ من الإنسان تحمّل المصاعب والابتلاءات والآلام لسنوات مديدة، وبعد أن ييأس من كل شخص وشيء، يظهر في قلبه الالتفات والتوجّه إلى اللطف والرحمة الإلهيين.



المقال الرابع والثلاثون

مراتب القرب الإلهي ونماذج من مريدي الله

أهمية التأمل في الأدعية والمناجاة

تشتمل أدعية الأئمة الأطهار (عليهم السلام) ومناجياتهم على مضامين عرفانية ومعرفية شامخة، وقد كان دورها الذي لا بديل عنه في مجال النمو والسمو العلمي والمعنوي للإنسان سبباً لاهتمام البالغ بها من قبل علمائنا الكبار، وقد أنفقوا قسطاً كبيراً من وقتهم في تلاوة الأدعية والمناجيات والتدبر فيها.

ومن هؤلاء العلماء الكبار والشخصيات الإسلامية البارزة في العالم الإسلامي يمكن الإشارة إلى الإمام الخميني (رضوان الله تعالى عليه)، تلك الشخصية التي يُمكن القول عنها إنها شخصية لا مثيل لها في عصر غيبة الإمام الحجة (عليه السلام)، سواء في الجانب العلمي أو العملي، وهو الرجل الذي كان على معرفة تامة بجميع أبعاد الإسلام، وكان في أعلى مستويات التخصص في مختلف فروع العلوم الإسلامية من قبيل: العرفان، والفلسفة، والفقه، والأصول، وكان على معرفة تامة بالتعاليم الإسلامية في المجالات الفردية والاجتماعية، وقد بذل جهوداً جبّارة من أجل تطبيق تلك التعاليم.





إنَّ الأبعاد السياسية، والجهادية، والفقهية لهذا الرجل العظيم معروفة عند جميع المسلمين من علماء ومفكرين، وبخاصة قدرته القيادية التي تجلّت بشكل واضح للعدو قبل الصديق، لكن بعض أبعاد وجوانب شخصيّة هذا الرجل الكبير قلّمًا تم الالتفات إليها.

ومن أبعاد شخصية الإمام الراحل (رضوان الله عليه) التي قلّمًا جرى الحديث عنها وتداولها هو البُعد العرفاني واهتمامه الخاص بالأدعية والمناجيات الواردة عن المعصومين عليه السلام، والأهميّة الكبيرة التي كان يوليها لها.

وقد ذكّرَ في درس الأخلاق مرارًا وتكرارًا أنَّ أدعيّة الأئمة الأطهار عليهم السلام هي القرآن الصاعد، والقرآن هو الكلام النازل من قبل الله للعباد، والأدعية هي الكلام الجاري على لسان الأئمة الأطهار عليهم السلام التي ترتفع نحو العرش ونحو الله سبحانه وتعالى.

لقد خصّص هذا الرجل العظيم قدرًا كبيرًا من وقته - حتّى في أشدّ الظروف التي مرّ فيها - لتلاوة القرآن الكريم والأدعية. وكما شاهدنا في مقطع الفيديو الذي تمّ تصويره في أيّامه الأخيرة، فإن هذا القائد الفريد كان يُمضي وقته في تلاوة القرآن الكريم والأدعية رغم حالته الصحيّة الوخيمة والآلام التي كان يعاني منها، وفي ساعات صحوه لا يخلو حاله من أن يكون بين الصلاة وتلاوة القرآن والأدعية المأثورة.

مراتب التقرب إلى الله

بملاحظة أهميّة الأدعية والمناجيات الواردة عن المعصومين عليهم السلام والمعارف السامية التي تشتمل عليها، جعلنا محور بحوثنا هو المناجيات الخمس عشرة، وعند مواصلة تلك البحوث وخلال الجلسات الأخيرة



تطرقنا إلى مقاطع من مناجاة المريدين، وقد وَرَدَ في إحدى تلك الفقرات أن القرب إلى الله والوصول إليه هو الهدف النهائي للإنسان وهو أسمى وأعلى من كل سعادات الدنيا، بل هو أعلى من سعادات الآخرة ولذاتها؛ إذ هو الهدف الذي يحقق للإنسان - بعد أن يناله - رفع الموانع والحجب والحواجز بينه وبين الله، فيرى نفسه إلى جوار الله بشكل كامل، متواجداً في محضره.

إنَّ التقرب إلى الله كهدف أسمى له مرتبتان: المرتبة الدنيا من التقرب إلى الله، وهي طلب الانتفاع من المكانة التي هي من لوازم التقرب إلى الله. وفي هذه المرتبة يسعى الإنسان إلى التقرب إلى الله من أجل نيل الجنة وما فيها من نعم كما لَدَّ وطاب من أطعمة، وقصور، وأزواج مطهرة، وسائر النعم المذكورة في القرآن الكريم والروايات الشريفة. والواقع أنَّ المطلوب الأصلي للإنسان من هذه المرتبة ليس هو القرب الإلهي، بل المطلوب هو الوصول إلى تلك النعم، فهو يريد الله من أجل أن يوصله إلى تلك النعم، ويسعى إلى قربهِ وجلب رضاه من أجل ذلك، نظير الشخص الذي يبني علاقة صداقة مع شخص آخر من أجل أن يحصل على المنافع والمكانة التي تترتب على تلك العلاقة، وتلك الصداقة لا تعدو كونها وسيلةً وطريقاً له كي ينال منفعه ورغباته. لكن في مقابل هذا ثمة الشخص الذي يبني علاقة الصداقة استناداً إلى المحبة والرغبة في الصداقة، فهو راسخ في هذه الصداقة إلى درجة أنه ليس مستعداً للتفريط فيها حتى لو لم يحصل منها على أية منفعة؛ لأن هدفه الأساسي هو تلك الصداقة، وهو لم يجعلها وسيلةً لتحقيق المصالح والمنافع.

وقد ورد في بعض الروايات الإشارة إلى أنَّ محبة الله الخالصة والعارية عن الدوافع النفسانية والنفعية، هي الدافع السامي لعبادة الله،



قال الإمام الصادق عليه السلام في هذا الأمر: «إِنَّ الْعِبَادَ ثَلَاثَةٌ قَوْمٌ عَبْدُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَوْفًا فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ وَقَوْمٌ عَبْدُوا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى طَلَبَ الثَّوَابِ فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَجْرَاءِ وَقَوْمٌ عَبْدُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حُبًّا لَهُ فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ وَهِيَ أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ»^(١).

الأسوة اللانقة لمريدي الله في كلام الإمام السجاد عليه السلام

لم يجر في هذه المناجاة الحديث عن النعم العادية في الجنة، من قبيل حور العين، والقصور، وطعام الجنة، بل جاء الحديث عن القرب الإلهي، ورضا الله، واللقاء مع المعبود والأنس به، والالتذاذ بمناجاة الخالق، وجميع أنحاء الحُسن والجمال. فمن جهةٍ تُعرِّفنا هذه المناجاة بخواص عباد الله ذوي الهمم العالية، ومن جهةٍ أخرى تضع بين أيدينا أفضل أنموذج ومخطط للحياة السعيدة. والإمام عليه السلام ينبهنا إلى أَنَّ قِدْوَتَنَا وأفضل عباد الله ليسوا هم الذين هدفهم الوصول إلى نعيم الجنة، ويستعبدهم التلذذ بنعيم الآخرة الدائم، وإنما القدوة التي لا بديل عنها للباحثين عن الكمال والسمو هم الأشخاص الذين وصلوا إلى معرفة الله معرفةً نقيّة، وارتووا من زمزم صفات الجمال والجلال الإلهي. فلا هدف لهؤلاء سوى لقاء الله والأنس به، وحتى لو كان رضا المحبوب يتحقق في الحرمان من الجنة والاحتراق بنار جهنم، فإنهم يُضَحُّون بكل وجودهم ويتحمّلون لوازم رضا المحبوب مهما كانت.

ومن الواضح أَنَّ الخاضعين للمعبود يتمتّعون بأنقى وأسمى الفيوضات الإلهية والألطف الرحمانية. ولا شك في أن الله تعالى لن

(١) الكليني، الكافي، الجزء ٢، الصفحة ٨٤، الحديث ٥.



يضرِبهم بسوط قهره. وإنما الكلام في أنهم لا يُقدِّمون شيئاً على رضا المحبوب ولقائه، وقمة سموهم وكمالهم هي في وصال المحبوب.

ونحن بإمكاننا مشاهدة نموذج - وإن كان خفيفاً وباهتاً - لهذا الحب والعشق النقي في الحب الديني، وذلك في حب الأم لأبنائها، حيث إن وجودها مليء بمحبة نقية خالية من الطمع لأبنائها، وهذه المحبة ليست من أجل تحقيق ما ترجوه منهم، فحتى لو لاقَت من أبنائها معاملة سيئة فإن محبتها لهم لا تنقص، وعقوق أبنائها لا يؤثر في عطفها وحنانها عليهم.

أولئك الذين ذاقوا محبة الأم النقية لأبنائها، يمكنهم إدراك عظمة محبة أولياء الله للمعبود، الذين أطلق عليهم اسم المريدين، أي مريدي الله، في هذه المناجاة. تلك المحبة التي في ظلها يرى هؤلاء العباد انسداد جميع الطرق التي تنتهي إلى غير المعبود، فراحوا يطلبون من معبودهم ومحبوبهم أن يأخذ بأيدهم ويوصلهم عبر أقصر الطرق وأقلها خطراً وينيلهم فيض لقائه.

«أَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَنِي مِنْ أَوْفَرِهِمْ مِنْكَ
حُظًّا، وَأَعْلَاهُمْ عِنْدَكَ مَنَزَلًا، وَأَجْزَلِهِمْ
مِنْ وَدَّكَ قِسْمًا، وَأَفْضَلِهِمْ فِي مَعْرِفَتِكَ
نَصِيبًا، فَقَدْ انْقَطَعَتْ إِلَيْكَ هِمَّتِي،
وَانْصَرَفَتْ نَحْوَكَ رَغْبَتِي، فَأَنْتَ لَا غَيْرُكَ
مُرَادِي، وَلَكَ لَا لِسِوَاكَ سَهْرِي وَسَهَادِي،
وَلِقَاؤُكَ قَرَّةُ عَيْنِي، وَوَصْلُكَ مَنَى نَفْسِي،
وَالْيَكْ شَوْقِي، وَفِي مَحَبَّتِكَ وَلَهْيِي، وَإِلَى



هَوَاكَ صَبَابَتِي، وَرِضَاكَ بُغْيَتِي، وَرُؤْيُكَ
 حَاجَتِي، وَجِوَارَكَ طَلْبِي، وَقُرْبَكَ غَايَةَ
 سُؤْلِي، وَفِي مُنَاجَاتِكَ رَوْحِي وَرَاحَتِي،
 وَعِنْدَكَ دَوَاءُ عِلَّتِي، وَشِفَاءُ غُلَّتِي، وَبَرْدُ
 لَوْعَتِي، وَكَشْفُ كُرْبَتِي، فَكُنْ أُنَيْسِي فِي
 وَخْشَتِي، وَمُقِيلَ عَثْرَتِي، وَغَافِرَ زَلَّتِي،
 وَقَابِلَ تَوْبَتِي، وَمُجِيبَ دَعْوَتِي، وَوَلِيَّ
 عِصْمَتِي، وَمُعْنِي فَاقَتِي، وَلَا تَقْطَعْني
 عَنْكَ، وَلَا تُبْعِدْني مِنْكَ، يَا نَعِيمِي وَجَنَّتِي،
 وَيَا دُنْيَايَ وَآخِرَتِي، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

قمة نجوى روح العاشق الواصل مع معبوده

القسم الأخير من المناجاة ينتهي بما يشبه الغزل، ويتكلم ﷺ في نجواه مع الله بشكل رمزي طالباً منه أن يجعله في سلك رواد طريق الكمال والقرب منه، بل يطلب منه أن يمنحه منزلةً ومقاماً أعلى من أولئك، وأن يُنيله من مراتب عرفانه ومحَبَّته ما يفوقهم. وحينئذٍ - ومن أجل أن يبين حاله تجاه معشوقه ومعبوده - نراه يزيل ستارةً من قلبه العاشق الأسير للتجليات الرحمانية قائلاً: يا إلهي لقد انقطعت إليك همتي^(١)، ورغبتني منصرفاً إليك ومختصةً بك، فلا أرغب بسواك.

قد تتعلّق رغبة الإنسان أحياناً بشيء بالأصالة، فتكون رغبته بلوازم ذلك الشيء ومقدماته رغبةً بالتبع، أي يرغب فيها رغبةً فرعيةً ويتبع

(١) «الهمّة» هنا بمعنى العلاقة والرغبة والعزم والإرادة.



١٥٥



رغبته بذلك الشيء الأصلي، لكن أحياناً تكون رغبة الإنسان بشخص أو بشيء على درجة من الشدة بحيث تملأ عليه جنبات قلبه، فيكون كل اهتمامه متجهاً صوب المحبوب، وتكون محبته للآخرين والتفاتة إليهم في ظل محبة المحبوب، بمعنى أنّ محبة ما سوى المحبوب لا تكون حتى بمستوى المحبة التبعية للمحبوب، بل تكون محبة الإنسان والتفاتة متجهةً بشكل كامل نحو المحبوب فقط، وحينئذٍ تشعّ محبته على المقربين من المحبوب، فيقعون في شعاع محبة المحبوب.

ونحن في حياتنا العادية نهتمّ بأمور مختلفة، وليس تركيزنا واهتمامنا مختصاً بأمر واحد فقط، لكن الإمام عليه السلام يقول في كلامه الذي يشتمل على جانب تعليمي للآخرين: «فَقَدْ انْقَطَعَتْ إِلَيْكَ هِمَّتِي، وَأَنْصَرَفْتُ نَحْوَكَ رَغْبَتِي»، يعني: إنه عليه السلام نال مرتبةً من السمو والعلو والتقرب إلى الله بحيث لا يمكن لغير المعبود أن يتجلى له ولا أن يجذب قلبه، وبملاحظة هذه المرتبة من العلو والسمو والكمال يطلب من الله أن يجعل حظه من المعرفة والمحبة أكثر من الآخرين.

«فَأَنْتَ لَا غَيْرُكَ مُرَادِي، وَلَكَ لَا لِسِوَاكَ
سَهْرِي وَسُهَادِي، وَلِقَاؤُكَ قُرَّةُ عَيْنِي،
وَوَضْلُكَ مُنَى نَفْسِي، وَإِلَيْكَ شَوْقِي، وَفِي
مَحَبَّتِكَ وَلَهْيِي^(١)، وَإِلَى هَوَاكَ صَبَابَتِي،
وَرِضَاكَ بُغْيَتِي، وَرُؤْيُكَ حَاجَتِي، وَجَوَارِكَ

(١) «واله» و«وله» عنوان يُطلق على مرتبة من الحب، وفي هذه المرتبة يعيش العاشق حالةً من الحيرة والسكر، ويوجد أعلى من هذه المرتبة وهي ما يُطلق عليها «الهيام»، وفيها يعيش العاشق حالةً من الجنون والاحتراق تجاه معشوقه.



طَلَّبِي، وَقُرْبِكَ غَايَةُ سُؤْلِي، وَفِي مُنَاجَاتِكَ
رَوْحِي وَرَاحَتِي، وَعِنْدَكَ دَوَاءُ عَلَّتِي،
وَشِفَاءُ غُلَّتِي، وَبَرْدُ لَوْعَتِي، وَكَشْفُ
كُزْبَتِي. فَكُنْ أُنَيْسِي فِي وَحْشَتِي،
وَمُقِيلَ عَثْرَتِي، وَغَافِرَ زَلَّتِي، وَقَابِلَ
تَوْبَتِي، وَمُجِيبَ دَعْوَتِي، وَوَلِيَّ عِصْمَتِي،
وَمُغْنِي فَاقَتِي، وَلَا تَقْطَعْ عَنِّي عَنكَ، وَلَا
تُبْعِدْنِي مِنْكَ يَا نَعِيمِي وَجَنَّتِي، وَيَا دُنْيَايَ
وَأَخْرَتِي».



المقال الخامس والثلاثون أهمّية الحُب ومكانته (١)

نطاق الحُب ومراتبه في التعاليم الدينيّة

المفهوم المحوري والأساسي في مناجاة المريدين هو مفهوم الحُب الذي طُرِح من خلال مفاهيم من قبيل «الحُب»، و«الود»، و«الصبابة»، و«الهمة»، و«الرغبة»، و«الوصل»، و«الشوق»، و«الوله»، و«الهوى».

وثمة في اللغة العربية ما يقرب من عشرين كلمة موضوعة لمعنى «الحُب»، وقد وَرَدَتْ في هذه المناجاة تسع مفردات منها، وكل واحدة منها تدلّ على مرتبة من الحُب، ومصطلح «الحُب» لفظ عام وجامع لكل تلك المراتب.

وقد تمّ في الكثير من الأدعية والمناجيات الأخرى التطرّق إلى مفهوم الحُب ومراتبه والاهتمام بها، كما في مناجاة المطيعين، فقد تم التطرّق هناك إلى الحُب ومراتبه بتعابير أدبيّة متنوّعة، ومنها ما قاله عليه السلام: «وَأَوْرِدْنَا حِيَاضَ حُبِّكَ، وَأَذِقْنَا حَلَاوَةَ وُدِّكَ وَقُرْبِكَ».





وقد وَرَدَ في مطلع مناجاة المحيِّين - التي سنتطرق إليها في الجلسات الآتية - «إِلَهِی مَنْ ذَا الَّذِی ذَاقَ حَلَاوَةَ مَحَبَّتِكَ فَرَامَ مِنْكَ بَدَلًا؟».

أو في هذه المناجاة حيث يُشير ﷺ إلى مرتبة من مراتب الحُب وهي «الهیام»، وهي التي تحكي عن أعلى مراتب الحُب وحالات العشق والمحبة النارية؛ لأنَّ العاشق يصبح كالمجنون الهائم بمحبوبه ومعشوقه، «وَهَيِّمَتْ قَلْبَهُ لِإِرَادَتِكَ وَاجْتَبَيْتَهُ لِمُشَاهَدَتِكَ».

مراتب حُب الله الواجبة

(أ) الحُب الملازم للإيمان بالله

كثيرًا ما وَرَدَتْ في الآيات، والروايات، والأدعية والمناجيات الواردة عن أئمة الدين تعابير تحكي عن المحبة والعشق، وهنا يأتي هذا السؤال إلى الذهن، وهو: هل حُب الله أمر واجب بحيث يجب اكتسابه حتمًا، أو هو فضيلة ومستحب؟

ولكي أجيب عن هذا السؤال يتوجَّب أن أقول: إنَّ محبة الله لها مراتب مختلفة، وإحدى هذه المراتب ضرورية للإيمان، بمعنى أنه لا يمكن لشخص أن يؤمن بالله سبحانه دون أن يحمل في قلبه أي محبة له؛ ذلك أنَّ لازم الإيمان القيام بالعمل الصالح، ورغم أن مقولة العمل الصالح تغاير مقولة الإيمان، بيد أنه لا يمكن أن يكون المرء مؤمنًا من دون أن يطيع الله أو يقوم بالعمل الصالح.

والإيمان أمرٌ اختياريٌّ بشكل تامٍّ، خلافًا للعلم الذي يمكن أن يتحقَّق أحيانًا بدون اختيار، ومن هنا يقع متعلقًا للأمر الإلهي، كما في قوله



تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكِتَبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَالِكِتَبِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ ءَالْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(١).

في الآية الشريفة يأمر الله سبحانه المؤمنين أن يؤمنوا، ويتضح من هذا الأمر والتكليف الإلهي أن الإيمان أمر اختياري.

والملاحظة الأخرى في الآية الشريفة هي أنها تأمر المؤمنين بالإيمان وهم الذين آمنوا من قبل، فلماذا ذلك؟

في تفسير هذه الآية يقول العلامة الطباطبائي: «أمر المؤمنين بالإيمان ثانيًا بقرينة التفصيل في متعلق الإيمان الثاني أعني قوله ﴿بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكِتَبِ﴾ إلخ، وأيضًا بقرينة الإيعاد والتهديد على ترك الإيمان بكل واحد من هذا [هذه] التفاصيل، إنما هو أمر ببسط المؤمنين إجمال إيمانهم على تفاصيل هذه الحقائق فإنها معارف مرتبطة بعضها ببعض، مستلزمة بعضها ببعض، فالله سبحانه لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهي الموجبة لأن يخلق خلقًا ويهديهم إلى ما يرشدهم ويسعدهم ثم يبعثهم ليوم الجزاء، ولا يتم ذلك إلا بإرسال رسل مبشرين ومنذرين، وإنزال كتب تحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، وتبين لهم معارف المبدأ والمعاد، وأصول الشرائع والأحكام.

فالإيمان بواحد من حقائق هذه المعارف لا يتم إلا مع الإيمان بجميعها من غير استثناء، والردّ لبعضها مع الأخذ ببعض آخر كفر لو أظهر، ونفاق لو كنتم وأخفى، ومن النفاق أن يتخذ المؤمن مسيرًا ينتهي



به إلى ردِّ بعض ذلك، كأن يفارق مجتمع المؤمنين ويتقرَّب إلى مجتمع الكفار ويواليهم، ويصدِّقهم في بعض ما يرمون به الإيمان وأهله، أو يعترضوا أو يستهزؤون به الحقَّ وخاصَّته، ولذلك عقَّب تعالى هذه الآية بالتعرُّض لحال المنافقين ووعيدهم بالعذاب الأليم.

وما ذكرناه من المعنى هو الذي يقضي به ظاهر الآية وهو أوجه مما ذكره بعض المفسرين أن المراد بقوله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُونَ﴾: يا أيها الذين آمنوا في الظاهر بالإقرار بالله ورسوله آمنوا في الباطن ليوافق ظاهرهم باطنكم. وكذا ما ذكره بعضهم أن معنى ﴿ءَامِنُونَ﴾ اثبتوا على إيمانكم، وكذا ما ذكره آخرون أن الخطاب لمؤمني أهل الكتاب أي يا أيها الذين آمنوا من أهل الكتاب آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله وهو القرآن^(١).

الإيمان بالله بمعنى الالتزام بالربوبية الإلهية، ولزم القبول بالربوبية الإلهية هو إطاعة الله. إذاً فإذا ادَّعى شخص الإيمان لكنَّه تمرَّد على أوامر الله، وترك أداء الواجبات وارتكب المحرَّمات، فإن هذا يكشف عن كذب إيمانه.

وكذلك هناك مرتبة من الحُبِّ تُعدُّ من لوازم الإيمان بالله. ولا يمكن أن يكون الشخص مطيعاً لله ويرى أنه ولي نعمته وأنه مفتقر إليه من قَمَّة رأسه إلى أخمص قدميه، وهو لا يحبه. فكيف يمكن للإنسان أن يُحبَّ نفسه، لكنَّه لا يُحبَّ خالقه وهو الذي وَهَبَ له الوجود؟ إذاً فهذه المرتبة من الحُبِّ من لوازم الإيمان بالله، ولا يلزم أن يتعلَّق بها تكليف مستقل، فنفس ذلك التكليف المتعلَّق بأصل الإيمان، يتعلَّق بلوازمه أيضاً

(١) العلامة الطباطبائي، تفسير الميزان، الجزء ٥، الصفحة ٦٤.



ومنها الحُب، والنتيجة هي أن الشخص حتى لو كان في مرتبة ضعيفة من الإيمان بالله فإنه سيكون له مرتبة من الحُب وإن كانت ضعيفة.

ب) الحُب يُلازم العمل بالتكاليف الإلهية

هناك مرتبة من الحُب لله واجبة على الأقل بالوجوب العقلي من باب مقدّمة الواجب، وهي الحُبّ الباعث على أداء الواجبات وترك المحرّمات، ومطلوبية هذا الحُبّ ذات بُعد آلي ومقدّمي.

توضيحه: إنّ للإنسان رغبات متنوّعة، وقد تتزاحم هذه الرغبات مع بعضها في مقام العمل، وترجيح بعضها متوقّف على أن يرى الإنسان أنها أهمّ من سائر الرغبات ومطلوبة بنحو أكبر من غيرها. وبملاحظة التزاحم بين الرغبات تُطرح مسألة التكليف والاختيار، والنتيجة هي أنه حينما تتزاحم لذّات الدنيوية الآنية مع لذّات الآخرة الأبدية، فإن رجح الإنسان لذّات الدنيا المؤقّتة والآنية، وغلبت لديه محبة الدنيا على محبة الله والآخرة، فإنه في الآخرة سيكون محروماً من الانتفاع من الرحمة الإلهية، وسوف يُحرّم من نتيجة وثمرات محبة الله التي تحصل في ظلّ إطاعة الأوامر الإلهية وذلك بسبب ترجيح محبة الدنيا ولذّاتها على محبة الله. ومثال ذلك حينما يكون نوع من الطعام مضرّاً للإنسان بسبب مرضه، لكنه يُحبّ هذا الطعام بشدّة ويريد أن يلتذّ بتناوله، كما أنه يُحبّ صحّته أيضاً، فهو يقف أمام اختيار أحد هذين الأمرين: الأوّل ترجيح لذّة السلامة والصحة الذي سيمنعه من تناول الأطعمة الضارة، والثاني ترجيح لذّة الطعام وغضّ النظر عن السلامة والصحة.

وفيما يرتبط بأحكام الدين أيضاً فقد تتزاحم الأحكام والتكاليف الشرعيّة مع رغبات الإنسان. مثلاً الصوم يحتمّ أن يترك الإنسان الطعام



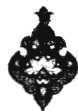
والشراب وبعض الرغبات الأخرى، والصيام واختيار القيام بالواجب الإلهي يتوقّف على أن يُحِبَّ الإنسان الله والآخرة أكثر من اللذات الأخرى في حالة التعارض بينها؛ لأن الإنسان إذا لم يكن يُحِبُّ الله والآخرة، أو كانت محبته لله والآخرة أقل من حبه للأمور الأخرى، فإنه سوف يفطر ويرجّح لذات الدنيا الحاضرة على لذات الآخرة الآجلة [بحسب الظاهر].

إن ارتكاب المعصية يعني أن الإنسان العاصي يُحِبُّ شخصاً أو شيئاً أكثر حبه لله، وإلا فلو كان حبه لله أكبر من حبه لغير الله لكان أطاع أوامره.

وإطاعة أمر الله تؤدّي إلى القرب منه، ولا يوجد مُحِبٌّ لا يرغب في قرب محبوبه. إذا فالمُحِبُّ يسعى دائماً نحو تقوية علاقته بمحبوبه، ويتجنّب كل عمل من شأنه أن يبعده عن محبوبه. فمعصية الله ناشئة عن قلة حُبِّ الإنسان لله، وعلى الأقل عن كون الإنسان غافلاً وغير ملتفت إلى أنه يلزم من حُبِّ الله ترك المعصية. وعليه فذلك المقدار من الحُبِّ لله الذي يؤدّي إلى قيام الإنسان بأداء الواجبات وترك المعاصي، هو واجب على الأقل بالوجوب العقلي من باب مقدّمة الواجب، وهناك آيات وروايات كثيرة في هذا المجال، منها إخباره تعالى عن علاقة الحُبِّ بين المشركين والأشخاص أو الأشياء التي جعلوها شركاء لله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾



١٦٣



على أساس هذه الآية الشريفة فإن حُبَّ المشركين للأصنام إذا لم يكن أكثر من حُبِّ الله، فهو لا أقل مساوٍ له، ويقع بين هاتين المحبتين - باعتبار أن لهما متعلّقين متضادّين - تراحم، وبما أن القوتين المتساويتين - اللتين تتحرّك كل واحدة منهما في اتجاه يعاكس اتجاه الأخرى - تؤدّي حركتهما هذه إلى الاحتكاك والسكون فتكون مانعة من الحركة.

وعليه فإن لازم الإيمان بالله هو أن تكون محبة المؤمن لله أكبر من محبته لسائر المحبوبين، ويجب على المؤمن السعي لتحصيل هذا المقدار من الحُب الذي يؤدّي إلى القيام بالواجبات وترك المحرّمات.

وفي آية أخرى يخبرنا الله سبحانه عن العلاقة بين حُبِّ غير الله وتجاوز الأوامر الإلهية: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١).

في هذه الآية الشريفة يُشير الله سبحانه إلى أمور غالبًا ما يحبّها الإنسان، وقد تغلب محبتها - أحيانًا - على محبة الله ومحبة الرسول ﷺ، والجهد في سبيل الله؛ ذلك أنّ الشخص الذي يجاهد في سبيل الله، يجب عليه أن يترك أباه وأمه، وأبنائه وأقاربه، وأن يترك عمله وكسبه، وترك كل هذه الأمور إنما يتيسر فيما لو كان حُبَّ الله والجهد في سبيله أقوى وأشدّ من محبة هذه الأمور والتعلّق بها، وإلا فإن الإنسان لن يكون مستعدًا لترك ارتباطاته وعلاقاته والأمور التي يُحبّها - من ثروة



وأقارب - ويذهب إلى الجهاد في سبيل الله معروضاً حياته للخطر. وحينئذ يهدد الله المسلمين بأنه إذا كانت محبة الزوجة، والأبناء، والأقارب، وسائر الأمور المذكورة في الآية، أشد من محبتهم لله ولرسوله ﷺ والجهاد في سبيله والدفاع عن الدين الإلهي، فإن الله لن يترك دينه وحيداً، وسوف يحقق إرادته المبنية على حاكمية الدين الإلهي واتباعه وتدارك النقص الحاصل بسبب تقصيرهم في الدفاع عن الدين، كما يهدد الذين تجاوزوا الأوامر الإلهية، وفضلوا محبة غير الله على محبته سبحانه بعذاب شديد.

وأحد نماذج هذا العذاب الإلهي لهؤلاء أنهم يدخلون في زمرة الفاسقين، وأنهم لن يصلوا إلى أهدافهم ورغباتهم، فرغم أن التعلق بالرغبات الدنيوية هو الذي أدى إلى عصيانهم الأوامر الإلهية، إلا أن الله سبحانه سوف يفسلهم في الوصول إلى أهدافهم ويمنعهم من تحقيقها، والنتيجة هي تعاستهم في الدنيا، وسوء العاقبة الذي ينتظرهم في الآخرة، حيث سيُحرمون في الآخرة من السعادة والرضوان وسيبتلون بالعذاب الإلهي.

المراتب المستحبة لحُب الله

بغض النظر عن كون حُب الله من لوازم الإيمان بالله وكونه واجباً لذلك، وبغض النظر عن ما قيل من كون ذلك المقدار من الحُب الباعث على أداء الواجبات وترك المحرمات واجباً على الأقل بالوجوب العقلي من باب كونه مقدّمةً للواجب، بغض النظر عن كل ذلك فإن حُب الله بما يزيد عن هاتين المرتبتين مستحبٌ ويشتمل على فضيلة، وهو المقدار من الحُب الباعث على فعل المستحبات وترك المكروهات والمشتبهات، بل يؤدّي في بعض الموارد حتى إلى ترك بعض المباحات. ولهذا الحُب مراتب كثيرة ومن الصعب تحديد مراتبه.



١٦٥



ونافلة القول هي أنه بغض النظر عن نصاب الإيمان الذي يجب على الجميع تحصيله، وكذلك تحصيل الحُب الذي هو من لوازم الإيمان، وكذلك الحُب الباعث على ترك المحرمات وأداء الواجبات، فإن الإيمان - وبموازاته الحُب - لهما مراتب أسمى وأكمل، وقد أشارت بعض الآيات والروايات إلى المراتب العالية والكاملة للإيمان. ورسالة هذه الآيات والروايات هي أنه إنما يصبح الإيمان كاملاً وخالصاً حينما تصبح محبة الإنسان لله أكثر من محبته لكل ما سوى الله، وإلا كان الإيمان غير خالص واختلط بالشرك، وأنه كلما ازدادت محبة الإنسان لله، اشتد إيمانه وصار أشد خلوصاً وكمالاً، وازدادت مراتبه في الإيمان، قال الإمام الصادق عليه السلام في بيان العلاقة بين مراتب الإيمان وحُب الله: «لَا يَمَحُضُ رَجُلٌ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَبِيهِ وَأُمِّهِ وَوَلَدِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَمِنْ النَّاسِ كُلِّهِمْ»^(١).



مظاهر من الحُب الخالص لرسول الله

في هذا المجال تنقل لنا المصادر الروائية قصةً جميلةً ونافعةً حول سلوك فتى - لم يبلغ الحلم - مع رسول الله ﷺ بطريقة رائعة مليئة بالحُب والمودة وهي:

سَلَّمَ عَلَيْهِ غُلَامٌ دُونَ الْبُلُوغِ بَشَّرَ لَهُ وَتَبَسَّمَ فَرَحًا بِالنَّبِيِّ ﷺ.

فَقَالَ: أَتُحِبُّنِي يَا فَتَى؟ فَقَالَ لَهُ: إِي وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَقَالَ: مِثْلَ عَيْنَيْكَ؟ فَقَالَ: أَكْثَرَ.

فَقَالَ لَهُ: مِثْلَ أَبِيكَ؟ فَقَالَ: أَكْثَرَ.

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٧٠، الباب ٤٣، الصفحة ٢٥، الحديث ٢٥.



فقال: مثل أَمَك؟ فقال: أَكْثَر.

فقال: مثل نَفْسِكَ؟ فقال: أَكْثَر واللّهِ يا رسول الله.

فقال: مثل إِلَهِكَ؟ فقال: الله، الله، الله يا رسول الله، ليس هذا لك ولا لِأَحَدٍ، وَإِنَّمَا أُحِبُّنُكَ لِحُبِّ اللّهِ.

فالتفت النبي ﷺ إلى مَنْ كَانَ مَعَهُ، فقال: هكذا كونوا، أُحِبُّوا اللّهُ لِإِحْسَانِهِ إِلَيْكُمْ وَإِنْعَامِهِ عَلَيْكُمْ، وَأُحِبُّونِي لِحُبِّ اللّهِ^(١).

تأملوا إلى أي مرتبة من المعرفة الدينية كان الناس قد وصلوا في زمان رسول الله ﷺ، وكيف أَنَّهُمْ كانوا تحت تأثير التربية الإسلامية بحيث إن فتى لم يبلغ الحلم يصل إلى هذا المستوى من المعرفة والوعي، حتى تكون نظرته إلى رسول الله ﷺ حاكيةً عن عشقه ومحَبَّته له ﷺ، وحينما يخاطبه رسول الله ﷺ بعنوان «فتى = مراهق» إعراباً عن احترامه له وتكريمه إياه ويسأله: هل تحبني مثل عينيك؟ يعني إذا كان الأمر يدور بين أن أتضرر أنا وتسلم عينك، أو تتضرر عينك وأسلم أنا فأيهما ترجح؟ فإن ذلك الفتى المتأثر بالتربية الإسلامية يجيب قائلاً: إني أحبك أكثر من عيني. يعني إذا كان شرط سلامتك أن أفقد عيني، فأنا مستعدٌ للتضحية بعيني حباً لك ومن أجل سلامتك.

والعجيب هو أنه حينما يسأل النبي ﷺ ذلك الفتى قائلاً: هل تحبني مثل إِلَهِكَ؟ يتعجب ذلك الفتى ويجيب رسول الله قائلاً: ليس هذا لك ولا لِأَحَدٍ، وَإِنَّمَا أُحِبُّنُكَ لِحُبِّ اللّهِ. وحينئذ يلتفت النبي ﷺ إلى مَنْ



كَانَ مَعَهُ قَائِلًا لَهُمْ: هَكَذَا كُونُوا. أَحِبُّوا اللَّهَ لِإِحْسَانِهِ إِلَيْكُمْ وَإِنْعَامِهِ عَلَيْكُمْ، وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللَّهِ.

ضرورة ترجيح حُب الله على حُب غيره

نعم، لا ينبغي أن يكون حُب الله أقل من حُب غيره أو مساويًا له، بل يجب دائمًا أن يكون حُب الله أكثر من حُب غيره، إلى درجة أن يصبح الإنسان مستعدًا لأن يُقاتل أعداء الله في سبيله، وأن يضحي بحياته في مسير محبة الله، مع العلم بأن هذا الحُب ليس هو المرتبة الأعلى من حُب الله، بل هي أعلى بقليل من مقدار الحُب الضروري للإيمان بالله.

ثم نصل إلى مرتبة يسعى فيها الإنسان إلى أن يأتي بما يريده الله من المستحبات أيضًا، وإذا طلب منه الرفيق، أو الشريك، أو الابن طلبًا يتنافى مع العمل المستحب، فإنه - ومن صميم قلبه - سيرجح ما يريده الله والتكليف المستحب على ما يريده الآخرون.

وإذا طَلَبَ الله من الإنسان، في بعض الموارد، أن يصرف النظر عن التكاليف غير الإلزامية من أجل جلب رضا الآخرين وتلبية طلباتهم، فإذا استجاب الإنسان في هذه الموارد لطلب الآخرين إطاعة لإرادة الله، وترك القيام بالتكاليف غير الإلزامية، فإن دافعه يكون إلهيًا بحيث قام بتلبية رغبات غير الله بدافع محبته لله، فهو في هذه الصورة يكون قد رجح حُب الله على حُب غيره.

وعلى هذا الأساس وَرَدَت كثير من الروايات تقول إن الإنسان إذا كان صائمًا صومًا مستحبًا، ودخل على شخص فطلب منه صاحب البيت أن يتناول الطعام معه، فلو أفطر من أجل إدخال السرور على صاحب البيت، فإن الله سبحانه سوف يعطيه ثوابًا أكثر من ثواب الصوم المستحب،



وسبب ذلك هو تقديم رغبات المؤمن على التكليف الإلهية غير الإلزامية. وقد وَرَدَ في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ دَخَلَ عَلَى أَخِيهِ وَهُوَ صَائِمٌ فَأَفْطَرَ عِنْدَهُ وَلَمْ يُعْلِمْهُ بِصَوْمِهِ فَيَمُنَّ عَلَيْهِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ صَوْمَ سَنَةٍ»^(١).

وإذا قدّم الإنسان رغبة الزوجة أو الأبناء على التكليف غير الإلزامي من جهة المصالح التي يريدها الله سبحانه، أو تُقدّم الزوجة رغبة الزوج على القيام بالمستحبات وكان دافعها من ذلك هو طاعة أوامر الله سبحانه، فإن الله سوف يعطيها ثوابًا أكثر؛ لأن الإنسان بهذا العمل يكون قد أدّى صلة الرحم وإسعاد المؤمنين، وفضيلة هذا العمل عند الله أكثر من القيام بالمستحبات.

رسم معالم حُب الله بالذات وبالعرض

إن الوصول إلى أعلى مراتب حُب الله أمرٌ في غاية الصعوبة، ومن أجل معرفة تلك المرتبة العالية من الحُب لله فإننا بحاجة إلى بيان مقدّمة وهي: قد يكون نظر الإنسان متّجهاً نحو نعم الله مثل الزوجة، والأبناء، والبيت، والطعام، والشراب، وبما أن هذه النعم تلبي احتياجاته فإنه يحبّها. إذا فحبّه بالذات وبالدرجة الأولى يتعلّق بالنعم الإلهية. وحينئذٍ فحينما يفكر بأن الله منحه زوجةً سالحةً، وبيتًا مناسبًا، ومنحه مكانةً اجتماعيةً جيّدةً ووَقَّرَ له سائر النعم، فإن حبّه سيّجّه نحو الله أيضًا.

فحبّه في هذه الحالة يتعلّق في البدء بالنعم الإلهية، ويتعلّق تبعًا لها بالله أيضًا، لأنه هو الذي وهبها له، ولو أن الله لم يمنحه هذه النعم

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، الجزء ١٠، الباب ٨، الصفحة ١٥٢، الحديث ١٣٠٨٧.



أو لم يلتفت ذلك الشخص إلى حقيقة أن تلك النعم من هبات الله إليه، فإن ذلك الحُب لله لن يتحقق فيه، لكن حينما يتحقق حُب الله بواسطة حُب النعم وتبعاً لها، فإن حُب الله سيتغلب على تلك الأمور، ومن هنا ففي مقام التزاحم بين حُب الله وحُب نعم الله، فإن حُب الله وما يريده مقدّم على حُب غير الله ورغباته. فحُب الله في الفرض المذكور تابع لحُب الخلق، لكن بعد استقرار حُب الله في القلب، فإن حُب الله وما يريده سوف يُقدّم على حُب الآخرين وما يريدونه.

ولا شك في أن الوصول إلى هذه المراتب من الحُب لله مهمّ ونفيس، أن يتذكّر الإنسان الله سبحانه حينما تتوفّر نعمة بين يديه، ويلتفت إلى أن الله هو من سخّر له هذه النعمة، ويفكر مع نفسه أن ولي النعمة ومن وضع هذه النعمة بين يدي الإنسان أولى وأجدر بالحُب من النعمة نفسها؛ لأنّ تلك النعمة يمكن زوالها، بل سوف تزول في يوم ما، لكن المنعم وولي النعم دائم البقاء، وهو يسخر للإنسان نعمةً أخرى أيضاً.

لكن المرتبة الأعلى لحُب الله هي أن يفكر الإنسان بصفات كمال الله، وعلى أساس فطرته التي أودع فيها السعي نحو الكمال وحبّه، فإنه يحبّ الكمال؛ ولذا فسوف يُحبّ حتماً صاحب الكمال المطلق أي الله سبحانه وتعالى. وشرط الوصول إلى هذه المرتبة التي يتعلّق فيها حُب الإنسان بالله بالذات هو أن يعرف الإنسان كمال الله اللانهائي. وحينما يُحبّ الله وصفاته الجلالية والجمالية، فإنه سوف يُحبّ مخلوقات الله من حيث إنها مظاهر الكمال والجمال الإلهي، وفي هذه المرتبة تكون محبة الإنسان للمخلوقات تابعةً لمحبة الله عزّ وجلّ.



إنَّ أعلى مراتب حُبِّ الله هي أن يرى الإنسان أن جميع الكمالات هي لله، ولا يرى وراء الكمالات الإلهية أي كمال مستقلّ لما سواه. ويعتقد بأنه أينما وجد الكمال فهو لله، وشعاعٌ من كمالات الله اللانهائية، لا أنه يعتقد أن لغير الله كمالاً مستقلاً ولكن تابع لكمال الله.

وهذه المترتبة من المعرفة والحُبِّ لله - ورغم شيوعها في آدابنا وأشعارنا العرفانية - من الصعب جداً فهمها وإدراكها بهذا التوصيف.

وفي توضيح هذه المرتبة العالية من معرفة الله وحبه التي يرى فيها الإنسان الوجودَ وجميعَ الكمالات عائدةً إلى الله ولا استقلال لما سواه، وسائر الموجودات والكمالات ما هي إلا مظاهر وتجليات للكمالات الإلهية اللانهائية يجب أن يُقال:

إنَّ الموجودات الإمكانية مركبة من ذات وصفات، ولها حيثيات متعدّدة، وكذلك هناك اختلاف بين ذاتها وصفاتها وتمايز بينهما، وصفاتها تختلف فيما بينها، وهي متعدّدة، ونحن نُحبُّ بعض الأشخاص لاتصافهم ببعض الصفات التي نستحسنها ونراها جيّدة. فحينما نُدرك أن شخصاً يتّصف بصفة السخاء والجود فإننا نحبه، رغم أنه ربما يتّصف ببعض الصفات السيئة التي لا نحبها. وإذا فَقَدَ ذلك الشخص صفة السخاء - أو أي صفة نحبه فيها - فإن حبنا له سوف يزول؛ لأنَّ حبنا له كان بسبب الصفات والحيثيات، لا الذات.

بعض الناس محبوبون لدى آخرين بسبب الجمال الظاهري، وحينما يفقدون ذلك الجمال سيفقدون تبعاً له حُبَّ الآخرين لهم؛ لأنَّ الجمال غير الذات، وما كان متعلّقاً للحُبِّ هو جمال الشخص لا ذاته.



لكن لا معنى لهذا التعدّد في الله سبحانه، فالله بسيطٌ محض، وصفاته عين ذاته، كما أنه لا يوجد تعدّد بين ذات الله وصفاته، بل بين صفات الله عينيّة واتحاد؛ ولأنّ تعدّد وتكثر ذات الحقّ وصفاته وحيثيّاته مستحيل، لا يمكن لشخص أن يقول أنا أحبّ الله لتلك الصفة أو بسبب تلك الحيثيّة، ولا أحبّ الصفة الفلانيّة فيه.

الله سبحانه يتّصف بالبساطة المحضة، ولا معنى لتعدّد الحيثيّات والتركّب فيه سبحانه، وإذا تعلّق حُبّ الإنسان بصفات الله فإنّه يتعلّق بذاته أيضًا. أما في مورد الإنسان الذي تختلف فيه الذات عن الصفات، وتكون فيه الصفة غير الذات، فحينما يتعلّق الحُبّ بصفة فإنّه لا يتلحق بالذات، ومن هنا فحينما تُفقد تلك الصفة يزول الحُبّ تبعًا لها.

وإنه لمن الممكن أن يكون الحُبّ لشخص ما عميقًا وشديدًا إلى درجة أنه حتّى مع زوال تلك الصفة التي كانت منشأً للحُبّ فإنه يبقى ويسري الحُبّ من الصفة إلى الذات، لكن ذات الإنسان - على أي حال - تختلف عن صفاته.

إذا فذات الله عين صفاته، وكذلك صفات الله كل منها عين الأخرى، ومعرفة الله معرفةً صحيحةً هي معرفة تتعلّق بذاته وصفاته بما أنها عين بعضها البعض، لا أن يعرف أوّلًا صفات الله، ومن ثم عن طريق صفاته تنتقل معرفته إلى ذاته. ومن وصل إلى المعرفة التوحيدية النقيّة الخالصة ومعرفة بساطة الذات والصفات الإلهية، يصل أحيانًا إلى مرحلة من المعرفة يرى فيها أنّ كل الكمالات والصفات الحسنة ترجع إلى الله، ويؤمن بأن كل الصفات والكمالات تتعلّق به سبحانه بالذات وأنّ التجلّيات والمظاهر الوجودية لتلك الكمالات والصفات إنما توجد في سائر الموجودات التي هي رشحات وجوديّة للبارئ سبحانه وسارية فيهم.



ولا شك في أنَّ الوصول إلى هذه المرحلة من المعرفة التوحيدية أمرٌ في غاية الصعوبة، ونحن في الحدِّ الأكثر يمكننا أن نصل إلى درجة من المعرفة ننسب فيها جميع الكمالات والآثار الوجودية إلى الله بالذات، وننسبها بالعرض إلى غيره سبحانه. وكذلك حُبُّنا يتعلق بالله بالذات ويتعلَّق بغيره بالعرض ومن أجله، وإنَّما نُحِبُّ الآخرين تبعًا لحُبِّه سبحانه.

لكن الوصول إلى تلك المرتبة العالية من المعرفة يقضي أن نعلم أنَّ الكمالات والوجود تُنسب إلى الله حقيقةً، وأنَّ الحُبَّ كذلك يتعلَّق بالله وتجليات كمالاته وآثاره الوجودية حقيقةً، ومنه تسري إلى غيره، وأنَّ المخلوقات كلّها مظاهر وتجليات أنوار الله الوجودية، ولا استقلال لها مطلقًا، وأنَّ جمالها وصفاتها الحسنة ما هي إلا تجليات للكمال الإلهي، كما نقرأ في دعاء عرفة: «إِلَهِی أَنْتَ الَّذِی أَسْرَفْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ. وَأَنْتَ الَّذِی أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِوَاكَ»^(١).

(١) مفاتيح الجنان، دعاء عرفة.



المقال السادس والثلاثون أهمّية الحُب ومكانته (٢)

مكانة مريدي الله وخُلص أحبّائه

قلنا إن تلك المرتبة من حُب الله التي هي لازم للإيمان ولا يمكن تفكيكها عن الإيمان بالله تُعدُّ واجبةً، وكذلك تلك المرتبة من حُب الله التي تدفع الإنسان إلى أداء الواجبات واجتناب المحرّمات فعلى الأقل تلزم هذه المرتبة من باب مقدّمة الواجب، وأما سائر مراتب الحُب لله فهي مستحبة وفضيلة، والعقل السليم يحكم أن الإنسان ينبغي له السعي للحصول على هذه المراتب.

ولقد تم في مناجاة المريدين رسم أعلى مراتب القرب الإلهي ومحبة المعبود، وعند إدراك عظمة تلك المراتب العالية يُدرك الإنسان أن تلك المراتب العالية من الحُب الإلهي لا يمكن مقارنتها بالمقامات الدنيوية وجميع النجاحات التي اكتسبها في الدنيا.





وفي هذه المجال وَرَدَ في الحديث القدسي^(١) خطاب الله سبحانه
لنبيه داوود عليه السلام: «يا دَاوُدُ... تَوَاضَعْ لِمَنْ تُعَلِّمُهُ وَلَا تُطَاوِلْ عَلَى
الْمُرِيدِينَ فَلَوْ عَلِمَ أَهْلُ مَحَبَّتِي مَنْزِلَةَ الْمُرِيدِينَ عِنْدِي لَكَانُوا لَهُمْ أَرْضًا
يَمْشُونَ عَلَيْهَا»^(٢).

وهناك ملاحظتان في هذا الحديث القدسي:

١. في البدء يظن الإنسان أن المقصود من «المريدين» في هذا
الحديث هم مريدو داوود عليه السلام، لكن «المريدين» في اصطلاح الروايات
وسائر التعاليم الدينية هم مريدو الله وأصحاب الرغبة في القرب الإلهي
والحركة نحو الله، رغم أنهم لم يصلوا إلى المرحلة النهائية.

٢. إن عبارة «أَرْضًا يَمْشُونَ عَلَيْهَا» عبارة معبرة وقيمة للغاية، لا
تُشَاهَد في أي رواية أخرى. وقد وَرَدَ في سائر الروايات تعبيرات رائعة
حول ضرورة التواضع أمام أحباب الله، لكن باستثناء هذه الرواية لم
أشاهد في أي رواية أخرى هذا التعبير بأن يصبح الإنسان تَرَابًا لأحباب
الله والسالكين في الطريق الإلهي لكي يعبروا فوقهم. وهذا البيان حاكٍ
عن عظمة الله وعنايته بالأشخاص الذين يريدون الحركة نحوه، وكانوا
بصدد نيل القرب الإلهي، إلى درجة أنه إذا علم أحباب الله - ومنهم
داوود عليه السلام - حتمًا - بالمقام والمنزلة السامية لمريدي الله والسالكين
في طريق القرب الإلهي فإنهم سوف يجعلون أنفسهم أرضًا لهم ليمشوا
عليها من شدة تواضعهم لهم.

(١) الحديث القدسي هو حديث معناه ومضمونه ينزل على قلب النبي بواسطة الوحي والإلهام أو في المنام،
ويعتبر عنه النبي بلفظه وكلامه نقلًا عن الله تعالى. وأما آيات القرآن فلفظها ومعناها من الله سبحانه
أوحيت إلى النبي ﷺ، ودور النبي فيها مجرد نقل الكلام الإلهي وإبلاغه إلى الناس.

(٢) المولى محسن الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، الجزء ٨، الصفحة ٦٢.



١٧٥



وكذلك وَرَدَ في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «حُبُّ اللَّهِ إِذَا أَضَاءَ عَلَى سِرِّ عَبْدٍ أَخْلَاهُ عَنْ كُلِّ شَاغِلٍ، وَكُلُّ ذِكْرِ سِوَى اللَّهِ، وَالْمُحِبُّ أَخْلَصَ النَّاسِ سِرًّا لِلَّهِ، وَأَصْدَقُهُمْ قَوْلًا، وَأَوْفَاهُمْ عَهْدًا، وَأَزْكَاهُمْ عَمَلًا، وَأَصْفَاهُمْ ذِكْرًا، وَأَعْبَدُهُمْ نَفْسًا تَتَّبَاهِيَ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ مُنَاجَاتِهِ، وَتَفْتَحُ بَرُؤِيَّتَهُ، وَبِهِ يَعْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِلَادَهُ، وَبِكِرَامَتِهِ يَكْرُمُ عِبَادَهُ، يُعْطِيهِمْ إِذَا سَأَلُوا بِحَقِّهِ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ الْبَلَايَا بِرَحْمَتِهِ، فَلَوْ عَلِمَ الْخَلْقُ مَا مَحَلُّهُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَنْزِلَتُهُ لَدَيْهِ مَا تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ إِلَّا بِتَرَابِ قَدَمَيْهِ»^(١).

وَوَرَدَ في رواية أخرى: «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ: عَبْدِي أَنَا وَحَقِّي لَكَ مُحِبٌّ فَبِحَقِّي عَلَيْكَ كُنْ لِي مُحِبًّا»^(٢).

ويحتمل أنه قد وقع تصحيف في كتابة جملة «أنا وحقِّي لك مُحِبٌّ»، والعبارة في الأصل هي «أنا وحقُّك عليَّ لك مُحِبٌّ»، وعليه يكون معنى هذه العبارة هو: «أنا لك مُحِبٌّ بذلك الحق الذي لك عليَّ» وهذا التعبير ألطف بكثير من التعبير الأول، وبناءً عليه فإن الله يرى للناس حقًّا عليه ويُقسم به.

كما أنه وَرَدَ في بعض آيات القرآن الكريم أَنَّ للمؤمنين حقٌّ على الله كما صَرَّحَ تعالى قائلًا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٧، الباب ٧٣، الصفحة ٢٣، الحديث ٢٣.

(٢) الديلمي، إرشاد القلوب، الجزء ١، الصفحة ١٧١.

(٣) سورة الروم، الآية ٤٧.



من السهل ادّعاء حُبِّ الله، لكن من الصعب جدًّا - في الواقع - التمتع بحُبِّ الله الخالص الذي يكون باعثًا على أن يقدم الإنسان ما يريده الله - في كل حال - على رغباته وما يريده هو نفسه. وقد تمت في بعض الروايات الإشارة إلى آثار هذه المرتبة من الحُبِّ الإلهي، ومنها ما ورد في الحديث القدسي أن الله يخاطب نبي الله موسى ﷺ: «يا ابنَ عمرانَ كَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُحِبُّنِي فَإِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ نَامَ عَنِّي، أَلَيْسَ كُلُّ مُحِبٍّ يُحِبُّ خَلْوَةَ حَبِيبِهِ؟ ها أنا ذا يا ابنَ عمرانَ مُطْلَعٌ عَلَى أَحْبَائِي إِذَا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ حَوَّلْتُ أَبْصَارَهُمْ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَمَثَلْتُ عُقُوبَتِي بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ، يُخَاطِبُونِي عَنِ الْمُشَاهَدَةِ، وَيُكَلِّمُونِي عَنِ الْحُضُورِ، يَا ابنَ عمرانَ هَبْ لِي مِنْ قَلْبِكَ الْخُشُوعَ وَمِنْ بَدَنِكَ الْخُضُوعَ، وَمِنْ عَيْنِكَ الدَّمُوعَ فِي ظِلَمِ اللَّيْلِ، وَادْعُنِي فَإِنَّكَ تَجِدُنِي قَرِيبًا مُجِيبًا»^(١).

وفي دعاء الإمام السجاد ﷺ عقيب صلاة الليل في مسألة الخلوة والمناجاة الليلية لأحباب الله مع محبوبهم: «إِلَهِي وَسَيِّدِي هَدَّاتِ الْعُيُونُ، وَغَارَتِ النُّجُومُ، وَأَغْلَقَتِ الْمُلُوكُ أَبْوَابَهَا، وَدَارَتْ عَلَيْهَا حُرَّاسُهَا، وَبَابُكَ مَفْتُوحٌ لِمَنْ دَعَاكَ، يَا سَيِّدِي قَدْ خَلَا كُلُّ حَبِيبٍ بِحَبِيبِهِ وَأَنْتَ الْمَحْبُوبُ إِلَيَّ»^(٢).

الليل يمثل أفضل فرصة لمشاهدة جمال الخلقة والخلوة بالمعبود والنجوى معه، وما أجمل أن ينهض الإنسان من فراشه الناعم ونومه اللذيذ في منتصف الليل ويستعدُّ لأداء صلاة الليل والعبادة، وحينما يرمي بنظره

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ١٣، الباب ١١، الصفحتان ٣٢٩ - ٣٣٠، الحديث ٧.

(٢) الصحيفة السجادية الجامعة، «دعاء ما بعد صلاة الليل»، الصفحتان ١٧٣ - ١٧٤.



إلى السماء ويتأمل في النجوم الرائعة، يأخذ يردد مع نفسه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١).

إن إحدى علامات الحُبِّ العامّة والبسيطة هي أن المُحِبَّ يرغب في سماع اسم محبوبه كثيرًا، ويهتمّ به كثيرًا، وهذا اختبار جيّد لمن يدّعي حُبَّ الله، فإن شَعَرَ بالسعادة عند سماع اسم الله وعند الاستماع إلى كلامه، وكان يُحِبُّ سماع كلام الله كثيرًا ولا يشعر بالتعب من ذلك، فإنه حقًّا يُحِبُّ الله، وهو يفضّل الخلوة معه والاستماع إلى كلامه على الخلوة مع غيره وسماع كلامهم. لكنه إذا كان يشعر بالملل والتعب من سماع اسم الله ومن كلامه وكان يؤذيه ذلك، ولا يعتني بذكر الله، فهو في الحقيقة قد ملأ قلبه بمحبّة ما سوى الله، وما محبّته لله إلا قليلة جدًّا بالنسبة إلى تلك المحبّة.

كما أنّ من علامات حُبِّ الله حُبُّ الأشياء المنسوبة إلى الله، من قبيل الكعبة وسائر المساجد. فالمُحِبُّ لله حينما تقع عينه على مسجد يشعر بالسعادة، ويلتذّ عند قضائه بعض الوقت في المسجد منشغلًا بالصلاة والعبادة. لكن الشخص الذي لا يُحِبُّ الله تراه لا رغبة له بآيات الله ومنها المساجد، فنراه يمرُّ من قربها دون أي اهتمام، ويسعى إلى أن يذهب إلى أماكن اللهو والترفيه.

كذلك من علامات الحُبِّ الواقعي لله، محبّة أولياء الله والأنبياء وخاصّة خاتم الأنبياء وأهل بيته (صلوات الله عليهم) الذين هم أحبّ عباد الله، إلى درجة أنه بدون محبّتهم لا يمكن الوصول إلى حُبِّ الله.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٩٠.



وقد ورد في الزيارة الجامعة: «مَنْ وَالَاكُمْ فَقَدْ وَآلَى اللَّهَ وَمَنْ عَادَاكُمْ فَقَدْ عَادَى اللَّهَ وَمَنْ أَحَبَّكُمْ فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ وَمَنْ أَبْغَضَكُمْ فَقَدْ أَبْغَضَ اللَّهَ».

وفي فقرة أخرى من الزيارة الجامعة نقراً: «مَنْ أَرَادَ اللَّهَ بَدَأَ بِكُمْ، وَمَنْ وَحَدَهُ قَبْلَ عَنْكُمْ، وَمَنْ قَصَدَهُ تَوَجَّهَ بِكُمْ، مَوَالِي لَا أُحْصِي ثَنَاءَكُمْ وَلَا أُبْلَغُ مِنَ الْمَدْحِ كُنْهَكُمْ وَمِنْ الْوُصْفِ قَدْرَكُمْ»^(١).

وإحدى علامات الحُب هي أن المُحِبَّ يتوق إلى حُبِّ المحبوب له، وأقصى لذة ينالها المُحِبُّ العاشق هي إدراك محبة محبوبه له. ومن هنا تكون أي إشارة أو هدية أو كلام موجّه من المحبوب إليه في غاية القيمة واللذة، وكل ما يصله من المحبوب مهمّ وذو قيمة عالية لأنه واصل إليه من محبوبه وعلامة على المحبة بينهما، وإن كان ذلك الشيء لا قيمة له في نفسه.

ولا ريب في أنه إذا أحبَّ الإنسان الله ورأى أنه أفضل محبوب عنده، فإنه سيكون بصدد القيام بالأعمال التي تؤدّي إلى أن يُحِبَّه الله، وإذا لم يهتمّ بما يؤدّي إلى رضا الله ويبعث على جلب محبته، فهو - في الحقيقة - ليس صادقاً في حبه لله، فليس من الممكن أن يكون الشخص محباً لله بصدق، مع أنه لا يريد أن يكون محبوباً لديه، ولا يسعى إلى نيل رضاه.

والآن يجب أن نرى ما هي الأعمال والصفات التي تبعث على جلب محبة الله.

(١) مفاتيح الجنان، الزيارة الجامعة.

علامات محبة الله للعبد

وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالرَّوَايَاتِ مَلَكَاتٌ وَعَلَامَاتٌ كَثِيرَةٌ لَجَلْبِ مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَنُشِيرُ هُنَا إِلَى ثَلَاثَةٍ مِنْهَا جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

١. التوبة: قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(١).

«التوابين» صيغة مبالغة وتدل على الكثرة والإصرار على التوبة، واستعمالها في الآية الشريفة يكشف أن الله سبحانه يُحِبُّ الَّذِينَ يَتَوَبُّونَ دَائِمًا، وَكَلَّمَا زَلَّتْ أَقْدَامُهُمْ يَبَادِرُونَ إِلَى التَّوْبَةِ وَيَنْدَمُونَ عَلَى مَا بَدَرُوا مِنْهُمْ، وَيَسْعَوْنَ إِلَى تَدَارِكِ الْمَعْصِيَةِ الصَّادِرَةِ عَنْهُمْ.

فكل شخص يمكن أن يمرَّ بتجربة التوبة في عمره، وبعد المعصية يندم على العمل القبيح الصادر عنه ويتوب، غير أنَّ البعض وبعد أن يعصي عدَّةَ مرَّاتٍ ويغفل عن التوبة والانخداع بحيل الشيطان، ربما يتصوَّر نفسه غير قادر على الصمود على التوبة والبقاء عليها (وهذا من خدع الشيطان أيضًا)؛ ولذلك تراه ينصرف عن التوبة، لكن الله سبحانه يُحِبُّ الَّذِينَ يُكْثِرُونَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَحِينَمَا يَزَلُّونَ - نَتِيجَةً لِلْغَفْلَةِ وَخَدَاعِ الشَّيْطَانِ - يَعُودُونَ وَيَتَوَبُّونَ. وَتَكَرَّرَ الْمَعْصِيَةُ وَالزَّلَلُ لَا يَجْعَلُهُمْ يَنْصَرِفُونَ عَنِ التَّوْبَةِ، وَلَا يُؤَدِّي الْإِصْرَارُ عَلَى التَّوْبَةِ إِلَى سَقُوطِ قَبْحِ الْمَعْصِيَةِ مِنْ عَيْنِ الْإِنْسَانِ، أَوْ إِلَى الْغَفْلَةِ عَنْ عَاقِبَةِ الْمَعْصِيَةِ وَالْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ، بَلْ إِنَّهُ بَعْدَ كُلِّ مَعْصِيَةٍ أَوْ زَلَلٍ - نَتِيجَةً لِلْغَفْلَةِ الْمُؤَقَّتَةِ - يَلُومُ نَفْسَهُ، وَيَنْدَمُ عَلَى مَا فَعَلَ، وَيَشْعُرُ بِالْحُزْنِ نَتِيجَةً لَذَلِكَ، وَتَتَحَوَّلُ حُلَاوَةُ الْمَعْصِيَةِ وَلَذَّتْهَا إِلَى مَرَارَةٍ فِي فَمِهِ، فَيَكُونُ بِصَدَدِ التَّوْبَةِ وَتَدَارِكِ الزَّلَلِ الصَّادِرِ مِنْهُ.

(١) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.



٢. الطهارة: في تنمة الآية المتقدمة التي بين الله فيها أنه يُحِبُّ التوابين يعطف عليها قوله: ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

والطهارة في الآية الشريفة تشتمل النظافة الظاهرية، وكذلك الطهارة الشرعية التي تتحقق بالوضوء والغسل، وكذلك الطهارة القلبية التي تتحقق بتنقية القلب من المعصية وترك الأعمال التي لا يرتضيها الله. من قبيل تطهير القلب من سوء الظن بالآخرين والامتناع عن الحقد.

٣. التضحية في سبيل الله: قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْضُوضٍ﴾^(١).

وليس من شك في أن الله سبحانه يُحِبُّ الذين يجاهدون في سبيله بنية خالصة ويضحون بأرواحهم من أجله. وهل يمكن أن يضحي الشخص بكل وجوده من أجل محبوبه، ثم لا يحبه المحبوب؟

وَرَدَ عن الإمام الصادق عليه السلام في بيان بعض صفات عباد الله التي يحبها وتقوي محبته لعباده: «طَلَبْتُ حُبَّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَوَجَدْتُهُ فِي بُغْضِ أَهْلِ الْمَعَاصِي»^(٢).

وعلى أساس هذه الرواية فإذا كان ثمة شخص يُحِبُّ الله وأراد أن يُحِبَّه الله أيضاً، وَجَبَ عليه أن يعادي أعداء الله.

وأما الذين ابتلوا بوهم أن الإنسان يمكن أن يكون مؤمناً ومسلماً ومن أحبب الله ومع ذلك يمكن له أن يرتبط بأعداء الله وأن تربطه معهم علاقات مودة ومحبة، فمثل أولئك المتوهمين يجب أن يعلموا أنهم

(١) سورة الصف، الآية ٤.

(٢) المحدث التوري، مستدرک الوسائل، الجزء ١٢، الباب ١٠١، الصفحة ١٧٣، الحديث ١٣٨١٠.



في خطأ شديد؛ لأنه لا يمكن الجمع بين حُبِّ الله وحُبِّ أحبائه، وحُبِّ أعداء الله.

وليس المقصود من أهل المعصية في الرواية الذين تصدر منهم المعصية أحياناً ما، ومن يرتكب المعصية نتيجةً للإثارة أو الانفعال، بل علينا تجاه أمثال هؤلاء أن نتمنى لهم الخير ونسعى إلى إرشادهم وإصلاح سلوكهم، فربما يصحو هؤلاء الأشخاص من نوم الغفلة نتيجةً لنصحتنا لهم، ويندمون على سلوكهم القبيح ويتوبون، وينقون قلوبهم من التلوث، وربما يوفقهم الله فيصبحون من خاصة أحبائه. وإنما المراد من أهل المعصية المعاندون المصرون على عداوة الله، ومن أغلق أمام نفسه جميع أبواب العودة إلى الفلاح والصلاح.

طريق زيادة محبة الله

من الأسئلة التي لطالما طرحها الراغبون في السلوك إلى الله وفي تذوق طعم محبة الله السؤال التالي:

ما هو طريق تحصيل حُبِّ الله وزيادة ذلك الحُبِّ؟

إنَّ الوصول إلى جواب لهذا السؤال الأساسي بحاجة إلى كثير من البحث والتنقيب في طيات الأدلة التعبدية والنقلية، أي الآيات والروايات الكثيرة الواردة في هذا المجال، ومن هنا فنحن مضطرون إلى الاكتفاء بجواب إجمالي قصير، وهو: أن القاعدة والأصل العام الناشئ عن التجارب الشخصية لمحبة الأشخاص بعضهم لبعض هو أنه كلما تأمل الإنسان أكثر في محاسن الطرف الآخر كلما ازداد حُبُّه له، وعليه فقد وردَ في الحديث القدسي في خطاب الله سبحانه لداود عليه السلام: «أَحْبَنِي وَحَبَّبَنِي إِلَى



خَلَقِي، قَالَ: يَا رَبِّ، نَعَمْ أَنَا أُحِبُّكَ فَكَيْفَ أُحِبُّكَ إِلَى خَلْقِكَ؟ قَالَ: اذْكُرْ أَيَادِيَّ عِنْدَهُمْ، فَإِنَّكَ إِذَا ذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُمْ أُحِبُّونِي»^(١).

فالإنسان بفطرته يُحِبُّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ وفعل له خيراً، وكلّما زاد من الإحسان إليه، زاد حُبّه له. حتى أن الإنسان يُحِبُّ مَنْ يَتَصَفَّ بِالْإِحْسَانِ والخير، وإن لم يُحَسِّنْ إِلَيْهِ شخصياً.

وكمثال على ذلك نرى الناس يُحِبُّونَ حَاتِمَ الطائي المشهور بجوده وإحسانه، بالرغم من أنهم لم ينتفعوا من جوده وإحسانه؛ لأنه لم يعيش في زمانهم.

نعم إذا كان الإنسان على صلة بالمُحْسِنِ وناله من إحسانه خير، فَإِنَّ حُبّه له سوف يزداد. وعلى هذا الأساس كلّما فُكِّرَ الإنسان في النعم الإلهية، وكيف أن الله ساعده طوال حياته، وكم هي الموارد التي سَتَرَ عليه فيها ولم يفضحه، وكم من الابتلاءات دفع عنه، وكم مرّة أنقذه من الوقوع في طريق الباطل وأخذ بيده إلى طريق الصلاح والهداية، ولو تأمّل في الأسباب والمقدّمات التي وفّرها الله له كي يمنع من الوقوع في الخطأ والمعصية، لو فكر في ذلك فإن حُبّه لله سوف يزداد.

ومن الواضح أننا كلّما تأملنا وفكرنا لا نستطيع أن نُحْصِيَ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْنَا وإحسانه في حقنا؛ لأن نِعَمَ اللَّهِ لَا تُحْصَى، ﴿وَأَتْلُوكُمْ مِّنْ كُلِّ مَاءٍ سَائِثُمَةٌ وَإِنْ تُعْذِرُوا يَغْمِزَ اللَّهُ لَا تُخْصَوها إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(٢).

وبناءً على هذا فَمِنْ أَجْلِ زِيَادَةِ حُبِّ اللَّهِ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يقومَ بعملين:

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ١٤، الباب ٣، الصفحة ٣٨، الحديث ١٦.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٣٤.



١. عليه أن يعرف الخيرات والكمالات والنعم الإلهية.

١٨٣

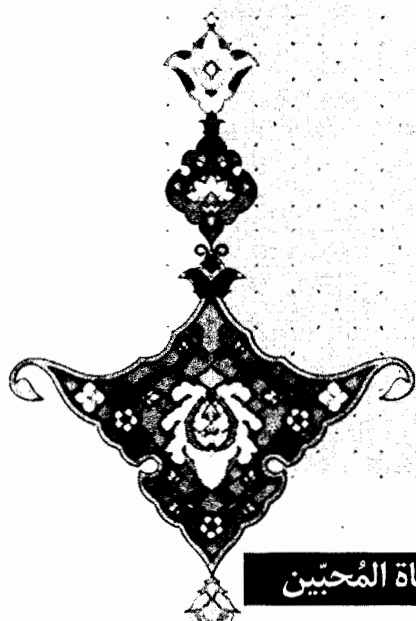


٢. عليه أن يركّز على تلك الخيرات، والكمالات، والنعم؛ لأن الإنسان وبسبب المشاكل والانشغال بالأمور الدنيوية يصاب بالغفلة، وحينها فلن تؤثر مجرد معرفة النعم الإلهية؛ فأحياناً يُحب الإنسان شخصاً، ولكنه بعد أن يبتعد عنه لفترة من الزمن يقل اهتمامه به، وبمرور الأيام تنخفض محبته عنده.

إذاً فلكي لا تؤثر مشاكل الحياة اليومية علينا فتجعلنا في غفلة عن ذكر الله، ولا تقل محبتنا له سبحانه، يجب علينا التفكير عميقاً بنعم الله، وأن نركّز تفكيرنا على تلك النعم، وحينها ستبقى شعلة حب الله متقدة في قلوبنا.

لذا فالخطوة الأولى هي علينا أن نتأمل في الآيات الإلهية التي حولنا وفي أنفسنا، وأن ندرك أنّ العالم كله آية إلهية، ونتأمل في التدبير الإلهي المحيط بنا، ونتأمل في النعم التي أودعها الله فينا، وكذلك النعم التي توجد خارجنا، من قبيل نعمة الأب، والأم، والأستاذ، والأصدقاء وجميع الأشخاص الذين أحسنوا إلينا ونأنس معهم.

ولا ريب أن زيادة التفكير في نعم الله، تزيد من حُبنا له سبحانه، وحينئذٍ وبالتركيز على ذكر الله سبحانه ونعمه تزول عوامل الغفلة، وتقوى جذور حُبنا لله فيبقى حبه متألقاً في قلوبنا.



شرح مناجاة المحبين



المقال السابع والثلاثون مكانة محبة الله والأنس بالمعبود

مراتب المحبة

استكمالاً للمباحث السابقة المتعلقة بشرح وتحليل المناجيات الخمس عشرة، وصل بنا المطاف الآن إلى شرح مناجاة المحبين، وعند تحليل كلمات الإمام السجاد عليه السلام النورانية في هذه المناجاة الشريفة، نجدها تدور حول محور محبة الله تعالى والتي أشرنا إليها مراراً في المباحث السابقة.

تردّدت في هذه المناجاة الشريفة أربع كلمات تحمل معنى المحبة، وهي: «المحبة»، «الود»، «الإرادة»، و«الهيام»، وإضافةً إلى هذه الكلمات الأربعة ورَدّت كلمات أخرى تتضمّن أحد معاني المحبة أو لوازمها أو نتائجها.

وكما أشرنا فيما سبق، توجد في اللغة الفارسية كلمات تحمل معنى قريباً من معنى المحبة، ككلمة «خواستن»، و«دوست داشتن»، فالكلمة الأولى تمثّل مرتبةً دُنيا من مراتب المحبة، في حين تمثّل الكلمة الثانية





مرتبةً أعلى من مراتب المحبة، وهناك كلمات أخرى قد وضعت للتعبير عن آثار المحبة^(١).

أما اللغة العربية فقد وَرَدَ فيها ما يقارب العشرين كلمةً استُعملت للتعبير عن المحبة ولوازمها وتنائجها، سبعة منها تقريباً تعبّر عن مفهوم المحبة ومراتبها.

والظاهر أن كلمة «الهوى» - والتي تعني الميل إلى المحبوب - تمثل المرتبة الأولى من مراتب المحبة، واصطلاح «هوى النفس» مشتق من هذه الكلمة.

ولعل كلمة «الإرادة» تمثل المرتبة الثانية من مراتب المحبة؛ لكنها لم تَرِدْ هنا بمعناها النفسي الذي يعني العزم والتصميم؛ بل وَرَدَتْ لتعبّر عن حالة نفسانية تحمل معنى المحبة والإرادة، لا عن حالة سلوكية.

ونجد في القرآن الكريم أيضاً كلمات من مشتقات «الإرادة» استُعملت للتعبير عن المحبة كحالة نفسانية، فمثلاً قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢)، وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّن بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾^(٣).

وبعد مفردتي «الهوى» و«الإرادة» تأتي كلمات مثل «المحبة» و«المودة» لتمثل المرتبة الثالثة من مراتب «المحبة»، ثم تأتي بعدهما

(١) مثل "دلدادكى" و"شيفتكى" و"دل بستكى" و"شيدائى".

(٢) سورة الأنفال، الآية ٦٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٥٢.



كلمة «الهيام» حيث وَرَدَتْ إحدى مشتقاتها في هذه المناجاة الشريفة إلى جانب الكلمات الأخرى، «الإرادة» و«المحبة» و«المودة».

وكلمة «الهيام»^(١) تمثل مرتبةً من مراتب المحبة تُطلق عادةً لوصف العاشق المجنون بحُبِّ معشوقه إلى درجةٍ يفقد فيها سلوكه الطبيعي فيتصرف كالمجانين من شدة العشق، حتّى أن علماء اللغة عرّفوا كلمة «الهيام» بأنّها نوع من الجنون الناشئ عن العشق فقالوا: «والهيام: كالجنون، وفي التهذيب: كالجنون من العشق»^(٢).

وتمثّل مرتبة «العشق» أعلى مراتب المحبة التي يصل فيها العاشق حدّ الفناء في معشوقه؛ بيد أنّ كلمة «العشق» ومشتقاتها التي استعملت كثيرًا في الأدب العرفاني، لم يَرِدْ ذكرها في القرآن الكريم؛ ولعل السبب في ذلك يعود إلى كونها لم تُستعمل في عصر نزول القرآن الكريم بمعنى العشق المعنوي وعشق الله تعالى؛ بل غلب استعمالها - آنذاك - بالمعنى المجازي للعشق والمحبة؛ إلا أنها وَرَدَتْ في بعض الروايات، ومن بينها رواية عن رسول الله ﷺ حول عشق عبادة الله تعالى، حيث يقول فيها: «أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَشِقَ الْعِبَادَةَ فَعَانَقَهَا وَأَحْبَبَهَا بِقَلْبِهِ وَبَأْسَرِهَا بِجَسَدِهِ وَتَفَرَّغَ لَهَا فَهُوَ لَا يُبَالِي عَلَى مَا أَصْبَحَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى عُسْرِ أَمٍّ عَلَى يُوسَرَ»^(٣).

(١) تأتي في اللغة الفارسية بمعنى شبيه لمعنى كلمات مثل "شيفتكي" و"شيدايي".

(٢) ابن منظور، لسان العرب، الجزء ١٢، الصفحة ٦٢٦.

(٣) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، الجزء ٢، الصفحة ٨٣، الحديث ٣.



مفهوم المحبة وارتباطه باللذة

وهنا نجد من الضروري أن نتحدث قليلاً عن مفهوم المحبة، فبالرغم من أن كلمة «المحبة» قد تُطلق أحياناً للتعبير عن مرتبة خاصة من مراتبها، لكنها تمثل لفظاً عاماً يُستعمل عادةً للتعبير عن جميع مراتب المحبة، بخلاف كلمات مثل «الهيام» و«الإرادة» و«العشق» التي تمثل كل واحدة منها مرتبةً خاصةً من مراتب المحبة.

إن مفهوم المحبة من المفاهيم البديهية المعروفة عند الجميع، والتي يمكن لأي شخص أن يُدركها بسهولة ويُسر؛ إذ ما من أحد إلا وقد مرَّ يوماً ما بتجربة الحُب؛ ومع ذلك ليس من السهولة وضع تعريف مناسب للمحبة؛ لصعوبة تعريف كثير من الأمور البديهية - مثل مفهوم النور - لوضوح مفهومها ومعناها؛ لذا نجد من الضروري في هذه المقالة أن نسعى لوضع تعريف جامع للمحبة.

ولتحقيق هذا الهدف يمكن لأي شخص أن يبحث عن تعريف مناسب للمحبة بين طَيَّات كُتب اللغة المختلفة والكتب الأدبية والعلمية التي تحدثت عن هذا الموضوع؛ لكن من الأفضل له - بدلاً عن ذلك - أن يعود إلى تجاربه الشخصية ويبحث عن مصاديق المحبة في وجوده، ويستخرج الأحاسيس والمشاعر المرتبطة بموضوع المحبة التي تتراءى أمامه ويمكن إدراكها بالعلم الحضوري.

وعندما نُمعن النظر في مصاديق المحبة، نجد أننا إنَّما ندرك معنى المحبة نتيجةً للذة التي نشعر بها مع المحبوب وما يرتبط بمحبَّتنا له. وهذه اللذة يمكن أن نُدركها أحياناً بالحواس الخمس، كاللذة التي نشعر بها من مشاهدة المناظر الطبيعية الجميلة، فينتج عن ذلك حبنا لهذه المناظر، أو اللذة التي نشعر بها لسماعنا صوتاً جميلاً فتعلّق به ونحبّه،



أو أننا قد نُحب عطراً معيَّناً بسبب اللذة التي نشعر بها عند شم رائحته العطرة.

فقد ندرك أحياناً اللذة التي تبعث المحبة، بواسطة الحواس الخمس، كاللذة والسعادة والنشوة التي نشعر بها عند سماعنا شعراً جميلاً يتضمَّن وزنًا ومعاني جميلة، ولاستعماله الصحيح لفنون الكناية والاستعارة وللطائف الشعرية المختلفة. كذلك نحن نُحب كلَّ من يتَّصف بالأخلاق الحميدة كالجود والكرم والأدب؛ بسبب اللذة التي نشعر بها عند رؤيتنا لهذه الفضائل الأخلاقية والصفات الحميدة التي يحملها.

إذاً، عندما نشعر باللذة بسبب مشاهدة منظر جميل أو سماع صوت عذب أو استنشام رائحة عطر فوَّاحة، سنُحب هذه الأشياء ونتعلَّق بها.

وكذلك الحال بالنسبة للمفاهيم والمعقولات الأخرى؛ إذ سنُحبها إذا ما شعرنا بلذة معنوية فيها. وهذا الحكم يصدق على الإنسان أيضاً، فنحن نشعر بالحبِّ نحوه إذا ما شعرنا بلذة بسبب الصفات والخصائص التي يحملها، فالمظهر الجميل أو الصوت الشجيُّ أو الأخلاق الحميدة إذا كانت تبعث في أنفسنا اللذة، فإنها ستؤدِّي إلى حبِّنا للأشخاص الذين يتَّصفون بها.

وعلى كل حال، ثمة تلازم بين المحبة واللذة، والحبُّ الذي نكته للأفراد والأشياء إنما ينتج عن اللذة التي نشعر بها بواسطة حواس النظر والسمع واللمس والتذوق والشم، وكذلك بواسطة القوى الباطنية كالحسَّ المشترك وقوة الخيال والقوة المفكرة والقوة الحافظة.

أما اللذة؛ فهي حالة نفسية ونفسانية تنشأ عمَّا يتلائم مع نفس الإنسان وطبعه، فقد تتلائم الأشياء التي ترتبط بها ونتعامل معها مع



إحدى القوى المُدرَكة الظاهرية أو الباطنية، فتصبح حينئذٍ منسجمةً مع نفس الإنسان وطبعه، وبالتالي سنشعر باللذة تجاهها. وهناك أشياء لا تنسجم مع نفسنا ولا تتلائم مع طبعنا، فسوف لن نشعر باللذة تجاهها، كالجوّ الشديد الحرارة أو البرودة، فهو لا ينسجم مع النفس فلا نشعر باللذة تجاهه.

العلاقة بين المحبة والتقرب إلى المحبوب

عندما يُحِبُّ الإنسان شيئاً معيناً بسبب اللذة التي يشعر بها منه، فإنه يسعى عادةً لإيجاد نوع من العلاقة معه. أو بعبارة أخرى: يسعى ليكون واجداً له، فمثلاً إذا ما كان محبوبه يملك صوتاً جميلاً وشجياً فإنه يرغب دائماً بسماعه، وإذا ما مرّ بمنظر جميل فإنه سيسعى لمشاهدته، وإذا ما رأى كتاباً مفيداً فإنه سيُحِبُّ قراءته، وإذا ما لاحظ صفات وفضائل حميدة كالشجاعة والعدالة والصدق فإنه سيعمل على التحليّ والاتصاف بها، وإذا ما أعجب بمهارة معينة كالرسم والخط فإنه سيسعى لتعلّمها وإجادتها.

ويتّضح من الأمثلة السابقة، أن العلاقة والارتباط مع الصفات والأشياء المختلفة تتفاوت فيما بينها، فارتباط الإنسان بالصفات والفضائل الإنسانية والمهارات النافعة والتحلي بها، إنما يحصل بإيجادها في نفسه حتّى تصبح جزءاً من وجوده. أما الارتباط مع الأشياء الخارجية فيحصل من خلال إدراك الإنسان لها بالحواس الخمس ومن ثمّ إيجادها في نفسه وإنشاء علاقة معها.

وبعبارة أخرى: إنّ حُبَّ شيء معين يستلزم التقرب نحوه، فإذا كان هذا الشيء من الأمور المادّية فالتقرب نحوه يكون بواسطة الحواس الخمس، وإذا كان من الصفات المعنوية والأخلاقية فالتقرب نحوه يكون



بإيجاده في النفس والتحلي به حتّى يصبح جزءًا من وجود المرء، أما إذا كان المحبوب موجودًا مجردًا فإنّ التقرب نحوه والارتباط به سيأخذ معنى خاصًا؛ وعلى هذا فلا يمكن أن يُحبَّ أحدُ الله تعالى ولا يسعى للتقرب نحوه؛ لأنَّ الحُبَّ يستلزم القُرب من المحبوب؛ لكن - بالطبع - مراتب التقرب من المحبوب تتفاوت شدةً وضعفًا بحسب تفاوت مراتب الحُبِّ.

ونظرًا إلى التلازم بين محبة المحبوب والتقرب إليه، وسعي المُحبِّ لتقليل المسافة بينه وبين محبوبه، نجد في النصوص والكلمات العرفانية أنّ الحديث حول العشق والحُبَّ يصاحبه عادةً الحديث عن الهجران والوصال، حتّى ذكروا أنّ العاشق يسعى للوصال مع محبوبه ويتألم لفراقه.

بحث في حُبِّ الذات

من الواضح أنّ الحُبَّ لا ينشأ إلّا عندما يخلق المحبوب لذّةً في نفس المُحبِّ، وستستلزم هذه المحبة تقرب المُحبِّ من المحبوب.

ومن الضرور هنا التطرّق إلى بيان موضوع حُبِّ الذات أو حُبِّ النفس؛ ذاك أنّ البعض يعتبر حُبِّ الذات أصل جميع أنواع المحبة وأساسها؛ بل يمكن القول إنه يمثل منشأ حركة الإنسان وسعيه في كافّة مجالات الحياة الماديّة والمعنويّة؛ لأنّ حُبَّ الإنسان لنفسه يدفعه إلى السعي في سبيل تحقيق كل ما ينفعها ودفع الضرر عنها. ونحن عندما نُمعن النظر في مصاديق المحبة نجد نوعًا من الثنائية بين المُحبِّ والمحبوب؛ فالكتاب أو الشخص الذي أحبه - مثلاً - هو مستقلّ عنّي؛ وبالتالي توجد علاقة ثنائية بيني وبينه. وهذه العلاقة يمكن تصوّرها حتّى في مسألة حُبِّ الذات؛ لأنّ حُبِّ الذات يعني أنّني عندما أحبّ الحياة



مثلاً، أخلق علاقةً ثنائيةً بين نفسي وحب الحياة، أو أن قوةً من قوى النفس تُحب قوةً أخرى فتتحدان مع بعضهما وتنشأ بينهما علاقة ثنائية.

وفي الموجودات المركبة - بشكل عام - تنشأ علاقة ثنائية بين المحب والمحبوب يمكن من خلالها تصوّر اللذة التي تحصل بسبب المحبوب، وهذا الأمر يصدق أيضاً في مسألة حب الذات.

أما بالنسبة للموجود البسيط المنزه عن التعدّد، فكيف يمكننا أن نتصوّر حب الذات واللذة الناشئة من حبه لنفسه؟ إن تحليلنا لمسألة حب الذات في الموجود البسيط، هو عدم وجود تعدّد بين ذاته وبين صفاته الكمالية، فصفاته الكمالية عين ذاته، وعليه فعندما يُحب هذا الموجود نفسه، تكون المحبة عين ذاته.

إذاً، فبالنسبة إلى الله تعالى - وبوصفه يمثل أبسط الحقائق والموجودات - تكون محبته لنفسه عين ذاته، وهي أسمى أنواع المحبة ومنشأ لجميع أنواع المحبة القائمة بين الموجودات الأخرى. وهذا يعني أن الله تعالى إنما يُحب مخلوقاته لكونها تمثّل أثراً من آثاره، وليبيان هذه الحقيقة ننقل هنا هذا الحديث القدسي، الذي جاء فيه: «كُنْتُ كَنْزاً مَخْفِياً فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِكَيْ أُعْرَفَ»^(١).

على ضوء هذا الحديث القدسي، تكون الذات الإلهية عين محبة الله تعالى لذاته، ووجود مخلوقاته إنما ينشأ لكونها أثراً من آثار وجوده تعالى، أو بعبارة أخرى: تمثّل هذه المخلوقات تجلياً لأسماؤه وصفاته التي [أي تلك الموجودات والتجليات] لبست لباس الوجود تبعاً لإرادته ومشيئته تعالى، فشمّلها بمحبته وعنايته. وأحب هذه الموجودات

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٨٧، الباب ١٢، الصفحة ١٩٨، الحديث ٦.



لله تعالى وأكملها وأقربها منه، هو النور القدسي المتمثل بالرسول الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

ومما تقدّم، يتّضح أنّ المحبّة موجودة أيضًا في الموجود المجرد الذي يمثّل أكمل وأبسط الموجودات ولا يمكن تصوّر الكثرة في ذاته، فهو يُحبّ ذاته ويُحبّ جميع المخلوقات الناشئة عن تجلّيات وجوده؛ لكنّ هذه المحبّة إنّما هي عين ذاته. فاللذة الناشئة عن الذات بالنسبة إلى الله تعالى يمكن تصوّرها بعد تجريدها من جميع العلائق المادّية، حتّى عبّر عنها بعض العلماء بأنّها ابتهاج الذات بذاتها؛ أي سعادة ذات الله تعالى وسروره بذاته، ولَمّا كان الله تعالى أكمل الموجودات فستنشأ عن ذاته أسمى مراتب المحبّة وأعلاها.

ونظرًا لكون هذا المفهوم يفوق إدراكنا وفهمنا؛ يصعب علينا للغاية البحث والتحقيق في هذا المجال، ولا يسعنا - حتى من خلال البحث العميق والتحليل الدقيق - سوى الوصول إلى فهم ناقص عن المحبّة الإلهيّة؛ لكن رغم هذه الصعوبة، يعتبر البحث والتحقيق في هذا المجال أسمى وأفضل من البحث حول مواضيع علمية مهمّة كالذرة والجزيء، لارتباط هذا الموضوع بروح الإنسان وجسمه؛ بل لارتباطه بمعرفة الله تعالى وصفاته وعلاقة الإنسان به عزّ وجلّ.

أهمّية محبّة الله تعالى والأنس به

بعد أن وضحنا مفهوم المحبّة واللذة الناشئة عنها، نبدأ الآن بشرح وتحليل القسم الأوّل من المناجاة، ونكمل بحثنا بشرح كلمات الإمام السجاد عليه السلام التي يقول فيها:



«إِلَهِي مَنْ ذَا الَّذِي ذَاقَ حَلَاوَةَ مَحَبَّتِكَ
فَرَامَ مِنْكَ بَدَلًا، وَمَنْ ذَا الَّذِي أَنْسَى
بِقُرْبِكَ فَاثْتَعَى عَنْكَ حَوْلًا».

اختصَّ القسم الأول من المناجاة ببيان موضوعين على نحو من
الاستفهام الاستنكاري:

الأول، مَنْ تَذَوَّقَ حَلَاوَةَ مَحَبَّةِ اللَّهِ وتَلَذَّذَ بطعمها، سيزهد بمحبة
الآخرين ولن يبغى بديلًا عن محبة الله أبدًا.

أما الموضوع الثاني، فهو مَنْ تَقَرَّبَ مِنْ اللَّهِ تعالى حتَّى سكنت
روحه إلى جوار المعبود وأنس بقربه، فلن يسعى - ولو للحظة واحدة -
إلى الابتعاد عن لذة القرب منه تعالى والأنس بجواره.

إن حلاوة محبة الله تعالى عذبة للغاية إلى درجة أنَّ من يتذوَّقها لن
يفكر أبدًا في تذوَّق محبة غيره.

كما أن الأنس بالله تعالى والقرب منه يبعث في النفس لذةً عظيمة،
ويحفِّز الإنسان نحو الكمال والسموِّ إلى درجة أنَّ من يصل إلى هذا
المقام لن يفكر لحظةً واحدةً بالخروج منه.

إذًا، فأولئك الذين لم يوفِّقوا لنيل محبة الله تعالى، وتعلَّقوا بحُبِّ
غيره، وابتعدوا عن مقام قربه، إنما كان منهم هذا لأنهم لم يتذوَّقوا حلاوة
محبتِّه، ولم يدركوا أهمِّية وعظمة القرب منه تعالى.

إن البعض من محدودي الأفق كانوا يقولون في الماضي إنَّ محبة
الإنسان لا يمكن أن تتعلَّق بذات الله تعالى؛ لكونه موجودًا مجردًا بسيطًا
لا يدرك بالحواس الخمس، وإنما تتعلَّق بالموجودات التي يمكن إدراكها



١٩٧



بهذه الحواس، ويستنتجون من ذلك أَنَّ محبة الله تعالى إنما تتعلّق حقيقةً بمحبة آثار رحمته ومحبة نعمه كالجنة مثلاً، ثم تُنسب هذه المحبة عرضاً إليه تعالى؛ لكن هذا الادّعاء لا ينسجم مع الآيات والروايات التي تصرّح بمحبة الله تعالى، حيث يُستنبط من هذه الآيات والروايات على نحو القطع واليقين إمكان تعلّق المحبة بذاته تعالى، كما يُستنبط منها وجود أفراد يحبّون الله تعالى ويأنسون بقربه وأفراد لا ينعمون بلذة هذه المحبة.

فنرى في إحدى الآيات الشريفة، أن الله تعالى يصف محبة المؤمنين له بأنها أشدّ من محبة أولئك الذين اتّخذوا غيره أولياءً وتعلّقوا بحبّهم من دون الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(١).

وكما أشرنا سابقاً، فإن الإنسان إنما يُحبّ شخصاً أو شيئاً معيَّناً بسبب معرفته إياه وإدراكه اللذة الناشئة عن الارتباط به. أما بالنسبة إلى الله تعالى - الذي نعجز عن معرفة كنهه حقيقته - فكيف يمكننا إدراك جماله وكماله الذي يبعث في أنفسنا تلك اللذة التي تدفعنا إلى محبته؟ هذا الجمال والكمال الذي أشار إليه الإمام الباقر عليه السلام في دعائه، وسأل الله تعالى أن يمنّ عليه بقليل منه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ جَمَالِكَ بِأَجْمَلِهِ وَكُلُّ جَمَالِكَ جَمِيلٌ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِجَمَالِكَ كُلَّهُ [...] اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ كَمَالِكَ بِأَكْمَلِهِ وَكُلُّ كَمَالِكَ كَامِلٌ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكَمَالِكَ كُلَّهُ»^(٢).

(١) سورة البقرة، الآية ١٦٥.

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء السحر.



ورغم أن فهمنا القاصر لا يسع حقيقة جمال الله تعالى وكماله الذي هو عين ذاته، ونعجز عن إدراك كمال معرفته؛ بيد أنه يمكننا أن ندرك أن لله تعالى جمالاً وكمالاً خاصاً بذاته، عن طريق معرفة آثار هذا الجمال والكمال المتمثلة برحمة الله الواسعة ونعمه الكثيرة في عالم الوجود، سواء النعم المادية أو المعنوية، وهذه الآثار هي التي تجعلنا نحَبّ صفات الله الجمالية والجلالية والكمالية، وتبعث في أنفسنا لذة عظيمة.

إن هذه المعرفة تجعلنا ندرك أن الله تعالى ذاتٌ تتَّصف بجميع صفات الكمال، وهذا يحصل لنا بالعلم الحسولي؛ ويتحقّق - بالعلم الحضورى - عند قلّة من أولياء الله تعالى وخواصّه ممن بلغوا أعلى منازل الكمال الإنساني، حتى أنهم يصلون في معرفة الله إلى منزلة يرون فيها الله تعالى وصفات جلالة وجماله بقلوبهم.

كيفية بلوغ منزلة حُبّ الله والأنس به تعالى

بعد أن وقفنا على مدى عظمة وأهميّة حُبّ الله تعالى والأنس به، يتبادر الآن إلى الأذهان السؤال التالي: لماذا نرى البعض يقعون في حُبّ بعض الأشخاص ويأمنون بوجودهم؛ لكنهم في الوقت ذاته يتهاونون في السعي لكسب محبة الله تعالى ولا يبادرون للوصول إلى منزلة الأنس معه؟

إن ما يميّز الذين لا يأمنون بالله تعالى، هو تفاقمهم عند قيامهم تلك الدقائق المعدودة للصلاة والوقوف بين يدي الله تعالى؛ بل يشعرون أن الصلاة ومناجاة الله تعالى عبءٌ عليهم وكالحمل الثقيل على أكتافهم فيسعون للتخلص منه بأسرع ما يمكن.



وقد وصف الله تعالى في القرآن الكريم تثاقل أولئك الأفراد ضعيفي الإيمان عند قيامهم للصلاة بقوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١).

حتى أولئك الذين يواظبون على أداء صلاة الجماعة، تجدهم يذهبون إلى الصلاة خلف الإمام الذي يُسرّع في صلاته، ويكتفون بأداء الواجبات في الصلاة فيُتمّونها بأسرع ما يمكن حتى يتفرّغوا لأداء أعمالهم اليومية.

ونحن عندما نُمعن النظر في أنفسنا ونفكر بما حولنا، نُدرك أنّنا نفتقد في داخلنا ذلك الشوق الذي يدفعنا نحو عبادة الله تعالى والأنس به؛ بل نكتشف الكثير من الموانع والمشاكل ووسائل الترفيه التي تقف في طريق عبادتنا لله وتشغلنا عن الأنس به، فمثلاً عندما نعود إلى البيت سرعان ما نذهب لمشاهدة التلفاز ونشغل بمشاهدة الأفلام والبرامج الترفيهية التي تعرضها القنوات التلفزيونية المختلفة، وهذا الأمر يبعدنا عن التوجّه بقلبٍ صافٍ لصلاة ركعتين قرباً إلى الله تعالى أو الأنس بقراءة صفحة واحدة من القرآن الكريم والتدبّر بمضامينها الإلهية، حتى أنّنا نخلق المبرّرات الكثيرة لتبرير انشغالنا بهذه الوسائل الترفيهية التي تبعّدنا عن الأنس بعبادة الله تعالى.

فما هو السبيل الذي يقربنا - ولو قليلاً - من منزلة أولياء الله، الذين لا يغفلون لحظةً واحدةً عن ذكر الله تعالى والأنس به، وإذا عجزنا عن اغتنام الفرص السانحة أمامنا للأنس بمناجاة الله تعالى حتى تمتلئ أفئدتنا بمحبّته، فعلى الأقلّ لتتلذّذ بطعم محبّته وأنس لدقائق معدودة بعبودية مناجاته؟



هذا السؤال طرحه أحد الأشخاص في المحاضرات السابقة، وقلنا في الإجابة عنه: إن الإنسان كلما فكّر في حسنات الآخرين والنعم الكثيرة التي أنعم الله تعالى بها عليهم، ازدادت محبة الآخرين ومحبة الله تعالى في قلبه؛ لهذا نجد في الحديث القدسي أن الله تعالى يخاطب داوود عليه السلام قائلاً: «أَحْبَبَنِي وَحَبَّبَنِي إِلَى خَلْقِي قَالَ: يَا رَبُّ، نَعَمْ أَنَا أَحْبَبُكَ فَكَيْفَ أَحَبُّبُكَ إِلَى خَلْقِكَ؟ قَالَ: أَذْكُرُ أَيَادِيَّ عِنْدَهُمْ فَإِنَّكَ إِذَا ذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُمْ أَحَبُّونِي»^(١).

إن الإنسان يُحِبُّ بالفطرة كل من يُحسن إليه؛ لذا فكلما أدرك قيمة وعظمة نعم الله عليه ازداد حُبُّه له تعالى، وفي المقابل كلما قلَّ تفكُّره بنعم الله ولم يُدرك عظمة هذه النعم وأهميتها، قلَّت - بنفس الدرجة - محبته لله تعالى.

فنحن - ورغم اختلاف الظروف وتباين الصفات والأحاسيس بين الأفراد - يندر أن نجد شخصاً سليماً لا يقدر الخدمات التي يقدمها له الآخرون.

إنَّ نعم الله تعالى على كل إنسان لا تُعدُّ ولا تُحصى، فكيف بعدد نعمه تعالى على بني البشر جميعاً، وعليه فلو أمعن الإنسان التفكُّر في نعم الله الكثيرة عليه، ألن يؤدي ذلك إلى زيادة محبته لله تعالى؟

وبالطبع، فمن الواضح أن نعم الله تعالى لا تنحصر بالنعم المادية والظاهرية فقط؛ بل تشمل النعم المعنوية التي هي أجلُّ وأعظم بمراتب كثيرة من النعم المادية المحسوسة، كتأخير العقوبة على أعمال الإنسان، ومنح الناس الفرصة لتعويض ما فات، وإسقاط العقوبة بالتوبة، وتوفيره



الأسباب المادّية والمعنوية التي تجذب الإنسان نحو عبادته تعالى، وكذلك تهيئة الأسباب والوسائل التي تحصّن الإنسان من الوقوع في شرك الشيطان وتنقذه من عوامل الفساد وترشده نحو نور الهداية والإيمان.

تنويه: إن الإنسان إذا ما استثمر جزءاً من وقته في التفكير بنعم الله تعالى، سواء بالاستعانة بالآخرين أو حسب قدراته وقابليّاته الفكرية، فإنه لا محالة سيُدرك بعضاً من هذه النعم الإلهية التي ستترك بدورها نوعاً من المحبة لله في قلبه؛ لكن إذا ما شغل جُلّ وقته في العمل وكسب الرزق وإدارة أموره اليومية، فإنه سينسى التفكير بنعم الله مما سيفقده نعمة حبّ الله؛ لأنّ مُجرّد معرفة نعم الله والتدبّر فيها لا يكفي في استقرار محبة الله في قلب الإنسان. وهذا يحدث أيضاً في علاقات الحبّ العادية بين الناس؛ إذ عندما يعتقد الإنسان تجاه شخص بأنه يتّصف بصفات حسنة وفضائل أخلاقية أو أنّه قدّم له خدمةً معيّنةً فإنه سيقع في حُبّه؛ لكنّه سينسى هذا الحبّ بعد فترة وجيزة. فالحبّ ليس علاقةً عابرة؛ بل حالة عاطفيّة راسخة تختلف عن حالة الإعجاب العابرة، وكلّما أحبّ الإنسانُ شخصاً ما، أظهر له الخضوع والتذلّل، وازداد شوقه إليه إذا غاب عنه، وللوصول إلى هذا النوع من الحبّ لا بد من معرفة نعم الله تعالى والتدبّر فيها والاستمرار على هذه الحالة من التفكير والاهتمام بهذه النعم. فاهتمام الإنسان بنعم الله تعالى - التي تمثّل منشأ محبّته - سيؤدّي إلى ترسيخ هذه المحبة في قلب الإنسان ويزيدها قوّة وثباتاً، أما إذا غفل عن هذه المحبة فإنها ستحوّل إلى مجرّد حالة عاطفيّة عابرة تُسرّع ما تنتهي وتزول وتفقد كل عوامل الثبات والدوام.



إِذَا، فلكسب محبة الله عز وجل لا بد من التعرف على عظمة نعمه والمواظبة على الاهتمام والتفكير بعظمة هذه النعم، وأن لا نغفل أبداً عن ذكر الله وشكر نعمه علينا.

ويمكن أن نستنبط هذا المعنى من هذه الآية الشريفة في القرآن الكريم، حيث يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾^(١).

فقد كان العرب في الجاهلية يجتمعون في «منى» بعد انتهاء مراسم الحج ويبقون عدة أيام ينشدون فيها الشعر يتفاخرون بأحسابهم وأنسابهم، فنهى الله - في هذه الآية الشريفة - المسلمين عن هذه العادة الجاهلية، وأمرهم بالانشغال بذكره بعد فراغهم من مراسم الحج. فالآية الشريفة توصي الإنسان بوجوب حب الله تعالى كحبه لآبائه وتفاخره بهم، بسبب النعم الكثيرة التي سخرها له ومنها نعمة الهداية لدين الحق، وبسبب حق الله تعالى عليه الذي يمثل أهم الحقوق وأعظمها.

إن الإنسان إذا ما أراد أن يحب الله تعالى وأن يسمو هذا الحب ويتفوق على محبة أي شخص آخر، لا بد أن يشغل ذهنه دائماً بذكر الله والتفكير بعظمة نعمه عليه؛ وإلا فستتغلب تدريجياً محبة الآخرين على محبته لله تعالى، وعندها ستخبو وتخفت في قلبه محبته لله تعالى حتى تُسيطر أهواء النفس على إرادة الإنسان فتميل به نحو محبة الشيطان بدلاً عن محبة الله، وحينها سيفقد نعمة التلذذ بذكر الله، وستفقد الصلاة جاذبيتها وتأثيرها عليه، ويفقد الرغبة بزيارة مرقد رسول الله ﷺ



٢٠٣



ومراقد الأئمة عليهم السلام؛ لأن سعة قلب الإنسان وقابليته محدودة لا تسمح باستيعاب حُبِّ الله وحُبِّ شخص آخر في آن واحد: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾^(١).

وقد ادّعى علماء النفس أن الإنسان يمكنه أن يهتم بعدة أشياء في آن واحد، حتّى أنّ بعضهم قال يمكنه أن يهتم بثمانية أشياء في الوقت نفسه؛ لكن من الطبيعي أنّ شدة تعلّق الإنسان وكيفيته بكل واحد من هذه الأشياء ستخفّض كلّما ازداد عددها، والعكس صحيح، فكلّما قلّ عدد الأشياء التي يتعلّق بها الإنسان في آن واحد، ازدادت شدة هذا التعلّق، فكيف إذا ما انحصر تفكيره وتعلّقه بشيء واحد فقط، فليس من شك أنّ هذا التعلّق سيصبح على أشدّ مراتبه وأعظمها قوّة وثباتاً.

وإذا ما تعرّف الإنسان على نعم الله وزاد من تفكيره وتدبّره فيها، وأضاف إلى هذه المعرفة اهتماماً شديداً بذكر الله تعالى وسعى إلى إفراغ قلبه من محبة غيره سبحانه، فسوف يكون لذلك الاهتمام تأثير بالغ على جذبه نحو عبادة الله وزيادة محبته لله الواحد الأحد، ويمكن أن يظهر هذا الاهتمام مثلاً في أدائه للصلاة بصفاء قلب وتركيز تام على عبادة الله فحسب، وإبعاد تفكيره عن كل ما يشغله عن ذكره الله تعالى من أهواء ورغبات مادية.

طريق أنس أولياء الله به سبحانه وتعالى

يتّضح مما تقدّم أبسط الطرق وأكثرها تداولاً عند الناس لتقوية رغبتهم في ذكر الله وزيادة محبته في قلوبهم، والتي تكمن في تفكير الإنسان

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤.



في نِعَمِ الله وعظمته إحسانه إليه، فيسعى لشكر الله على هذه النعم وهذا الإحسان، فتنشأ نتيجةً لذلك محبة الله في قلبه.

أما الخواص من عباد الله، فللوصول إلى هذه المنزلة من دوام التفكير بالله تعالى وذكره، فإنهم لا يكتفون بسلوك طريق التدبّر في نعمه سبحانه ومعرفة صفاته الأفعالية التي تنسجم مع قدرات الناس العاديين وتتلائم مع قابلياتهم الفكرية والعقلية؛ بل يسعون إلى إدراك ذات الله تعالى ومعرفة صفاته الجمالية والجلالية، وبعد أن يَصِلُوا إلى مرتبة عالية من الفهم العميق لعظمة ذات الله ومراتبه الكمالية اللامتناهية، يُدركون أَنَّ الله تعالى كمال وجمال محض ومنزه عن كل نقص، ولهذا ينفذ حُبّه في قلوبهم فيعشقون معبودهم لكمالهِ وجمالهِ المحض، لا أنهم يعشقونه بسبب النعم التي أنعم بها عليهم.

في أنواع الحُبِّ الإنساني، نجد أحياناً أن بعض الناس يهتمون بشخصٍ ما لما يمتلكه من صفات كمالية وجمالية خاصّة، كالنبوغ والذكاء والمهارات الفنيّة، فتكون هذه الصفات سبباً لنفوذ حُبّه في قلوبهم لا بسبب إحسانه أو خدمته لهم، فمثلاً نحن نعجب بشخصيّة مثل حاتم الطائي ونُحبّه عندما نسمع عن كرمه وجوده وبذله كل ما يملك للآخرين والمحتاجين، بالرغم من أننا لم نره ولم نستفد من خدماته وصفاته الإنسانية هذه؛ ولمثل هذه الأسباب يُعجب الناس ويُحبّون عدداً من الشخصيّات البارزة في العالم في مختلف المراحل التاريخية، مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) الذي يمثّل أصدق نموذج لهذه الشخصيّات التاريخية. فالبعض كان يُحبّه لما يمثّله من نموذج صادق للعدالة، حيث طبّق هذه العدالة بأعلى مراتبها خلال فترة حكمته، فكان يقدّم العون للفقراء واليتامى والمحتاجين والطبقات الفقيرة في



٢٠٥



المجتمع الإسلامي آنذاك؛ رغم أن هؤلاء المحبين لم يُدركوا عصر أمير المؤمنين عليه السلام حتى يستفيدوا من نتائج تطبيقه للعدالة وكرمه وجوده وإنفاقه وما قدّمه من خدمات جليلة في المجتمع؛ لكن من الجلي أن نور الهداية وثمره وجود هذا الإمام الهمام ما زالت خالدةً في نفوس وقلوب محبيه ومريديه وشاملة لهم، وأن صفات الكمال التي كان يحملها ومن بينها صفة العدالة العلوية ما زالت تتجلى في صفات ولّده منقذ البشرية حضرة بقية الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه)، وستتجلى أكثر بشكل خاص حتى تبلغ مرتبة الكمال في عصر ظهوره.

ولا شك في أن المحبة الناشئة في القلب جزاء التدبّر في الصفات الكمالية - ومنها محبة الله - تكون أسمى وأعلى مرتبةً من المحبة الناشئة بسبب الخدمات والمنافع التي يقدمها شخص ما، فالنوع الأول من المحبة أكثر ثباتاً وباعثاً على الحمد والشكر، أما النوع الثاني من المحبة فيكون موجّباً للشكر. ونتيجةً لهذه المحبة الخالصة والنقية من جميع الشوائب يُدرك أولياء الله الحقائق والمعارف الأصلية والأنوار الإلهية، فينالون أسمى مراتب المعرفة.

وكلما ازدادت معرفة الإنسان بحقيقة الله، ازداد حُبّه وعشقه له تعالى، وهذه المعرفة تبدأ عادةً عند الإنسان من معرفته للأفعال الإلهية المرتبطة مباشرةً بحاجته وحياته اليومية، ثم تنتقل إلى معرفة الأفعال الإلهية الأخرى، حتى ترتقي في النهاية لتصل إلى معرفة صفات الله الجلالية والجمالية ورحمته الخاصة والعامة.

أما المرتبة الأعلى للمعرفة فهي مرتبة المعرفة التجريدية والانتزاعية التي يصل إليها أولياء الله والخواص من عباده، فأصحاب هذه المعرفة لا يرون أي استقلال لما سوى الله تعالى، أما باقي الأشياء في عالم الوجود



فهي تمثّل عندهم عين الربط والإضافة ويرونها آيةً من آيات وجود الله تعالى. إن هذه المعرفة المنبثقة من القرآن تختص بخاتم الأنبياء ﷺ وأولياء الله، ولن يصل إلى فهم هذه الحقيقة المجردة سوى النبي ﷺ والأولياء الذين تربّوا على يديه، حتى ينظروا إلى جميع المشهودات والموجودات كآية من آيات الله، فهم لا يرون فيها سوى الله تعالى. وفي ظل هذه المعرفة، ندرك أنّ هذا الوجود الكامل يستحقّ الحُبّ والتعلّق، ثم يسري شعاع هذا الحُبّ وتأثيره تدريجيّاً ليشمل جميع المظاهر والتجليات الوجودية لهذا الوجود الأصيل القائم بذاته.

نصاب محبة الله

نحن عندما نُحبّ شخصاً ما فإن هذا الحُبّ ينشأ نتيجةً لحُبنا للصفات الكمالية التي يحملها ذلك الشخص، فإذا علمنا بوجود هذه الصفات الكمالية بمراتب أعلى كثيراً عند موجود آخر، فإن حُبنا للموجود الثاني سيفوق بنفس المقدار حُبنا للموجود الأوّل. فلو افترضنا مثلاً أن شخصاً معوزاً يعيش في ظل ظروف اقتصادية صعبة يحتاج فيها إلى تهيئة متطلبات معيشته اليومية من أداء دين أو توفير دواء، وجد من يمدّ له يد المساعدة لوجه الله دون مَنْ أو أذى وأهداه مبلغاً من المال ليسدّ به احتياجاته، فإنه بالطبع سيتعلّق كثيراً بهذا الإنسان ويحبّه حبّاً شديداً من أعماق قلبه، لكن إذا قدّم له شخص آخر أضعاف هذا المبلغ، فإن حُبّه للشخص الثاني سيفوق بنفس المقدار حُبّه للشخص الأوّل، وبنفس النسبة، كلما ازدادت الخدمات والإحسان الذي يقدّمه الآخرون لنا ازدادت محبّتنا لهم.

وللأسف نلاحظ أن محبة أغلب الناس لله تعالى ضعيفة ولا تصل حتى إلى درجة محبّتهم للآخرين، وقد حدّد القرآن الكريم نصاباً معيّناً



لمحبة الله هو أن تفوق محبة الله دائماً محبة الآخرين حتى لا تصبح محبة الآخرين مانعاً يحول دون طاعة الله تعالى، ولا شك في أنه كلما زادت محبتنا لله عن هذا النصاب كسبنا فضائل وصفات كمالية أكثر. ومن الطبيعي أن مَنْ نحبهم كالزوجة والأولاد يتوقعون منا أن نسعى لتوفير احتياجاتهم اليومية، كأن تحتاج الزوجة أن يوفر لها الزوج ملابس جيدة أو يشتري لها بيتاً بمواصفات معينة أو يأخذها لزيارة الأقارب والأصدقاء. إن هذه المطالب والاحتياجات تتزاحم أحياناً مع تكليفنا الشرعي، ويتوقف توفيرها على مخالفة واجباتنا وتكليفنا الشرعية، أو قد تؤدي إلى وقوعنا في الحرام؛ لهذا سنقف - ساعتها - عند مفترق طريقين، بين توفير هذه المتطلبات وبين أداء تكاليفنا الإلهية وواجباتنا الشرعية، كأن تهدد الزوجة زوجها بطلب الطلاق والانفصال عنه إذا لم يلبّ مطالبها ويوفّر احتياجاتها، وتنفيذ مثل هذا التهديد سيؤدي إلى تفكيك عرى الأسرة ويهدّد وجودها، وتلبية هذه المطالب من قبل الزوج تتوقف على تهيئة المال بالطرق غير المشروعة والحرام، أو تتطلب الظروف أحياناً من الإنسان أن يجاهد في سبيل الله وينبري لقتال الأعداء، لكن المقربين منه يعارضون هذا الأمر، حينها تتزاحم طاعة الله وأداء التكليف الشرعي مع رغبات الآخرين، فإذا كانت محبة الإنسان للآخرين تفوق محبته لله، فإنه سيخالف أمر الله ويستجيب لرغبات الآخرين، فينجرّ به الأمر إلى استحقاق العقوبة الإلهية على ذلك.

إن محبة الإنسان لله يجب أن تفوق محبته للآخرين، وإذا ما تمكّن من تغليب محبة الله على محبته للآخرين، فإنه في حالة التزاحم سيرجّح طاعة أمر الله تعالى على تلبية رغبات الآخرين، ولن يتوانى عن أداء تكليفه الشرعي. والله تعالى يقول في كتابه الكريم مهذباً المسلمين: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ



وَأَمْوَالٌ أَقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١﴾.

إن أكثر المؤمنين لا يستطيعون إفراغ قلوبهم من محبة غير الله، لكنهم في الوقت ذاته يجعلون محبة الله تفوق محبتهم، وهذا لا ضير فيه، فالآية الشريفة التي حدّدت نصاب محبة الله لا تنفي محبة الآخرين في قلوب المؤمنين، فقلوه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(١) يدلّ أيضاً على محبة المؤمنين لغير الله، لكن محبتهم لله تتفوّق على محبتهم للآخرين، وبالتالي ففي مقام التزاحم والتعارض لن يتخلّف المؤمن عن أداء تكليفه الشرعي ولن يتمرّد على طاعة أمر الله، وسيرجّح تنفيذ أوامر الله تعالى وتكليفه على رغبات الآخرين ومطالبهم.

(١) سورة التوبة، الآية ٢٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٦٥.



المقال الثامن والثلاثون نظرة في منزلة القرب من الله تعالى

في بداية المناجاة يقول الإمام السجاد (عليه السلام):

«إِلَهِي مَنْ ذَا الَّذِي ذَاقَ حَلَاوَةَ مَحَبَّتِكَ
فَرَامَ مِنْكَ بَدَلًا».



على ضوء هذا الكلام، نستنبط أن المتكلم قد ضَمَّن كلماته هذه طلبًا آخر، وهو أن يشملَه الله تعالى دائمًا بمحبته؛ لأنه بعد أن ذاق لذة طعمها زاد شوقه وجمحت رغبته للتزود أكثر بعبق هذه المحبة حتى تفيض جوانحه بها.

بعد ذلك يستمرّ هذا القلب المُفعم بعشق ربّه في عرض مطالبه الواحد بعد الآخر، فيقول:

«إِلَهِي فَاجْعَلْنَا مِمَّنْ اصْطَفَيْتَهُ لِقُرْبِكَ
وَوَلَايَتِكَ، وَأَخْلَصْتَهُ لِرُودِكَ وَمَحَبَّتِكَ،
وَشَوْقَتَهُ إِلَى لِقَائِكَ، وَرَضَّيْتَهُ بِقَضَائِكَ».



الأنس التي تبين معنى القرب من الله

إنَّ مفهوم القرب الذي نستعمله في حواراتنا الشخصية - كسائر المفاهيم الأخرى - وضع في البداية بما ينسجم مع المصاديق الجسمانية؛ لأننا نولدُ في عالم الطبيعة وننشأ في خضمِّ ظروفها وتحولاتها، ولذا نتعامل عادةً مع الأمور الحسيّة وتنمو قابليتنا الفكرية تحت تأثير قوى الطبيعة، مما يجعل المفاهيم التي نستعملها عادةً تستند إلى أسس طبيعية وجسمانية، ثم تتطوّر تدريجيّاً قابليتنا الفكرية والعقلية لتعمل على تجريد هذه المفاهيم من خواصّها الحسيّة والمادّية لتتطبق وتتلائم مع المفاهيم المجرّدة والمعنوية، ومنها الانطباق على الذات الإلهية وصفاتها. فمثلاً نحن نطلق مفهوم الوجود على الله تعالى ونقول إنّ الله موجود، رغم أننا ننتزع مفهوم الوجود ونُدرك معناه استناداً إلى الأمور الحسيّة، وبعد تجريده من صفاته الحسيّة والمادّية نقوم بإطلاقه على الله تعالى، فنقول: «الله موجود». كذلك الحال بالنسبة إلى صفات العلم والقدرة وغيرها من الصفات والمفاهيم التي تقبل الانطباق على الله تعالى، فإننا نطلقها على الله بعد تجريدها من النقص والخواص الحسيّة.

واستناداً إلى تجريد هذه المفاهيم القابلة للانطباق على الله تعالى، يصف علماء الكلام علَمَ الله وقدرته بقولهم: عالم لا كعلمنا، وقادر لا كقدرتنا.

ويُعدّ مصطلح القرب الإلهي من أكثر الاصطلاحات شيوعاً وتداولاً في المعارف الإسلامية؛ بل استعملته الأديان الأخرى حتّى الأديان غير التوحيدية منها، فالكفار من عبدة الأصنام - مثلاً - كانوا يعرفون هذا الاصطلاح، وقد استعملوه في تبرير عبادتهم للأصنام، كما جاء في الآية الشريفة: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا



نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ^(١).

إنَّ مفهوم القرب يُنتزع كسائر المفاهيم الأخرى من الأمور الحسّية والعلاقات التي تربط بينها، فعندما تكون المسافة بين شيئين قليلة جداً نقول إنهما قريبان من بعضهما، وبالعكس يكونان بعيدين عن بعضهما إذا كانت المسافة بينهما كبيرة. وبعد استعمال مفهوم «القرب» في «القرب المكاني» تمت توسعة دائرة هذا الاستعمال لتشمل القرب الزماني أيضاً، فإذا كانت الفاصلة الزمانية بين شيئين قليلة، يقال إنهما قريبان من بعضهما، وبالعكس يقال إنهما بعيدان إذا كانت الفاصلة الزمانية بينهما كبيرة.

ماهية القرب الإلهي

١. التفسير الأول لمعنى القرب الإلهي:

على ضوء ما تعلّمناه من رسالات الأنبياء وتعاليم أئمتنا المعصومين عليهم السلام، فإن الله موجود مجرد وليس بجسم؛ لذا فمن المسلّم به أن القرب من الله لا يمكن أن يكون من نوع القرب الجسماني من قبيل القرب المكاني والزماني. ورغم صعوبة فهم وإدراك هذه الحقيقة، لكن البعض حاول تبينها وتفسيرها، ومن التفسيرات التي ذكروها لهذا الموضوع، أن القرب قد يُستعمل في بعض العلاقات القائمة بين الأفراد بمعناه المعنوي، وليس بمعناه الجسماني الذي يمثّل القرب المكاني والزماني. ويحدث هذا القرب بين شخصين تربطهما علاقة قويّة، بحيث



إذا طلب أحدهما حاجةً من الآخر، فإنّه سيستجيب لطلبه ويقضي له حاجته، ثم يعتمد إلى إجابة طلباته الأخرى لما يمتلكه من احترام وحب لهذا الشخص. وعلى هذا الأساس، فإذا ما حظي شخص بمكانة مرموقة واحترام كبير عند شخص آخر، فسيقال: إنه مقرب عند ذلك الشخص. وبالطبع، لن يكون هذا القرب من نوع القرب الجسماني؛ بل يعني أنه يحظى بمكانة خاصّة عند الآخرين.

وفي المقابل لو كانت العلاقة بين شخصين تتميز بانعدام الثقة وعدم الاحترام، فسيقال عنهما إنهما بعيدان.

إذاً، فإذا ما تحدّثنا عن القرب من الله، فإنما نعني به «القرب المعنوي». ورغم أننا نعجز عن فهم حقيقة هذا القرب، إذ لا يمكن قياسه بالقرب الروحي والمعنوي المتعارف بين الناس؛ لكنه بلا شك يتحقق نتيجةً لطاعة الإنسان أوامر ربّه وقيامه بالأعمال الصالحة التي تنال رضا الله. وبعد حصول هذا القرب يحظى الإنسان بمكانة خاصّة عند ربّه، يستجيب الله - على إثرها - دعاء عبده ويقضي له حوائجه. ومما يؤيد هذا التفسير عن القرب الإلهي، رواية «قرب النوافل» التي جاءت في كثير من مصادرنا الروائية والحديثيّة، وحظيت باهتمام وشرح علمائنا العظام ومن بينهم الشيخ البهائي في كتاب الأربعين، والإمام الخميني في كتابه الأربعون حديثاً، فقد جاء في هذا الحديث القدسي: «لا يزال عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ مُخْلِصًا لِي حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أُحِبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا إِنْ سَأَلَنِي أُعْطِيَتْهُ وَإِنْ اسْتَعَاذَنِي أَعِزَّتُهُ»^(١).



٢١٣



فالعبرة التي جاءت في ذيل الرواية «إِنْ سَأَلَنِي أُعْطَيْتُهُ وَإِنْ اسْتَعَاذَنِي أَعِذَّتُهُ» تؤيد هذا التفسير عن القرب الإلهي، حيث تُبَيِّنُ أَنَّ قَرَبَ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ سَيُؤَدِّي إِلَى إِسْتِجَابَةِ اللَّهِ دَعَاءَهُ وَسُؤَالَهُ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي وَصْفِنَا لِلْمُقَرَّبِ مِنَ الْحَاكِمِ، فَهُوَ يَعْنِي أَنَّ الْحَاكِمَ يَسْتَجِيبُ لِكُلِّ طَلْبَاتِهِ وَيَنْفِذُهَا لَهُ.

٢. التفسير الثاني لمعنى القرب الإلهي:

في التفسير الأول للقرب الإلهي، قلنا إنه يأتي بمعنى أمر معنوي واعتباري، أما التفسير الثاني للقرب الإلهي فيوصف بأنه أمر معنوي وحقيقي (وليس اعتباري)، وهو المعنى الذي تؤيده الكثير من الآيات القرآنية، منها الآيات التي تصف مقام الشهداء ومنزلتهم عند الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزِّقُونَ﴾^(١).

إنَّ هذه الآية الشريفة ليست بصدد بيان رضا الله عن بعض الأشخاص وإجابته لدُعائهم بسبب هذا الرضا؛ بل هي تبين حقيقة أَنَّ الشهداء أحياء عند الله، وينعمون بالقرب منه، ويتمتعون في الجنة برزقهم الذي منَّ الله به عليهم؛ وعليه فإنَّ ما يُستنبط من الآية الشريفة هو أنَّ هؤلاء الشهداء قد نالوا منزلة القرب من الله.

وفي آية أخرى نجد وصف منزلة المتقين ومقامهم في الجنة، إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٦﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ

(١) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.



مُقْتَدِرٌ^(١)؛ فهذه الآية الشريفة تدلّ على أَنَّ الْمُتَّقِينَ ينزلون عند الله منزلةً رفيعةً ويحظون برحمته تعالى ورضاه.

وبعبارة أخرى: ينزلون بجوار الله وبالقرب منه؛ بيد أَنَّ معنى القرب الذي تدلّ عليه هذه الآية الشريفة يختلف كثيرًا عن القرب الذي يصل إليه الإنسان نتيجةً لعبوديّته وطاعته لله، فيحظى بسبب هذه الطاعة بمنزلة رفيعة يستجيب الله تعالى على إثرها لسؤال هذا العبد، ويقضي حاجته.

وفي آية أخرى أيضًا يصف الله منزلة القرب منه بقوله: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَاتٍ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

فبعد أَنَّ آمنت امرأة فرعون بالله وصدّقت برسالة موسى عليه السلام، تعرّضت من قبل فرعون لأشدّ وأقسى أنواع العذاب، فتوجّهت إلى ربّها بالدعاء وطلبت أن يرفعها إليه وينزلها عنده وبالقرب منه منزلًا رفيعةً لتنعم في الجنّة بنعمه التي أعدّها للمقربين منه.

إذًا؛ فأمرأة فرعون - التي جعلها الله قدوةً ومثالًا لجميع المؤمنين - عندما تدعو ربّها أن ينزلها منزلًا في الجنّة بالقرب منه تعالى، فإنها لم تُطلق كلامًا جزافيًا أو عن جهل؛ بل هي تُخبر المؤمنين عن حقيقة مقام القرب من الله.

(١) سورة القمر، الآيتان ٥٤ - ٥٥.

(٢) سورة التحريم، الآية ١١.



٢١٥



إن التعبير في هذه الآية - وآيات أخرى في القرآن الكريم - بكلمات مثل بيت أو قصر في الجنة، أو استعمال أسماء وكلمات لوصف النعم الإلهية في الجنة مشابهة للكلمات المتداولة في الدنيا، إنما جاء لتبسيط معنى النعم الإلهية الأبدية التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى في الجنة، وتقريب معنى هذه الحقائق الإلهية المتعالية إنما ليتسنى إدراكها وفهمها من قبل أذهاننا الغارقة في عالم المادّة والحس؛ وإلا فالله تعالى ليس بجسم حتى يكون جواره والقرب منه من النوع الجسماني والمادي، وما يوصف بالقصر أو النعم الإلهية في الجنة ليست محدودة بالنعم والإمكانات الدنيوية؛ بل الجنة وجميع نعمها الإلهية هي حقائق واسعة أبدية لامتناهيّة.

وعلى كل حال، هذه الآية الشريفة تحدّثت عن حقيقة مقام القرب الإلهي وأنّ له حقيقةً خارجيّةً وليس قرباً اعتبارياً يشبه المنزلة التي يحظى بها الشخص عند الحاكم مثلاً. كما أنّ الله تعالى بيّن مقام القرب الحقيقي العام والشامل لجميع الناس منه، بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(١).

٣. الفرق بين القرب التكويني والقرب الاختياري من الله تعالى:

القرب من الله تعالى في الآية الشريفة أعلاه هو قرب تكويني متساو بالنسبة لجميع عباد الله، وهو يختلف عن القرب الاختياري الذي دعا به أولياء الله ومنهم الإمام السجاد (عليه السلام)، وتوسّلوا إلى الله في هذه المناجاة أن يُنعم به عليهم.



وهذا القرب التكويني قرب دائم يشمل جميع الناس، فالله سبحانه وتعالى عندما يفيض الحياة والوجود تدريجيًا على الإنسان، فإنه يفيضها على إنسان حاضر عنده وبالقرب منه، وهذه الإفاضة متوقفة على هذا الحضور والقرب، كحال الإنسان الذي يريد أن يعطي شخصًا آخر مالًا، فإنه لا بد أن يقترب منه حتى يضع المال في يده.

فنحن إذا ما اعتقدنا أن الله تعالى يُنعم علينا دائمًا بالوجود، وهو الذي يفيض علينا باستمرار القدرة والحياة، وبعد أن نصل إلى أجلنا يتوفى منّا هذه الروح، فلن يصعب علينا حينئذ فهم معنى أن الإنسان وجميع الموجودات قريبة من الله تعالى؛ لأن فعل الخلق وإفاضة الحياة وسائر أشكال الوجود التي تتم من قبل الله مباشرة وبلا واسطة، تتوقف على هذا القرب.

لكن من الصعب علينا فهم القرب الناشئ عن الاختيار والإرادة وعبادة الله، ذلك القرب الذي يحصل للأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام وأتباعهم الذين نهلوا من فيض علومهم، فنحن كما نعجز عن فهم حقيقة صفات الله وأفعاله، نعجز أيضًا عن إدراك ماهية قرب الأفراد من الله تعالى؛ لكن ما يُدركه عقلنا هو معنى هذه المفاهيم بعد تنزيهها وتجريدها عن الصفات المادية والحسية بما ينسجم مع شأن الله ومقامه، باعتبار أن وجود الموجودات المجردة غير المادية إنما هو من سنخ الموجودات العلمية والإدراكية، حتى هوية الإنسان التي نشير إليها بلفظ «أنا»، فليست هي الجسم واليد والقدم؛ لأن ما يشكّل هذه الهوية التي نعبر عنها بلفظ «أنا»، يتميز بشعور وأحاسيس على عكس اليد والقدم الفاقدة لمثل هذا الشعور.



قد يتعرّض المرء - في ساحة المعركة أو في حادث - لقطع يده وقدمه دون أن يشعر بذلك؛ لكن بعد أن يلتفت ويعود له الوعي يشعر بألم الإصابة وبقطع بعض أعضاء جسمه، فلو كانت أعضاء جسمنا هي من تحدّد هويّتنا لما أمكن أن يُقطع قسم منها دون أن نشعر به. إذًا، فهويّتنا وهذه «الأنا» التي نُدرِكها - أي روحنا - إنما هي من سنخ العلم؛ بل هي عين العلم التي بواسطتها نتحدّث ونريد ونستعمل أعضاءنا. وعندما تكون روح الإنسان التي تعبّر عن هويّته من سنخ العلم، فتكاملها أيضًا يحصل بالعلم الحضورى الذي هو عين النفس، وكلّما كان العلم الحضورى للنفس أقوى، تكاملت النفس أكثر، وعليه فكّلما كانت النفس أقوى، كان العلم الحضورى وعالم الشهود أقوى وأشدّ.

العلاقة بين القرب من الله ومشاهدته

يُعنى بالتقرب نحو الله سبحانه - الذي يحصل باختيار الإنسان ونتيجةً لعبادته - رقي الإنسان وسموّه حتى يصل منزلةً يعرف فيها الله ويشاهده بشكل أفضل، ولا تنحصر هذه المعرفة بالعلم الحضورى وعن طريق الألفاظ والمفاهيم؛ بل تتحقّق معرفة الله وإدراك كُنه صفاته تعالى بالعلم الحضورى أيضًا.

فالإنسان أثناء الدعاء والمناجاة - خاصّةً في الأيام والليالي المباركة كلياالي القدر - يصل إلى حالة خاصّة يشعر فيها أنه يرى الله ويتكلّم معه ويناجيه عيانًا، وهذه الحالة التي يصل إليها الإنسان تمثّل مرتبةً من العلم الحضورى. كذلك إذا ما أحسّ الإنسان بالخطر الشديد وفَقَدَ كُلَّ أمل في النجاة، سيصل حينئذٍ إلى منزلة المشاهدة ويرى الله بالعلم الحضورى، وهذه الحقيقة يصفها الله تعالى في القرآن الكريم في الآية الشريفة



بقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾^(١).

وقد سأل رجلٌ مُلحدُ الإمامَ الصادقَ عليه السلام: ما هو الدليل على وجود الله؟ فأجابه الإمامُ قائلاً: «هَلْ رَكِبْتَ الْبَحْرَ؟»، قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: «فَهَلْ عَصَفَتْ بِكُمْ الرِّيحُ حَتَّى خَفَفْتُمْ الْغَرَقَ؟».

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: «فَهَلْ انْقَطَعَ رَجَاؤُكَ مِنَ الْمَرْكَبِ وَالْمَلَّاحِينَ؟».

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: «فَهَلْ تَتَّبَعْتَ نَفْسَكَ أَنْ تَمَّ مِنْ يَنْجِيكَ؟».

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: «فَإِنْ ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى»^(٢).

عندها قرأ الإمام عليه السلام الآيةَ الشريفة: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾^(٣).

ما نستفيدُه من هذه الرواية هو أن هذا الإنسان المُلحد حينما فَقَدَ الأمل بكل الأسباب والعوامل المادية، وَوَجَدَ نفسه عند حافة الغرق والموت، شَعر بوجود شخص ما فوق هذه العوامل والأسباب المادية يسعى لانتشاله وإنقاذه من الموت. وقد حصل له هذا الشعور نتيجةً

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٥.

(٢) ابن شهر آشوب، متشابه القرآن، الجزء ١، الصفحة ٢٧.

(٣) سورة النحل، الآية ٥٣.



للإخلاص القلبي والشهود الباطني، وبالتالي فهو يختلف عن الإدراك والمعرفة التي نصل إليها بواسطة برهان الصديقيين أو غيره من البراهين الخاصة بإثبات وجود الله؛ لأن تلك البراهين إنما تُثبت وجود موجود غائب خالق لهذا الكون، أما العلم الحضورى فإنه يهب الإنسان رؤية الله بقلبه؛ لكن هذه المعرفة وقتية ولا إرادية وسرعان ما يفقدها الإنسان بعد انتهاء الظروف الخاصة التي أوصلته إلى هذه المنزلة. أما بالنسبة لأولياء الله والصالحين الذين نشؤوا على أخلاق الأنبياء فإن هذه المعرفة - التي تطرأ بالصدفة للناس العاديين - تحصل لهم بإرادتهم وبشدة أكبر نتيجة للإخلاص في العبادة وتهذيب النفس، فيرون بقلوبهم أنّ الله تعالى حاضر في كل مكان، ويشعرون بسبب هذه المشاهدة بلذة لا يمكن وصفها، حتّى أنها ألذّ عندهم من اللذة التي يشعر بها الطفل وهو يرتمي في حجر أمّه إذا ما التقى بها بعد فراق طويل وبكاء وألم وطول انتظار، وهي تضمّه إلى صدرها الحنون وتداعب خصلات شعره بلطف وحنان شديد.

وفيما يتعلّق بهذا النوع من القرب من الله تعالى، وهو من قبيل الشهود الحضورى لله، روي أن أحداً سأل أمير المؤمنين عليه السلام: «هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ حِينَ عَبْدَتَهُ؟»، فأجابه أمير المؤمنين عليه السلام: «وَيْلَكَ مَا كُنْتُ أَعْبُدُ رَبًّا لَمْ أَرَهُ»، قَالَ: «وَكَيْفَ رَأَيْتَهُ؟»، قَالَ: «وَيْلَكَ لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ فِي مَشَاهِدَةِ الْأَبْصَارِ وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ»^(١).

إن الأشخاص الذين ينالون هذا المعنى من القرب الإلهي بحيث يرون الله بحقائق الإيمان، ويشعرون بكل جوارحهم أنهم يقفون في حضرة الله وبالقرب منه، فإنهم يحظون بعناية خاصة من ربهم ويعطيهم كل ما



يسألونه. ومقام القرب الذي وصلوا إليه هو السبب في إجابة الله تعالى لسؤالهم، لا أن هذه الأجابة تمثل تفسيراً لمعنى هذا المقام، كما هو الحال بالنسبة للتفسير الأول لمعنى القرب من الله، حيث فسّرنا مقام القرب هناك بأنه عناية الله بالخواص من عباده وإجابته لسؤالهم وقضاء حوائجهم.

تجليات مقام القرب الإلهي ومقام الشهود

أتضح ممّا تقدّم أن القرب الإرادي ذو معنى حقيقي لا اعتباري، بحيث إنّ كل من يصل إليه سيشاهد الله بقلبه بالعلم الحضورى، فيتلذذ بهذه المشاهدة إلى درجة يفقد فيها الرغبة بمشاهدة غير المعبود، فيعشق ربّه ويهيم بحُبّ معبوده بجميع جوارحه، وفي المقابل أيضاً سيُحبّ الله هذا العبد السالك العاشق له ويعتنى به عنايةً خاصّة. وكما تتفاوت العين في شدّة إبصارها باختلاف الأفراد، إذ توجد عين تعاني قصراً في النظر، وأخرى بعيدة النظر ترى الأشياء من مسافات طويلة، فكذلك الحال بالنسبة لمشاهدة الله بعين القلب فهي تتفاوت باختلاف درجة الإيمان عند الخواص من عباد الله، وبالتالي سيكون لمقام القرب الإلهي ورؤية الله مراتب متفاوتة شدّة وضعفاً؛ أي إن مراتب الأفراد بالنسبة لمقام القرب الإلهي وشرف مشاهدة الله تعالى تتفاوت شدّة وضعفاً بما يتناسب مع مراتب الأفراد بالنسبة لحقيقة الإيمان.

ولا شكّ في أنّ شخصيّة كأمير المؤمنين عليه السلام تتبوأ أعلى مرتبة في حقيقة الإيمان مما يجعله يستحقّ أشرف مراتب القرب من الله وأقوى درجات المشاهدة له تعالى؛ ولهذا قال عليه السلام: «لو كُشِفَ الغطاء ما ازددتُ يقيناً»^(١).



٢٢١



إن بعض مراتب ومظاهر تجلي الله تعالى التي ذُكرت في قصة موسى عليه السلام، تميّزت بدرجة من البهاء والعظمة لا يمكن لأي شخص تحمّلها؛ لذلك فبعد أن امتثل موسى عليه السلام لطلب بني إسرائيل، وسأل الله أن ينظر إليه ويشاهده عياناً، أظهر الله لهم بعضاً من مظاهر عظمته، فانهار الجبل وتلاشى، مما جعل نبي الله موسى عليه السلام يخرّ صَعْقاً ويفقد الوعي، وهذا ما تحكيه لنا الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ ارْجِعْ أُنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أُنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).



المقال التاسع والثلاثون بحث في مفهوم الولاية

معاني الولاية ومشتقاتها في القرآن الكريم

بينّا سابقاً، أن الإمام السجاد عليه السلام سأل الله في مناجاته أن يجعله ممن اصطفاه لقربه وولايته، وقد تحدّثنا في العناوين السابقة عن مقام القرب من الله، وسنحاول في هذا المبحث تسليط الضوء - قدر الإمكان - على شرح وتوضيح مفهوم



ولاية الله.

لمادّة «و - ل - ي» ومشتقاتها - ومنها كلمة «الولاية» - استعملات كثيرة في الثقافة الإسلامية، وخاصّةً في الكتب والمصادر الشيعية، حتّى تبوّأت مسألة الولاية مكانةً خاصّةً في نظريات وعقائد المذهب الشيعي. وقد استعملت مشتقات مادّة «و - ل - ي» ٢٣٣ مرّةً في القرآن الكريم، جاءت في ١١٠ مرات بصيغة الفعل الماضي والمضارع والأمر، و١٢٣ مرّةً بصيغة الاسم، منها كلمة ولي (٤٤ مرّةً)، وكلمة أولياء (٤٢ مرّةً)، وكلمة ولاية (مرتان)، وكلمتا مولى وموالي (٢١ مرّةً)، وكلمة أولي (١١ مرّةً)، وكلمات مثل (والٍ) و(مؤلي) و(أوليّان) (كل منها مرّةً واحدة).



وتأتي كلمة ولاية في اللغة بمعنى النُصرة، والوصاية، والتدبير والتصرّف في الأشياء، والقُرب.

ونجد أحياناً أنَّ للكلمة ما مشتقات ومعاني كثيرة، واستعمال هذه الكلمة في معاني مختلفة يمكن أن يكون على نحو الاشتراك اللفظي، كما يمكن أن يكون استعمالها في بعض المعاني على نحو الحقيقة أو المجاز أو الكناية أو الاستعارة أو الإشراب أو التضمن وغيرها من الصناعات واللطائف الأدبية المذكورة في كتب البلاغة وفنون الفصاحة.

وقد سعى بعض علماء اللغة إلى إرجاع المعاني المتعددة لكلمة واحدة إلى أصل واحد، مما جعلهم يقعون في التكلّف؛ لصعوبة تحقيق هذا الأمر في معظم الموارد المماثلة، ومن ذلك كلمة «الولاية»، التي استُعملت في موارد كثيرة على نحو الاشتراك اللفظي، وقد أرجعوا هذه المعاني إلى معنى القرب والاتّصال والتعلّق؛ لأن القرب من الشيء يستلزم تدبير الأمور، والنُصرة، والمحبة.

طبعاً فإن كتب اللغة تقتصر على ذكر المعاني المتعددة للكلمة الواحدة وتوضيحها فحسب من دون الخوض في بيان معانيها الحقيقية من المجازية أو التمييز بين المشتركات اللفظية والمعنوية؛ لأن التفصيل في هذه العناوين متروك لعلوم أخرى مثل علم البلاغة وعلم الأصول.

مفهوم ولاية الله

لتوضيح مفهوم ولاية الله بشكل أدقّ، نذكر ما قلناه في المباحث السابقة من أن بعض الكلمات تُستعمل فقط في الأمور الحسية والمادية ولا تستعمل في الأمور المجردة، في حين توجد كلمات أخرى تُستعمل في كليهما، أي في الأمور الحسية والمجردة؛ ولكن استعمالها في الأمور



المجرّدة غير المادّية يكون بعد تجريدها مما يشوبها من صبغة حسّية ومادّية. وعلى هذا الأساس، تكون أغلب المفاهيم غير المادّية ذات أصل في المفاهيم والمعاني الحسّية والمادّية، بحيث تطبّق هذه المفاهيم المادّية على الأشياء المجرّدة غير المادّية على نحو الاشتراك بعد تجريدها من صبغتها الحسّية والمادّية.

وعلى ضوء ما تقدّم، فإن بعض الكلمات التي تُستعمل في وصف الأمور المادّية والحسّية، قد نستعملها أيضاً في وصف الحقائق المجرّدة غير المادّية، مثل استعمالها في التعبير عن الله تعالى. فمثلاً نحن نصف الله تعالى بالعلي والعظيم، رغم أن المفهوم الأوّلي لكلمة (علو) تأتي للتعبير عن فوقية شيء على آخر، لذا فعند وصفنا لشيئين يقع أحدهما فوق الآخر، نُطلق على الأوّل صفة (عالي) ونُطلق على الثاني صفة (سافل)، ثم نأخذ معنى الأفضلية والفوقية في مفهوم كلمة (عالي) ونجرّدها من صبغتها المادّية والحسّية لنستنبط مفهوم العلوّ المعنويّ ثم نصف به الله تعالى، فيكون هذا الاستعمال بلحاظ الفوقيّة والأفضلية المعنويّة لله على سائر الموجودات الأخرى.

كما أنّنا - ولبحاظ العلوّ الحسّي والمادّي - نستنبط أيضاً مفهوم العلوّ الاعتباري ونُطلقه على الأشخاص الذين يتبوّؤون مناصب اعتباريّةً عليا أرفع من الآخرين. وعندها يكون استعمال مفهوم العلوّ بمعناه الحسّي والمعنوي استعمالاً حقيقيّاً، في حين يكون استعماله الثالث اعتباريّاً.

وفي مقام الحوار والتفاهم بين الأفراد يضطرّ الإنسان أحياناً إلى استعمال المفاهيم الموضوعة للأمور الحسّية بعد تجريدها من صبغتها



الحسّية والمادّية عند سعيه للتعبير عن المفاهيم المعنويّة وإيصال معانيها إلى مخاطبيه.

وقد أشار الله تعالى في قوله ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(١)، إلى قدرة الإنسان على الانتقال من المفاهيم الحسّية إلى المفاهيم المعنويّة، وقابليّته على توسيع دائرة المفاهيم وتعميمها، وكذلك الانتقال من المعنى الحقيقي للفظ إلى معناه المجازي، وسائر أنواع التصرّف التي يقوم بها الذهن الخلّاق للإنسان في المفاهيم والمعاني.

ولفهم معنى الولاية التي تبوّأت مكانةً مرموقةً خاصّةً في ثقافة الشيعة، يمكن الإشارة إلى ما جاء في بعض الروايات التي وصفت ولاية أهل البيت عليهم السلام بأنّها تمثّل أحد الأسس التي بُني عليها الإسلام^(٢).

كذلك لفهم معنى الولاية التي ذكرها الإمام السجاد عليه السلام في مناجاته لا بد من أن نبحث في معناها اللغوي الذي يُستعمل للتعبير عن الأمور الحسّية والمادّية، حتّى نتمكّن من تطبيقها على المفهوم الوارد في هذا البحث بعد ملاحظة مُلاءمته مع مفهوم ولاية الله وأهل البيت عليهم السلام وتغييره وتوسّعه وتجريده من صبغته المادّية والحسّية.

يُستعمل أصل مادّة «و - ل - ي» للتعبير عن القُرب، والتعلّق، والاتّصال بين شيئين بحيث لا يفصل بينهما شيء ثالث، ويؤثّر أحدهما على الآخر. إذًا فالمفهوم اللغوي لمادّة «و - ل - ي» له ثلاثة أركان:

(١) سورة الرحمن، الآية ٤.

(٢) روي عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ، عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصُّومِ وَالْحَجِّ وَالْوَلَايَةِ وَلَمْ يُنَادَ بِشَيْءٍ كَمَا نُودِيَ بِالْوَلَايَةِ». محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، الجزء ٢، الصفحة ٢١، الحديث ١.



١. وجود شيئين.

٢. القرب والاتصال بين هذين الشيئين وعدم توسط شيء ثالث بينهما.

٣. تأثير كل منهما على الآخر.

وقد استعمل هذا المعنى اللغوي أيضاً للتعبير عن بعض مشتقات «ولى» في القرآن الكريم كما في قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

الفعل المضارع «يلون» مشتق من مادة «ولى» وقد تضمن معنى القرب والاتصال والمجاورة؛ إذ يحذر الله تعالى - في هذه الآية الشريفة - المسلمين من تهديد الأعداء الذين يقطنون بالقرب منهم وإلى جوارهم، ويأمرهم أن لا يشغلهم قتال الأعداء الآخرين البعدين عن دولتهم، عن جهاد اليهود ممن يسكنون بالقرب منهم في أطراف المدينة المنورة؛ بل عليهم أولاً إنهاء تهديد اليهود القريبين منهم قبل الذهاب إلى قتال الأعداء البعيدين عنهم.

ونظراً لمعنى الولاية في الأمور الحسية واستعماله للتعبير عن القرب والاتصال بين شيئين بحيث لا يفصل بينهما شيء ثالث، أو للتعبير عن تأثير شيء في شيء آخر، أو للتعبير عن التأثير المتبادل بين شيئين، فإن هذه المعاني ومشتقاتها تُستعمل أيضاً للتعبير عن الأمور المعنوية والاعتبارية بعد تجريدها من صبغتها المادية والحسية.

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٣.



وعليه فإذا وجدنا موجودين مرتبطين فيما بينهما ارتباطاً وثيقاً بحيث لا يمكن الفصل بينهما، ويكون لأحدهما تأثير في الآخر وتصرف فيه، أو يكون هذا التأثير والتصرف متبادل بين الاثنين، فحينئذٍ يمكننا استعمال مفردة «الولاية» من مادة «ولى» للتعبير عن هذا الارتباط والاتصال فيما بينهما.

وعلى ضوء ما تقدّم فإذا ما وجدنا إنسانين تربطهما علاقة معنوية وثيقة جداً، بحيث يعيشان وكأنهما جسدان بروح واحدة، ولا يمكن لأحد التفريق بينهما أو فصلهما عن بعضهما، حتى أعطت هذه العلاقة الوثيقة لكل منهما القدرة على التأثير والتصرف في الآخر، حينها يمكننا القول إن مفهوم الولاية يحكم العلاقة بين هذين الشخصين.

ولما كان الله تعالى أقرب موجود إلى جميع المخلوقات ومنها الإنسان، حيث يصف هذا القرب الشديد منه في قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(١)، فستكون له ولاية تكوينية على جميع مخلوقاته ومنها الإنسان، تمكنه من إدارة شؤونها وتدبير أمورها والتصرف فيها. وهذه الولاية التكوينية تكون ولايةً عامّةً تشمل جميع المخلوقات - بما فيها الإنسان - حسب ما تقتضيه قابليّاتها وإمكاناتها الوجودية التي وهبها الله لها.

أقسام ولاية الله

١. ولاية تكوينية عامة

إِنَّ خَلْقَ الْمَوْجُودَاتِ وَالتَّصَرُّفَ فِيهَا وَتَدْبِيرَ جَمِيعِ شُؤْنِهَا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى إِنَّمَا يَنْشَأُ عَنْ وَلايَتِهِ التَّكْوِينِيَّةِ عَلَى جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَنَظَرًا لِهَذِهِ الْوَلَايَةِ التَّكْوِينِيَّةِ الْعَامَّةِ نَنْسِبُ جَمِيعَ أُمُورِ هَذَا الْعَالَمِ إِلَيْهِ تَعَالَى، حَتَّى أَنَّ اللَّهَ يَصِفُ قُدْرَتَهُ عَلَى مَخْلُوقَاتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١)، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى يَنْسِبُ الْإِيمَانَ إِلَى وَلايَةِ اللَّهِ وَتَدْبِيرِهِ وَحُكُومَتِهِ الْمَطْلُوقَةِ عَلَى عَالَمِ الْوُجُودِ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢).

وَعِنْدَمَا يَكُونُ اللَّهُ تَعَالَى وَالِيًّا وَحَاكِمًا عَلَى جَمِيعِ مَا فِي عَالَمِ الْوُجُودِ، تَصْبِحُ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ وَاخْتِيَارُهُ ضَمْنَ مَجَالِ هَذِهِ الْوَلَايَةِ وَسُلْطَتِهَا، بَحِثْ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَخْرُجَ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ عَنْ مَحِيطِ دَائِرَةِ إِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَصِفُ اللَّهُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٣).

وَيُمَثِّلُ عَالَمُ الْآخِرَةِ - فِي الْوَاقِعِ - نَمُودَجًا حَقِيقِيًّا لظُهُورِ حَاكِمِيَّةِ اللَّهِ وَوَلَايَتِهِ عَلَى جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، بَحِثْ إِذَا مَا رُفِعَتْ الْحُجُبُ عَنِ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيَرُونَ جَمِيعًا وَيُدْرِكُونَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي عَالَمِ الْوُجُودِ كَانَ يَسِيرُ وَفْقَ إِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَشِئَتِهِ، وَلَا تَوْجِدُ إِرَادَةَ مُسْتَقَلَّةَ مُؤَثَّرَةٍ فِي

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤٥.

(٢) سورة يونس، الآية ١٠٠.

(٣) سورة الإنسان، الآية ٣٠.



عالم الوجود سوى إرادته تعالى ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾^(١)، وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٢).

٢. ولاية تكوينية خاصة

ولله تعالى أيضاً ولاية تكوينية خاصة يُعملها على الخواص من أوليائه السالكين نحو التعالي والكمال، بحيث يُراقب بها جميع حركاتهم وسكناتهم حتى أفكارهم، ليوّجها نحو طريق التعالي والكمال، وعن هذه الولاية التكوينية الخاصة، يقول تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٣).

وهذه الولاية التكوينية الخاصة تستلزم المحبة، بحيث إن من تشلمه هذه الولاية الخاصة يكون مورداً لمحبة الله وعنايته، ونظراً لكون المحبة تقع عادةً بين طرفين، كذلك الولاية بمعنى المحبة يلزم حصولها بين طرفين أيضاً، فحينما يكون الله تعالى ولياً لشخص ما، يكون ذلك الشخص بالمقابل ولياً لله أيضاً. وعلى ضوء ذلك، نقول بحق أمير المؤمنين عليه السلام الذي اختاره الله عبداً من عباده الصالحين: «أشهد أن علياً ولي الله».

وعندما يتقرب أولياء الله من ربهم، وينشغلون بمناجاته ولا ينفكون لحظة واحدة عن ذكره ودعائه، ويلتزمون بإطاعة أوامره، فإنهم سيحظون بمحبة الله، فيتولى تدبير أمورهم، حتى تتحقق في ظل ولاية الله جميع مصالحهم ورغباتهم الدنيوية والأخروية.

(١) سورة الكهف، الآية ٤٤.

(٢) سورة غافر، الآية ١٦.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٧.



٢٣١



وقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلى هذه الولاية الخاصة بالمؤمنين، وعبرت عنها بلفظ «مولى» كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾^(١).

كما أن الله تعالى إذا ما أعمل ولايته على الخواص من عباده، فسيزداد توكلهم عليه سبحانه فيتركون تقدير كافة أمورهم وإصلاحها بيد الله تعالى.

ولا ريب في أن مراتب هذه الولاية تختلف وتتفاوت بحسب درجة إيمان الأشخاص، فالأقوى إيماناً تكون ولاية الله بحقه على درجة أقوى وأشد، وتشتد هذه الولاية تدريجياً حتى تصل عند بعض المؤمنين الخواص إلى درجة تحلّ فيها إرادة الله محل إرادتهم، لتجعل جميع قراراتهم وأفعالهم تسير باتجاه تطبيق هذه الولاية الإلهية الخاصة.

وقد أشار الله تعالى في حديثه القدسي إلى أن الخواص من عباده الملتزمين بطاعته لا يكتفون بأداء الواجبات؛ بل يسعون من خلال إقامة النوافل والمستحبات إلى التقرب منه أكثر حيث يقول: «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا إِنْ سَأَلَنِي أُعْطِيَتْهُ وَإِنْ اسْتَعَاذَنِي أَعِزَّتُهُ»^(٢).

ونظراً إلى التزام العبد بطاعة ربه وسعيه المتواصل لكسب رضاه، ستشمله ولاية الله الخاصة، فيعتمد الله تعالى إلى إدارة جميع أموره وتدبير كافة شؤون حياته اليومية، حتى تحلّ إرادة الله واختياره محل

(١) سورة محمد، الآية ١١.

(٢) الديلمي، إرشاد القلوب، الجزء ١، الصفحة ٩١.



إرادة العبد واختياره، فتسير حينها كافة أفعال الإنسان وتصرفاته باتجاه تعاليه وتكامله وتحقيق سعادته الأبدية.

وهذا ما نجده في دعاء عرفة حيث يسأل الإمام الحسين عليه السلام ربه قائلاً: «إلهي أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ لِي عَنْ تَدْبِيرِي وَبِاخْتِيَارِكَ عَنِ اخْتِيَارِي»^(١).

٣. الولاية التشريعية

من الأقسام الأخرى للولاية، الولاية في الأمور الاجتماعية، وهي ولاية جعلية واعتبارية، نطلق عليها في بحوثنا الإسلامية اصطلاح «الولاية التشريعية». فلو منح القانون هذه الولاية لشخص ما، كأن فوضه أمر الإدارة والولاية على مجتمع من المجتمعات، سيصبح حينئذٍ متصدياً لإدارة أمور هذا المجتمع وحاكماً ووالياً عليه، ويجب على جميع أفراد المجتمع إطاعته. كذلك إذا ما تولى شخص إدارة وقف ما، فلا بد من أخذ إذن المتولي على الوقف عند التصرف في كل ما يرتبط بأمر ذلك الوقف، وإلا فسيُعدّ التصرف فيه بغير إذن المتولي تصرفاً غير شرعي. ولا تحتاج هذه الولاية في تطبيقها إلى طرفين؛ بل تختص بطرف واحد هو الولي أو الوالي المنتخب من قبل الجماعة، فإذا ما اختار المجتمع شخصاً لتولي مقام الولاية، فإنه سيصبح والياً وحاكماً عليهم من طرف واحد دون أن تكون لأفراد ذلك المجتمع الولاية عليه؛ ولهذا تُعتبر هذه الولاية اعتبارية وليست منصباً حقيقياً؛ لأن المتصدّي لها يكتسبها عند تنصيبه من قبل الجماعة ويتم عزله عنها عند فقدانه لشروطها.

(١) مفاتيح الجنان، دعاء عرفة.



٢٣٣



ونعتقد - نحن المسلمون - أن الولاية التشريعية بمعنى رسم السياسات العامة وسن القوانين الإلهية، تختصّ أولاً بالله تعالى، يستعملها لغرض هداية الناس نحو التعالي والكمال، وبعد ذلك يهب الله تعالى هذه الولاية والمنصب ل خلفائه في الأرض، ليتولّوا أمر هداية الناس وبيان أوامره وأحكامه، كما ولّيتولّوا أمر الحكومة في المجتمع، بحيث تقع على جميع المسلمين مسؤولية إطاعة أوامره وأتباعهم.

والرسول الأكرم ﷺ هو الشخص الأول بعد الله تعالى الذي تولّى منصب الحكومة والولاية التشريعية على المسلمين، ثم انتقلت هذه الولاية - حسب عقيدة الشيعة - إلى الأئمة المعصومين ﷺ من بعده؛ لهذا تُعتبر الولاية التشريعية للأئمة الإثني عشر ﷺ ووجوب إطاعتهم أحدَ الأركان الأساسية في عقيدتنا بإمامة أهل البيت ﷺ. كما أن دائرة الولاية التشريعية للأئمة ﷺ تختصّ عادةً بالأحكام والمسائل الاجتماعية كأنواع المعاملات، والحقوق، والواجبات الاجتماعية، والجهاد، والمسائل السياسية والاقتصادية والدولية.

أما في زمان غيبة الإمام المعصوم حيث ينقطع اتصال الناس به، فيجب على المؤمنين الرجوع في إدارة أمورهم المذكورة أعلاه إلى الفقيه الجامع للشرائط وإطاعته في ما يحكم بينهم. وهذه الطاعة مُطلَقة كوجوب إطاعتهم للرسول الأكرم والأئمة المعصومين ﷺ بحيث تشمل كافة الأمور المرتبطة بالحكومة غير ما يُستثنى من بعض الموارد التي تختص بولاية الإمام المعصوم ﷺ.

ونظرًا إلى عدم إمكان تعدّد الحكّام في آن واحد لإدارة أمور المجتمع، يجب على الناس انتخاب فقيه واحد من بينهم ليتصدّى لهذا



المنصب، فيصبح خليفة الإمام المعصوم عليه السلام وتصبح إطااعته واجبةً على الجميع كوجوب إطااعتهم للإمام المعصوم عليه السلام.

وقد أشارت بعض آيات القرآن الكريم إلى هذه الولاية التشريعية والاجتماعية، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(١).

ونظرًا إلى كون هذه الآية قد جاءت بين آيات تنهى المسلمين عن اتّباع أهل الكتاب، إضافةً إلى مضمون الآية التي تلتها، يتّضح أن المقصود من الولاية في هذه الآية هي الولاية التشريعية، وأن الله تعالى قد جعل في هذه الآية الولاية التشريعية للنبي الأكرم عليه السلام والأئمة المعصومين عليهم السلام.

الارتباط بين القرب من الله والتوكّل عليه في إدارة الأمور

اتّضح مما تقدّم أن جميع أقسام الولاية - عدا القسم الأخير - هي من نوع الولاية التكوينية التي من ضمنها الولاية بمعنى القرب والتعلّق والاتّصال؛ لأن القرب بين موجودين ذوي شعور، والذي يعني التعلّق والارتباط الروحي والقلبي بينهما، هو أمر حقيقي، أما المعاني الأخرى للولاية مثل النُصرة والمحبة وإدارة الأمور، فتعتبر من لوازم المعنى الأصلي للولاية وهو القرب والتعلّق، وهذا القرب إنما يتحقّق فيما إذا وجد موجودان يرتبطان ويتّصلان فيما بينهما ارتباطًا وثيقًا بحيث لا يفصل بينهما شخص ثالث. وبهذا يتقرّر، أن الله تعالى قريب جدًّا من جميع الموجودات ومن بينها الإنسان؛ لكن هذا القرب العام التكويني لله تعالى



٢٣٥



من كل أحد لا يعد امتيازاً له؛ لأن الجميع حتى الكفار يتمتعون بهذا القرب.

أما القرب الذي سأله الإمام السجاد عليه السلام من ربه، فهو قرب اكتسابي يصل إليه الإنسان عن طريق إطاعة أوامر الله والعبادة وتهذيب النفس وإصلاحها؛ وهو امتياز يختص به المؤمنون والخواص من عباد الله. وفي ظل هذه الولاية والقرب يُوكَل هؤلاء الخواص من عباد الله جميع أمورهم وإدارة شؤونهم إلى الله تعالى.

ومن الطبيعي أن الإنسان عندما يوكل باطمئنانٍ كاملٍ جميع أموره وشؤونه إلى الله سبحانه، فهو - بلا ريب - على دراية كاملة بالسنن الإلهية، ويُدرك أن كل ما يصدر عن الله من أفعال وتدابير للأمر إنما يصدر عن حكمة ويكون ملائماً لمصلحة العبد. فحال الإنسان في ذلك كحاله عندما يوكل محامياً للدفاع عنه في الدعاوى والمرافعات، فلا شك أنه سيختار لهذه المهمة شخصاً متبحراً بالقوانين الحقوقية والجزائية ومطلعاً على أساليب الدفاع عن موكله وقادراً على إعادة جميع حقوقه، بحيث يطمئن إلى أن هذا المحامي سيبذل قصارى جهده لمساعدته والدفاع عن حقوقه.

والإنسان الذي يتوكل على الله ويوكل إليه إدارة جميع أموره ويرضى بقضائه وقدره، عليه أن يدرك أن كل ما يجري عليه من تقدير إلهي يكون لنفعه حتى لو كان بحسب الظاهر يضره؛ لأن الله تعالى يبتلي الخواص من عباده بمختلف أنواع البلاء والمصائب كنوع من الاختبار والامتحان لصبرهم وإطاعتهم. وهذا يتضح من قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٥)



الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٦﴾.

يسعى البعض في حياته نحو الراحة والعيش بعيداً عن البلاء والمصاعب، رغم أن هذه المصاعب والبلايا تُعد إحدى لوازم الحياة؛ لأن سنة الله تقتضي أن يمرّ الإنسان في حياته بفترات من الراحة والهناء وفترات أخرى من البلاء والمصاعب، والمرحلتان كلاهما - السعادة والبلاء - تعّدان جزءاً من ساعات الامتحان والاختبار الإلهي، بحيث لا يمكن لأي أحد الهروب من هذا الاختبار؛ لأنه هو من يحدّد الصالح من الطالح والصادق من الكاذب، ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾.

ينبغي لمن يتوكّل على الله أن يعلم أن كل ما يصدر عنه تعالى يصدر عبثاً أو لهوّاً؛ بل جميع السنن والأفعال الإلهية تسند إلى الحكمة وتتطابق مع مصالح الإنسان. وبعد أن يحصل الإنسان هذا الاعتقاد نتيجة الإخلاص في عبوديته لله عزّ وجلّ، يسأل الله ويدعوه أن يتوكّل عنه أمر تدبير أموره ويشمله بولايته الخاصة، كما هو الحال بالنسبة للشخص الذي يمنح شخصاً آخر ولايةً اعتباريةً على نفسه، فإنه سينفّذ كل ما يأمره به ويرضى بكل ما يصدر عنه. فلو خصّص له الحاكم العادل نصيباً من بيت المال مساوياً لأسهم الآخرين كسهم الفقراء مثلاً، فإنه سيرضى بهذا الحكم، ولن يعترض عليه لكونه لم يأخذ بنظر الاعتبار الاختلاف في

(١) سورة البقرة، الآيات ١٥٥ - ١٥٧.

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان ٢ - ٣.



شأن الناس ومكانتهم في المجتمع، أو لو حكم القاضي حسب قوانين الإسلام وأحكامه بالحدّ على المجرم، فلن يعترض أحد على حكم القاضي وحكم الله بذريعة أن هذه الأحكام وإقامة الحدود لا تنسجم مع العادات والتقاليد الاجتماعية، فلو ارتكب شخص ذنبًا كالزنا مثلاً، فلن يقول إنه لا يجب - حينئذٍ - إقامة الحدّ عليه بجلده وهتك ستره أمام أنظار الجميع؛ بل سيرضى بحكم الله، ويعتقد أن إقامة الحدود الإلهية ينسجم مع المصالح الواقعية، وهي ضرورة لبناء المجتمع الإسلامي والمحافظة عليه من آفات الانحلال الأخلاقي والفساد؛ ولهذا قال الله في كتابه الكريم: ﴿الرَّائِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

الشروط اللازمة لنيل ولاية المعصومين عليه السلام

في نهاية هذا البحث، نستعرض روايتين تبينان الشروط اللازمة لنيل ولاية الأئمة الأطهار عليهم السلام.

الرواية الأولى صادرة عن الإمام الصادق عليه السلام يخاطب فيها أحد أصحابه اسمه «عبد الله بن جندب»، فيقول: «يَا ابْنَ جُنْدَب بَلِّغْ مَعَاشِرَ شَيْعَتِنَا وَقُلْ لَهُمْ: لَا تَذْهَبَنَّ بِكُمْ الْمَذَاهِبُ، فَوَ اللَّهِ لَا تَنَالُ وَلَا يَتَنَا إِلَّا بِالْوَرَعِ وَالْاجْتِهَادِ فِي الدُّنْيَا وَمَوَاسَاةِ الْإِخْوَانِ فِي اللَّهِ»^(٢).

فالإنسان لا ينال ولاية أهل بيت العصمة عليهم السلام ما لم يتصف بالتقوى وينتهي عن ارتكاب الذنوب، ويسعى بكل ما أوتي من جهد لأداء

(١) سورة النور، الآية ٢.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٧٨، الباب ٢٤، الصفحة ٢٨١، الحديث ١.



واجباته وتكاليفه الشرعية، وأن لا ينشغل بنفسه فقط؛ بل يجب أن يهتم بأمور المسلمين وينبri لنصرتهم ومواساتهم في محنهم، وتقديم كل أنواع المساعدة لهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه.

وفي رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام يوصي فيها جابر بن يزيد الجعفي، يقول: «يَا جَابِرُ... وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ لَا تَكُونُ لَنَا وَلِيًّا حَتَّى لَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أَهْلُ مِصْرِكَ وَقَالُوا إِنَّكَ رَجُلٌ سَوِيٌّ لَمْ يَحْزَنْكَ ذَلِكَ، وَلَوْ قَالُوا إِنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ لَمْ يَسْرَكَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ ااعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ فَإِنْ كُنْتَ سَالِكًا سَبِيلَهُ زَاهِدًا فِي تَزْهِيدِهِ رَاغِبًا فِي تَرْغِيهِهِ خَائِفًا مِنْ تَخْوِيفِهِ فَاتَّبِثْ وَأُبَشِّرْ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ مَا قِيلَ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُبَايِنًا لِلْقُرْآنِ فَمَا ذَا الَّذِي يَغُرُّكَ مِنْ نَفْسِكَ»^(١).

إن المراد من الولاية التي ذكرها الإمام السجاد عليه السلام في مناجاته، وسأل الله أن يهبها له، هي أن يكون بحيث يسلم أمره لله تسليماً مطلقاً، ويوكله تدبير جميع أموره، ويرضى تمام الرضى بقضائه وقدره، ولا يرجو شيئاً من غير الله، ولا يخشى أحداً غير الله، ولا يفرح أو يغتر بمدح الآخرين وتمجيدهم له، ولا يحزن من إساءة الآخرين أو ذمهم له.

(١) المصدر السابق، الباب ٢٢، الصفحتان ١٦٢ - ١٦٣، الحديث ١.



المقال الأربعون

الارتباط بين محبة الله تعالى والرضا بقضائه وقدره

ضرورة ترجيح محبة الله على محبة الآخرين

تكرّر ذكر محبة الله ولوازمها وآثارها كثيراً في أدعية الإمام السّجّاد عليه السلام وشكّلت المحور الأساس لما طلبه من ربّه في أدعيته ضمن مناجاة المحبّين؛ ففي هذه المناجاة، بعد أن طلب الإمام السّجاد من ربّه أن يجعله ممن اصطفاه لقربه وولايته، سأل ربّه أيضاً أن يُخلصه لمحَبّته وودّه، وهذا السؤال صدر من قبل الإمام عليه السلام لأن حُبّ الإنسان لله يمكن أن تشوبه أمور أخرى تجعل منه غير خالص له عزّ وجل، كأن ينشغل قلبه بمحبة الآخرين، مما قد يؤدّي أحياناً إلى تزاخم وتعارض بين المحبّتين، فيرجّح الإنسان محبة غير الله على محبة الله تبارك وتعالى.

في أنواع المحبة العادية، قد يحدث أن يرتبط الإنسان بعلاقة صداقة ومودة مع شخصين اثنين بحيث يقسم حُبّه بينهما، ويشعر بالراحة والأنس معهما، ولا يحدث أي تزاخم أو تعارض في محبته وأنسه مع كليهما؛ لكن في أحيان أخرى قد تؤدّي هذا الصداقة إلى التعارض والتزاخم، بحيث قد يطلب منه أحد الأصدقاء طلباً يتزاخم مع طلبات





الأصدقاء الآخرين، فعندها سيرجّح طلب الشخص الأكثر حبًّا والأقرب إلى قلبه.

كثيرٌ من الناس يُحبّون الله، لكنّهم في الوقت ذاته يُحبّون الآخرين أيضًا، وفي الحالات التي لا يقع فيها تراحم بين مقتضيات محبة الله ومحبة الآخرين فإن الإنسان سيظل ملتزمًا بمقتضيات محبة الله؛ فهو يصلي مثلًا بسبب محبّته لله تعالى ويواظب على أداء النوافل، لكن لا يحدث تراحم بين هذه العبادات وبين محبة الإنسان لغير الله؛ ففي هذه الحالة يمكن الجمع بين محبة الله ومحبة غيره، وتبعًا لهما يمكن الجمع أيضًا بين ما يريده الله وما يطلبه الآخرون من الإنسان.

لكن قد يحدث في أحيان أخرى تراحم وتضاد بين محبة الله وما يريده من الإنسان، أو بينها وبين محبة غير الله وما يطلبه الآخرون منه، وهنا يظهر أولياء الله ومحبوّه الحقيقيون، إذ يرجّحون محبة الله وطلبه على محبة الآخرين وطلباتهم، ويعملون حسب ما يقتضيه إيمانهم وعبوديتهم لربّهم.

والله تعالى يقول في كتابه الكريم عن التراحم بين محبّته ومحبة غيره، وضرورة ترجيح محبّته على محبة الآخرين: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَرْزَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَلِكٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١).



في الظروف الخاصّة وموارد التزاحم، يؤدّي ترجيح الإنسان لحُبّ الزوجة والأولاد وغيرها على حُبّ الله تعالى إلى زوال محبة الله من قلبه حتّى ينسى فيها الله مؤقتًا، خاصّةً في أوقات الجهاد التي يتعرّض فيها إلى اختبار شديد وظروف قاسية، بحيث إذا ما تمكّن من ترجيح محبة الله على محبته للآخرين حتى المقرّبين إلى قلبه، سيتمكّن من أداء واجبه والدفاع عن الدين وسيضحيّ بالغالي والنفيس في سبيل الله، لينال على إثرها سعادته الأبديّة. أما إذا كان إيمانه ناقصًا ولم يتمكّن من إفراغ قلبه من حُبّ غير الله، وتغلّبت عليه أهواؤه المادّية حتّى أصبحت مانعًا عن أداء واجباته والثبات على طريق محبة الله، فسينتهي به المطاف إلى الخذلان والشقاء الأبدي. فعندما يعتدي الأعداء على بلادنا الإسلامية يقع على الإنسان واجب الدفاع عن حياض الوطن والمشاركة في جبهات القتال، مما سيعرضه لاختبار قاس جدًّا إذ سيتطلّب منه التغلّب على جميع أهوائه المادّية وتعلّقاته الشخصيّة كحُبّ الأب والأمّ وحُبّ الأولاد والأصدقاء، وهو أمر يصعب تحقيقه؛ نظرًا إلى شدّة تعلّقه بهم وطول معاشرته لهم. ونحن في أيّام الحرب المفروضة علينا وأثناء ظروفها القاسية، كنّا نشاهد شبابنا الثوري المُخلص كيف كانوا ينزعون جميع أهوائهم المادّية وتعلّقاتهم القلبية، ويتسابقون للمشاركة في جبهات القتال للدفاع عن الدين والشعب.

ومشاركتهم في جبهات القتال وتطهير قلوبهم من حُبّ الدنيا والأحبّة لم يكن صعبًا عليهم؛ بل الصعب كان بقاؤهم في مدنهم والحرمان من فيض الشهادة، حتّى إنهم كانوا يندرون لله ويدعون في صلاة الليل أن يوفّقهم الله للجهاد في سبيله ونيل وسام الشهادة. فقد نذر بعض الشباب من مدينة طهران أن يُحيوا أربعين ليلة جمعة بالعبادة



والصلاة في مسجد جمكران في مدينة قم، والدعاء أن يوفقهم الله لنيل الشهادة.

فعند الامتحان يتميز الصالح من الطالح، وعند التزاحم بين محبة الله وبين الأهواء الدنيوية تتعين درجة محبة الإنسان لربه. فالبعض يمرّ في بعض الفترات بحالات عرفانية خاصة ويُنشد عددًا من الأبيات الشعرية العرفانية حول عشق المعبود والمحبوب، فيتصوروا أن هذه الأبيات تصدق عليهم وأنّ محبتهم لله حقيقية وثابتة؛ لكن عندما يحين وقت الاختبار تتكشف حقيقة حبهم لله، ليدركوا أنهم يبتعدون كثيرًا عن درجة الذوبان الكامل في الله، ويكتشفوا كذب وزيف ادّعائهم بالهيام في المعبود والفناء في المعشوق.

الإخلاص في محبة الله

إن مجرد الشعور بمحبة الله لا يكفي لبلوغ الإنسان مراتب السعادة والكمال؛ بل يجب أن يسعى أولاً إلى حبّ الله أكثر من الآخرين، وأن يرجّح محبة الله على محبته للآخرين؛ لأن هذا الترجيح يمثل ميزان الإيمان الذي أشار إليه الله تعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(١).

إذا فترجّح محبة الله على محبة الآخرين هو ميزان الإيمان وعلامته، لكن أولئك الذين يُحبّون الله أكثر من الآخرين أو أكثر من الأشياء المادية الأخرى، يتفاوتون حسب محبتهم لله وينقسمون بحسب مراتبهم إلى مجموعتين: المجموعة الأولى، تضمّ الأفراد الذين ينشغل قلبهم بنوعين

(١) سورة البقرة، الآية ١٦٥.



٢٤٣



من الحُبِّ، حُبَّ الله وحُبَّ الآخرين، لكنَّ حُبَّهم لله أكثر من حُبِّهم للآخرين؛ أما المجموعة الثانية، فتضمُّ أولئك الأفراد الذين لا تشغل قلوبهم سوى بمحبة الله تعالى، ولا يحبُّون أي شخص بمعزل عن محبتهم لله، بل يحبُّون الآخرين بمقدار قربهم من الله تعالى. وهذا النوع من الحُبِّ يشبه حبنا لكل ما يتعلَّق بشخص الحبيب كصوره وملابسه وكتبه وأمثالها، وهذا لا يعني تعدُّد الحبيب؛ بل حبنا يختصُّ بشخص واحد فقط، أما حبنا للأشياء الأخرى فمن باب انتسابها لشخص الحبيب؛ أي إنَّ حبنا لأشيائه ووسائله يقع ضمن شعاع محبتنا له، وليس بمعزل عنه.

ومن الطبيعي أننا عندما نُحِبُّ شخصاً ما سنُحِبُّ آثاره ولوازمه، وحبنا لهذه الآثار واللوازم فرع محبتنا له، فهي كالغصن والأوراق فرع من الشجرة، بحيث إذا ما يبست الشجرة لم يبق للغصن والأوراق وجود. ومحبة أولياء الله وخاصة محبة الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام من سنخ هذا النوع من الحُبِّ، فهم لا يُحِبُّون سوى الله، ولا يُحِبُّون أي شيء أو شخص إلا في ظل محبتهم لله، فمحبتهم لغير الله لا تكون إلا شعاعاً لمحبة الله. فمثلاً كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يُحِبُّ السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) حباً شديداً يصعب علينا وصفه؛ لكنَّ هذا الحُبَّ غير مستقلٍّ عن حبه لله؛ بل هو شعاع لمحبة الله.

فُحِبَّ الله تعالى يتجلَّى بحُبِّ فاطمة الزهراء وحبِّ أمير المؤمنين والإمام الحسن والإمام الحسين عليهم السلام؛ بل يمكن القول إنَّ محبة الله لا يمكن أن تتحقَّق بدون محبة هؤلاء الأولياء.

وهنا يتَّضح معنى الإخلاص في محبة الله، حيث تكون فيها محبة الآخرين فرع وشعاع محبة الله، ويبرز هذا المعنى في كلمات الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة إذ يقول: «أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقَتْ الْأَنْوَارُ فِي



قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ، حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ، وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلَّتِ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ، حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِوَاكَ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى غَيْرِكَ»^(١).

إذا فالمراد من جملة «أَخْلَصْتَهُ لَوَدَّكَ وَمَحَبَّتِكَ» هو أن يجعلنا الله من الذين امتلأت قلوبهم بمحبته تعالى فقط، حتى لا يبقى في القلب مكان لمحبته الآخرين.

وقد يجد البعض أن من السهل قول هذا الكلام أو تصوّره؛ لكن - في الحقيقة - يصعب جدًا علينا تحقيقه والوصول إلى تلك الحالة التي نفرغ فيها قلوبنا لمحبة الله فقط؛ لذا لن يبقى أماننا سوى الأمل برحمة الله، والتوسّل بأن يشملنا بلطفه وعنايته الخاصة حتى يجعل قلوبنا خالصةً لودّه ومحبته.

شوق أولياء الله إلى لقاء ربهم

بعد أن يدعو الإمام السّجّاد (عليه السلام) ربّه أن يُخلصه لودّه ومحبته، يُشير إلى بعض لوازم محبة الله، حيث يُتبع كلماته تلك بطلب آخر من الله، فيقول: «وَشَوْقَتُهُ إِلَى لِقَائِكَ».

ويُعدّ الشوق إلى لقاء الله أحد لوازم محبة الله وآثارها الطبيعية، لما له من تأثير على شدة محبة الله وتكاملها؛ إذ لا يمكن أن يُحبّ شخص شخصًا آخر ولا يشّاق إلى لقائه والأنس برؤيته، فمن يمتلئ قلبه بمحبة الله سيشتاق بشغف إلى لقائه؛ لأنّ الاشتياق إلى لقاء الله من لوازم محبته.

(١) مفاتيح الجنان، دعاء عرفة.



٢٤٥



لقد كانت صفة التعالي والتفوق على كافة شعوب العالم من أبرز الصفات التي اتصف بها بنو إسرائيل حتى أصبحوا يعتقدون أنهم شعب الله المختار، وأبناء يعقوب عليه السلام، بل أبناء الله وأحبّاءه، ولا شك في أن هذا الادّعاء كان مجازاً باعتبار مكانتهم المرموقة عند الله؛ أي كانوا يدّعون أن لهم شأنًا ومقامًا خاصًا عند الله يفوق شأن ومقام سائر الشعوب وأتباع الديانات الأخرى.

ثم جاء بعدهم النصارى ليطرحوا هذا الادّعاء بصورة أشدّ عن نبي الله عيسى عليه السلام حتى اعتبروه ابن الله حقًا، وهذا الادّعاء نجد حكايته في كلمات الله تعالى في الآية الشريفة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ﴾^(١)، فهم يدّعون أن الله يحبهم حبًا شديدًا إلى درجة يعتبرهم فيها أبناءه وأحبّاءه؛ لكن في الوقت عينه تجدهم أحرص الناس على حبّ الدنيا والتعلّق بأهوائها وشهواتها والخوف من الموت، حتى أصبحوا يتمنّون أن يعمّروا في هذه الدنيا حتى يتمكنوا من التمتع أكثر بلذاتها وشهواتها.

والله تعالى يصف هذه الخصلة عند بني إسرائيل بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

ونظرًا إلى أن جميع الأديان الإبراهيمية تؤكّد - في تعاليمها وأحكامها - على أن الموت يعجل بقاء الإنسان لربّه، وأن الدنيا دار فناء

(١) سورة المائدة، الآية ١٨.

(٢) سورة البقرة، الآية ٩٦.



والآخرة دار بقاء ومحل لقاء الله، فكيف يمكن لقوم اليهود أن يصبحوا
أحباء الله وأبنائه وقلوبهم يملؤها حُب الدنيا والتعلق بأهوائها وملذاتها؟
ذلك لأن أهم ما يميّز أحباء الله هو الزُهد بالدنيا والتعلق بحُب الله
والشوق إلى لقائه؛ ولهذا يكذب الله في الآية الشريفة الآتية ادعاء بني
إسرائيل قائلاً: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ
دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا أَلَمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ ٦﴾ وَلَا يَتَمَنُّونَهُ أَبَدًا بِمَا
قَدَمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ٧﴾ قُلْ إِنْ أَلَمُوتَ الَّذِي تَقْرُونَ مِنْهُ
فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ٨﴾^(١)

وقد اهتم الإسلام كثيراً - وخاصة في القرآن الكريم - بلقاء الله
بعد الموت، واعتبر الشوق إلى لقاء الله من أبرز صفات المؤمنين،
حتى أن الله تعالى كان يوصي أحباءه والمشتاقين إلى لقائه أن يعملوا
عملاً صالحاً لنيل هذا المقام الرفيع، فيقول: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ
فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ١٢﴾^(٢)

إن شجرة التفاح لا تبلغ درجة الكمال ما لم تُثمر، وكلما كان ثمرها
يانعاً وناضجاً ووافراً كان تكاملها أشدّ وأكثر. فثمرة المحبة هي شوق لقاء
الله، ولا بدّ أن تُثمر شجرة المحبة بثمار الشوق إلى لقاء الله حتى تكتمل
وتنضج. فلا بدّ للمُحِبِّ أن يسعى دائماً للقاء المحبوب، وكلما اشتد
الشوق إلى لقاء المحبوب وتكامل أكثر اشتدّت المحبة وتكاملت أكثر،
وكمال المحبة بقوتها وثباتها ودوامها، والعكس صحيح أيضاً؛ فكلما ضعف
الشوق إلى لقاء المحبوب ضعفت المحبة وخَفَّتْ نورها في القلب.

(١) سورة الجمعة، الآيات ٦-٨.

(٢) سورة الكهف، الآية ١١٠.



٢٤٧



فالإنسان مثلاً عندما يُحِبُّ شخصاً يتردّد عادةً لزيارته ويقدم له هديةً عند لقائه، وهذا أثر من آثار المحبة، ويساعد على تقوية أواصرها وتكاملها. كذلك الحال بالنسبة لمن يُحِبُّ الله تعالى، لا بد أن يكون مشتاقاً دائماً إلى لقائه، وعندها لا يخشى الموت؛ بل سيشتاق إليه؛ لأنه الوسيلة لرفع الحُجب ونيل لقاء الله والأنس برويته، والتمتع بنعم الجنة وآثار أعماله الصالحة.

الرضا بقضاء الله وقدره من صفات أحياء الله

إن الرضا بقضاء الله وقدره من أهم آثار الإخلاص في محبة الله؛ فإذا ما نَمَت محبة الإنسان لله وتكاملت في قلبه ولم تتوقف في مراحلها الأولى، وملأت هذه المحبة كل جوانحه، وأزال عنها كل شائبة، وتخلّص من كل تعلّق بغير الله، فسيصبح هذا الإنسان حينها راضياً بقضاء الله وقدره؛ لهذا نرى الإمام السّجّاد عليه السلام بعد أن يدعو الله أن يُخلصه لوّده ومحبته، يسأله أن يجعله ممن يرضى بقضائه، فيقول: «رَضِيَّتُهُ بِقَضَائِكَ».

ونحن إذا ما تمعّنا في كلمات الأدعية والمناجاة وأمثالها من الأشعار والنصوص العرفانية، فإننا نجدها مليئةً باللطائف الخاصة بالرضا بقضاء الله وقدره، حتى أن بعض أولياء الله وعلماء الدين يدعون الله في مناجاتهم ويتوسّلون به ليوَفِّقهم للرضى بقضائه وقدره حتى لو أحرَقهم بنار جهنّم، ولن ينقص ذلك العذاب شيئاً من محبّتهم له، لعلمهم أن ذلك إنما يصدر عن حكمته وإرادته.

ومن لم يبلغ مقام الرضا بقضاء الله وقدره، ولم يمتلئ قلبه بحُبِّ الله وعشقه، فإنه قد يحتاج إلى دليل حتى يؤمن بمسألة وجوب التسليم بقضاء الله وقدره التي تُعدّ من أبرز صفات المؤمنين، فيجب إقناعه



بالبرهان والاستدلال المنطقي بأن جميع أفعال الله تعالى لا تصدر إلا عن حكمة، وتنسجم مع مصلحة العبد؛ لذا يجب التسليم والرضا بكل ما يصدر عنه.

أما الذي يمتلئ قلبه بحُبِّ الله، ويهيم به حتى الجنون، فإنه يستقبل كل ما يصدر عن الله ببشاشة ورحابة صدر ويُسلم بقضائه وقدره؛ ليقينه أن الله عليم حكيم لا يرد النقص إلى مشيئته وقضائه؛ لذا لن يبحث عن الحكمة والمصلحة في حكم الله وقضائه؛ بل يسلم بذلك الأمر ويرضى به، ثم يناجي ربه: إلهي إرادتك إرادتي، وأنا راضٍ بقضائك وعدلك سواء كان فيه نفعي أو ضري.

تفسير الجمع بين الرضا بقضاء الله وقدره والحزن عند المصائب

مَنْ يُخلص في حُبِّ الله ويعشقه من صميم قلبه، يُحِبُّ أيضًا كل أفعاله وأحكامه، ويسلم تسليمًا مطلقًا بقضائه وقدره، ولن تُثنيه المصائب والمحن عن محبته؛ بل يرضى بها ويصبر عليها لكونها ناشئة عن حكمته وقضائه، رغم ما تحمله هذه المصائب من حزن وألم شديد بحيث تؤذي الإنسان وتترك آثارًا مؤلمة في نفسه؛ لأن روح الإنسان تمرّ بحالات وظروف متفاوتة وقد تحمل انطباعات متضادة في آن واحد بالنسبة لحادثة معينة.

ففي واقعة الطف، مثلاً، استقبل الإمام الحسين عليه السلام ما جرى عليه وعلى أصحابه وأهل بيته في أرض كربلاء وما مرّ عليهم من مصائب ومحن في يوم عاشوراء برحابة صدرٍ ورضا منقطع النظير بقضاء الله وقدره، وكذا كان حال من كان معه، لعلهم أن كل هذه المحن



٢٤٩



والمصائب إنما تجري بعين الله وناشئة عن إرادته وحكمته وتنسجم مع المصالح الإلهية العليا المتمثلة ببقاء الإسلام وحفظ الدين.

وقد روي أنه في الليلة التي سبقت خروج الإمام الحسين عليه السلام من مكة المكرمة للتوجه نحو كربلاء، ذهب محمد بن الحنفية عليه السلام إليه عليه السلام وتحدث معه لعله يتمكن من ثنيه عن الخروج إلى الكوفة وكربلاء الذي أدى فيما بعد إلى شهادته مع أهل بيته وأصحابه، فأخبره الإمام أنه سيفكر في كلامه؛ لكنه في صباح اليوم التالي تحرك نحو الكوفة، فلما سمع محمد بن الحنفية بذلك أسرع نحو الإمام الحسين عليه السلام ولما وصل إليه، قال له: يا أخي ألم تعدني أنك ستفكر في كلامي؟ فأجابه الإمام: «أَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ بَعْدَ مَا فَارَقْتُكَ، فَقَالَ: يَا حُسَيْنُ أُخْرِجْ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ شَاءَ أَنْ يَرَاكَ قَتِيلًا»^(١). لكن هذا الظلم العظيم والجريمة الكبرى التي قام به أشقى الناس ضد أعز وأشرف خلق الله، قد هزت مشاعر وأحاسيس الإنسانية جمعاء، وزرعت الحزن والغم في قلوب أهل بيت النبي الأكرم عليه السلام وأتباعهم ومحبيهم، ليبقى الألم يعتصر قلوبهم إلى الأبد كلما مرت ذكرى هذه الفاجعة الأليمة.

ثمة من يقول: إن نهضة الإمام الحسين عليه السلام كانت سبباً في نيله الشهادة وبلوغه هذا المقام الرفيع، وإن هذه الفاجعة الأليمة أدت إلى حفظ الدين وانتشاره في مختلف بقاع الأرض، وإن الآثار العظيمة والنتائج الإيجابية الكثيرة التي أفرزتها واقعة الطف في كربلاء تتطلب منا أن نفرح لاستشهاد الإمام الحسين بدلاً عن الحزن والبكاء والضرب على الصدور والمشاركة في مجالس العزاء لإحياء هذه الذكرى الأليمة.

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٤٤، الباب ٣٧، الصفحة ٣٦٤، الحديث ٢.



إن مثل هؤلاء الأفراد قد غفلوا عن حقيقة أن الفرح والسرور بما أفرزته هذه الواقعة الأليمة من بركات وآثار عظيمة، لا يتعارض مع إبداء الحزن والألم لاستشهاد هذا الإمام الهُمام؛ لأن هاتين الحالتين تنشآن عن حيثيتين متفاوتتين: الأولى، أن هذه الحادثة قد حفظت الدين وعملت على بقاء الإسلام ودوامه؛ والثانية، أن استشهاد الإمام الحسين عليه السلام قد أدى إلى إنهدام أركان الهدى، مما جعل النفس الإنسانية تعيش حالتين من الشعور في آن واحد حسب تفاوت رؤيتها نحو تلك الحادثة الأليمة، فهي تعيش حالةً من الفرح والسرور، وفي الوقت ذاته تعيش حالةً من الغم والحزن.

نعم، من يُحبّ الله، ويعتقد أن كل ما يحدث في هذا العالم هو فعل الله الذي لا يصدر إلا عن حكمة وبما ينسجم مع قضائه وقدره، سيُسَلِّم تسليمًا مطلقًا بكل ما يصدر عنه تعالى، ويرضى بقضائه وقدره، فلن يحزن أو يتألم لما يصيبه من مصائب ومحن؛ لأنه يعلم علم يقين أنها تصدر عن إرادة الله ومشيئته، ويمكن أن نستنبط هذا المعنى من قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

فالمعنى الذي يتبادر أولًا إلى ذهن الإنسان من هذه الآية الشريفة هو أن أحبّاء الله وأودّاءه لا يتخلل الحزن إلى قلوبهم عند تعرّضهم للمصائب والمحن، كذلك لا يخشون المصائب والمشاكل التي قد يتعرّضون لها في المستقبل؛ لأنهم يعلمون أن الله سيُثبِّتهم على صبرهم وتحملهم لهذه المصائب والمحن ويجزيهم عن ذلك خير الجزاء وأكمله.

أما المعنى الآخر الذي يُمكن استنباطه أيضًا من هذه الآية الشريفة، فهو أن تسليم المؤمنين وأولياء الله بقضاء الله وقدره ورضاهم بكل



ما يصدر عنه عزَّ وجلَّ يجعلهم لا يشعرون بالحزن والغم عند تعرُّضهم للمصائب والمحن، ولا يشكون منها أبدًا؛ بل يفرحون بما أصابهم ويتقربون إلى الله تعالى بالصبر والتحمل.

وبالطبع، يمكن أن يحزن أولياء الله ويتأثروا أحيانًا، كما جاء في الرواية التي تحكي عن حال النبي ﷺ عند وفاة ابنه إبراهيم: «لَمَّا خُرِجَ بِإِبْرَاهِيمَ خُرَجَ يَمْشِي ثُمَّ جَلَسَ عَلَى قَبْرِهِ ثُمَّ وَلَّى فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ وُضِعَ فِي الْقَبْرِ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ فَلَمَّا رَأَى الصَّحَابَةَ ذَلِكَ بَكَوْا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ. فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَبْكِي وَأَنْتِ تَنْهَى عَنِ الْبَكَاءِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: تَذْمَعُ الْعَيْنُ وَيَوْجَعُ الْقَلْبُ وَلَا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

فقد كان الرسول الكريم ﷺ يحمل قلبًا رقيقًا يملؤه الحُبُّ والعاطفة، فكان من الطبيعي أن يتأثر ويحزن ويبكي على فقد ولده؛ لكنَّه في الوقت ذاته كان أكثر الناس إيمانًا بالله وتسليمًا لقضائه وقدره، ولا يفارق شكر الله وحمده لسانه عند كل مصيبة وفاجعة، ولم يصدر عنه أبدًا ما يسخط الله ويغضبه.

وهذا المعنى نجده في كلمات الإمام المعصوم في زيارة عاشوراء، فرغم ما يذكره من عظمة المصيبة وهولها على المسلمين حتَّى تأثر بها وحزن عليها أهل السماوات: «وَجَلَّتْ وَعَظُمَتْ الْمُصِيبَةُ بِكَ عَلَيْنَا وَعَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَجَلَّتْ وَعَظُمَتْ مُصِيبَتُكَ فِي السَّمَوَاتِ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ السَّمَوَاتِ»^(٢)، لكنَّه بعد ذلك يعود فيشكر الله ويحمده، ويقول

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٨٢، الباب ٥٩، الصفحة ٩١، الحديث ٤٣.

(٢) مفاتيح الجنان، زيارة عاشوراء.



في سجدة الشكر بعد زيارة عاشوراء: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ لَكَ عَلَى مُصَابِهِمْ»^(١). فمن جهة، يجب علينا الحزن والألم والتأثر لهول المصيبة وعظمتها، ومن جهة أخرى يجب الرضا بقضاء الله وقدره والتسليم المطلق لكل ما يصدر عنه، وشكر الله على ما آلت إليه هذه الحادثة الأليمة من المحافظة على عظمة الإسلام وقوّته.

وعلى كل حال، فالرضا بقضاء الله وقدره من آثار محبة الله؛ لذا يجب على الإنسان السعي إلى تهذيب النفس وتحقيق تكامل القيم الإلهية فيها، حتى يبلغ درجةً من الإيمان يسلم فيها تسليماً مُطلقاً بقضاء الله وقدره، فلا يحزن على ما يُصيبه من ألم ومحن، ويصبر على بلاء الله، ويرضى بكلّ ما يصدر عن الله؛ لأن الله سيثيبه على ذلك ويجزيه الجزاء الأوفى حتى يُرضيه.

وهذا المعنى نجده واضحاً في خطاب الله تعالى للنفس المطمئنة الراضية بقضائه وقدره قائلاً: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً﴾^(٢).

وفي آية أخرى أيضاً، يبيّن الله تعالى حالة التلازم والارتباط بين رضا الله عن عباده ورضاهم عنه بما جزاهم عن الرضا بقضائه وقدره بأنّ لهم الجنة خالدين فيها أبداً، حيث يقول تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٣).

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة الفجر، الآيتان ٢٧ - ٢٨.

(٣) سورة المائدة، الآية ١١٩.



المقال الحادي والأربعون آثار أخرى لمحبة الله (١)

الانشغال التام بذكر الله، من آثار الإخلاص في محبة المعبود

إن الالتزام بقراءة الأدعية والمناجيات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام يُنير ذهن الإنسان ليتعرّف على الصفات الإنسانية المتعالية والدرجات الرفيعة التي يمكن أن ينالها، ويُدرك السبل الصحيحة للارتباط بالله تعالى؛ فهذه التعاليم الدينية بما تحمله من قيم إنسانية تُعرّف الإنسان على بعض الحقائق الإلهية التي تحجبها عنه اهتماماته المادية وظروف حياته اليومية، ولا تمنحه الفرصة الكافية للتفكير فيها. فقراءة هذه الأدعية والمناجيات تجعل الإنسان يتعرّف على السبل والأدوات اللازمة لطّي مسيرته التكاملية نحو الرقي والتعالي، وتكشف له ما ينفعه ويضرّه، وتجعله يُدرك أن الحياة الدنيا لا تقتصر على الأكل والشرب والشهوات المادية؛ بل تحمل في طياتها حقائق إلهية تمنح حياة الإنسان هويّتها وتعاليتها الأخلاقية، وترسم شكل حياته الإنسانية والمعنوية.

فمناجاة المحيّين مثلاً والتي تدور كلماتها ومعانيها حول محور محبة الله والقرب منه تعالى، ترشدنا إلى كيفية نيل محبة الله التي تمثل





أسمى الصفات الإلهية والإنسانية، حيث نجد الإمام السجاد عليه السلام في بداية هذه المناجاة يسأل الله أن يجعله ممن يُخلصه لمحَبَّته وودّه. فمن الواضح أن قلب الإمام يفيض بمحَبَّة الله؛ لكنّه مع ذلك يسأله ويدعوه أن تبلغ هذه المحَبَّة أعلى درجاتها حتى لا يبقى مكان في قلبه إلّا ويفيض برحمة الله ومحَبَّته فلا يشوبها أي شيء آخر؛ لأن هذه المحَبَّة الخالصة توصل الإنسان إلى أسمى مراتب التعالي والكمال.

ومن الطبيعي أنّ محَبَّة الإنسان إذا ما خلصت لله وملأت قلبه وجميع جوانحه، أصبح فكر الإنسان وذهنه منشغلاً تماماً بذكر الله، ولن يفكر بعدها بأي شيء يُبعده عن ربّه، كما هو الحال في أنواع الحبّ المتعارفة في حياتنا اليومية، حيث نرى الإنسان عندما يُحبّ شخصاً ويتعلّق قلبه به ينشغل ذهنه بالتفكير فيه، وكلّما فرغ تفكيره من مشاغل الحياة ومشاكلها مال قلبه نحو محبوبه، وبدأ يسعى إلى لقائه والأنس بالحديث معه ومناجاته.

وبعد الحديث عن محَبَّة الله يُعرّج الإمام في مناجاته إلى بيان آثار هذه المحَبَّة ولوازمها، وقد ذكرنا أحد هذه الآثار واللوازم وهو الرضا بقضاء الله وقدره، حيث يقول الإمام في هذا الصدد:

«وَمَنْحَتُهُ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَحَبَوْتُهُ بِرِضَاكَ، وَأَعَدَّتْهُ مِنْ هَجْرِكَ وَقِلَاكَ».



٢٥٥



أَحِبَّاءُ اللَّهِ وَمُشَاهِدَةُ جَمَالِهِ

جاءت الإشارة إلى رؤية أولياء الله وأحبابه لرَبِّهم ومشاهدتهم لوجهه الكريم في هذه المناجاة بعبارة «بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ»، ولو لم تكن هذه المسألة أمرًا حقيقيًا يمكن تحقُّقه لما أشارت إليه كل هذه الروايات والأدعية؛ لكن لا ريب في أنَّ لهذه الرؤية والمشاهدة مراتب يجلس على قَمَّتِها الأئمة المعصومون عليهم السلام، في حين تختص باقي المراتب الأدنى من تلك المرتبة بباقي الصالحين، حيث يعتبر التوفيق لنيل كل مرتبة من مراتب النظر إلى وجه الله تعالى شرفًا وعِزَّةً لكل إنسان، لما يحمله النظر إلى وجه الله من لذة تفوق كل أنواع اللذة الأخرى، حتى أنها أشدَّ لذة من نعم الجنة وجمالها؛ ولهذا كان الإمام السَّجَّاد عليه السلام يسأل الله ويدعوه في مناجاته أن يوفِّقه لنيل شرف النظر إلى وجهه الكريم.

وتعتبر مرتبة النظر إلى وجه الله أسمى المراتب التي يمكن أن ينالها الشهيد في سبيل الله الذي بذل نفسه ووجوده فداءً لإعلاء كلمته.

وعلى ذلك ينبغي علينا السعي قدر الإمكان لفهم هذه المرتبة الرفيعة والوقوف على معانيها وحقائقها بما يتعدَّى الفهم السطحي لبعض العبارات والملاحظات التي تشير إلى مشاهدة الله والنظر إلى وجهه الكريم، هذه الحقيقة التي يبيِّنُها الله سبحانه وتعالى عند وصفه حال أهل الجنة بقوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾^(١)، ثم يصف بعد ذلك في الآيات التالية حال المحرومين من رؤيته والنظر إلى وجهه الكريم، فيقول: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.



وفي آيات أخرى يقول تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾^(١).

في علاقة الحُب المتعارفة يشعر الإنسان بلذة كبيرة خاصة عند لقاء الحبيب والأنس برويته والحديث معه، وتشتد هذه اللذة أكثر فأكثر كلما ازدادت علاقة الحُب بينهما حتى تصل إلى مرحلة العشق والهيام بالمحبيب.

وتبلغ اللذة التي يشعر بها العاشق عند مشاهدته معشوقه أوج مراتبها، حتى أصبحت محوراً لأشعار الغزل ومادةً لقصص العشق في مختلف الثقافات والمجتمعات البشرية، حيث ركزت في مواضيعها - أكثر من أي موضوع آخر - على وصف لذة لقاء المحبوب، ووصف حال العاشق عند رؤيته معشوقه، وما يشعر به من قلقٍ وخوفٍ من ألم الفراق وغياب المحبوب.

وإن من الواضح أن رؤية الله ومشاهدته ليست أمراً حسياً؛ لأن الله مجرد وليس بجسم حتى تمكن رؤيته عياناً بالحواس الإنسانية الظاهرة؛ لذا ينبغي أن نستمدّ العون من فهمنا لمفهوم الرؤية التي تحدث عند المواجهة بين شخصين عاديين، لتسهيل فهمنا لمعنى رؤية الله ومفهوم مشاهدته.

فعندما يلتقي شخص بشخص آخر فاللقاء بينهما يعني أن يقف كل منها مقابل الآخر بحيث ينظر أحدهما إلى وجه الآخر. وعليه فالمراد



من معنى اللقاء والمواجهة - ومنها لقاء العاشق بمعشوقه - وقوف كل منهما مقابل الآخر، بحيث يرى كل منهما وجه الآخر، ولا يُطلق مصطلح «اللقاء» بين اثنين عندما ينظر أحدهما إلى ظهر الآخر مثلاً. واللازم من اللقاء بين الحبيبين والمواجهة بين العاشقين هو علاقة الحب التي تربط بينهما، مما يعني أن لقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم يعني إبداء المحبة والإخلاص له تعالى، والنهل من صفاته الرحمانية حتى تمتلئ قلوبنا بعبير رحمته ورأفته اللامتناهية.

وعند اللقاء، يتلذذ الإنسان بجمال المحبوب، بحيث كلما ازداد جماله أكثر فأكثر زادت لذة الإنسان من رؤية محبوبه؛ لذا لا بد - أولاً - من أن يكون المحبوب جميلاً حتى يستلذ الإنسان برؤيته، ولا بد ثانياً من أن يتسلح الإنسان بالعلم والإيمان الذي يمكنه من إدراك قيمة هذا الجمال. ومن هنا، فإذا ما رأى الإنسان شخصاً قبيحاً ولم ير فيه أي صفة من الجمال، فإنه طبعاً لن يستلذ برؤيته، وكذلك الحال بالنسبة للإنسان الذي يفتقد القدرة على إدراك معنى الجمال، فإنه أيضاً لن يستلذ برؤية الآخر حتى لو كان جميلاً. فكلما كانت عين الإنسان ضعيفة تعجز عن تمييز الجمال، فقد الإنسان نعمة التلذذ به، والعكس أيضاً صحيح، إذ كلما كانت عين الإنسان قوية ثابتة استلذ أكثر برؤية الجمال.

عظمة مشاهدة صفات الكمال والجمال الإلهية اللامتناهية

لما كان الجمال كملاً، كان الإنسان يشعر باللذة من رؤيته، وحيث إن القبح نقص، فإنه يضيف على الإنسان حالة من الشعور بالألم والامتعاض عند رؤيته. فكيف إذا ما اجتمعت كل صفات الجمال في هذا العالم في موجود واحد. فلا شك حينها في أن الإنسان سيشعر بلذة تفوق الوصف عندما ينظر إلى هذا الموجود. فعندما يقف العاشق ينظر إلى كل هذا



الجمال والكمال في معشوقه، لا غرو أنه سيفقد السيطرة على نفسه وسيذوب في جمال معشوقه حتّى يضحى على استعداد للتضحية بكل وجوده، ويقدمه قرباناً تحت قدمي معشوقه كي لا يفقد لحظة من لحظات النظر إلى جماله.

إن اجتماع جميع صفات الكمال والجمال في شخص واحد أمر محال؛ لكن حتى لو افترضنا إمكان حدوث ذلك، فإنها لا تعدو كونها صفات محدودة، فالناتج عن اجتماعها يكون محدوداً أيضاً، وبالتالي فإنها لن تساوي شيئاً من صفات جمال الله وكماله اللامتناهية.

وعليه، فإذا ما تمكّن الإنسان من إدراك صفات الجمال عند المعشوق الحقيقي، وأصبح مؤهلاً للنظر إلى جمال وجه معبوده الأزلي والأبدي بما يحمله من صفات جمالية وكمالية لا حدود لها، فإنه سيشعر حينها بلذة تفوق الوصف يعجز الإنسان عن مقارنتها بأنواع اللذة غير الإلهية المحدودة.

وما نستنبطه من آيات القرآن الكريم والروايات التي تتحدّث عن هذه المسألة - ومن بينها هذه المناجاة - هو أن الإنسان يمتلك القدرة والاستعداد اللازم لفهم وإدراك هذا الجمال غير المحدود، ومن ثم الشعور باللذة عند رؤيته، تلك اللذة التي يفوق إدراكها والشعور بها كل أنواع اللذات الأخرى التي يمكن أن يشعر بها الإنسان طيلة حياته الفانية في هذا العالم؛ لأن تلك اللذات محدودة، بينما اللذة الناشئة عن مشاهدة الله والتمتع بالنظر إلى صفاته الجمالية، لذة غير محدودة ولا نهاية لها. فإذا ما اكتشف الإنسان وجود هذا الاستعداد وتلك القدرة العظيمة والعجيبة التي أودعها الله في نفسه، وأدرك المنزلة الرفيعة والمقام العظيم الذي يمكن أن يبلغه بواسطتها، وأن بإمكانه الارتباط



بذلك المحبوب المتَّصف بكل صفات الجمال اللامتناهية، فهل يمكن حينها أن يتخلَّى عن كل هذا الجمال، ويترك نفسه أسيرةً للأمور الماديَّة الواهية والمحدودة الممتلئة بالآفات والشهوات والقبايح؟

ونحن إذا لم نكن نملك الاستعداد اللازم لفهم الحقائق الإلهيَّة المتعالية كمشاهدة الله تعالى والنظر إلى تجلّياته الربوبية، أمكننا أن نستمدَّ العون من قراءة الأدعية والمناجيات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، ومنها هذه المناجاة مورد البحث التي تتحدّث عن هذه الحقائق، كي نتمكّن من فهمها وإدراكها.

إن قراءة النصوص الدينية المتعالية تساعدنا على فهم وإدراك عظمة الإنسان والقدرات التي أودعها الله في وجوده، وما يمكن أن يصله الإنسان من منزلة رفيعة ومقام عظيم يصعب علينا فهمه وإدراكه.

إذاً، هل من العقل والإنصاف أن نشغل كل وقتنا وجهدنا في أمور تافهة لا فائدة منها، ونغفل عن حقيقة وجودنا والغاية منه؟ الحقيقة التي قال الله عنها في كتابه الكريم: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾^(١)، أو ما جاء في الحديث القدسي، حيث يقول تعالى: «عَبْدِي خَلَقْتُ الْأَشْيَاءَ لِأَجْلِكَ وَخَلَقْتُكَ لِأَجْلِي وَهَبْتُكَ الدُّنْيَا بِالْإِحْسَانِ وَالْآخِرَةَ بِالْإِيمَانِ»^(٢).

الرضا بقضاء الله يتحقّق بواسطة محبّته عزّ وجلّ

تحدّثنا سابقاً عن الرضا بقضاء الله، وقلنا إن هذا المقام الرفيع الذي تحدّث عنه الروايات والنصوص الدينية الكثيرة واعتبرته منزلةً عليا من

(١) سورة طه، الآية ٤٢.

(٢) الحر العاملي، الجواهر السنية، الصفحة ٣٦١.



منازل معرفة الله، يمكن بلوغه من خلال الوسائل والسُّبل المتعارفة؛ لكن ذلك يستغرق وقتًا طويلًا وجهدًا كبيرًا مصحوبًا بكثير من الصعوبات والمشاكل.

ونحن ندرك أن كثيرًا مما يتمناه الإنسان ويطلبه يختلف عما أراده الله وقرّره له؛ لذلك فالإنسان يشعر أحيانًا بالامتعاض والألم وعدم الرضا مما يتعرّض له من مشاكل تتطابق مع تقدير الله وقضائه. ومن الصعب على الإنسان أن يصل إلى مقام الرضا بقضاء الله من خلال التفكير بأن جميع أفعال الله وتقديراته تتطابق مع الحكمة والمصلحة؛ لكنه سيسهل عليه بلوغ مقام الرضا بقضاء الله إذا ما أحبَّ الله تعالى حُبًا شديدًا وأخلص في حُبِّه؛ لأن الإنسان عندما يُحِبُّ شخصًا حُبًا شديدًا سيقبل بكل ما يصدر عنه ويرضى به ويسلم به تسليمًا مطلقًا، سواء كان ذلك يصبُّ في نفعه أو في ضرره. فمن يُحِبُّ الله حُبًا خالصًا يرضى بكل ما يصدر عنه ويرضى بقضائه في كل ما يتعرّض له من حوادث مؤلمة، كأن يُصاب بكسرٍ في قدمه أو يتعرّض للفقر أو يمرض ولده؛ لأنه يعلم أن جميع هذه الحوادث ناشئة عن إرادة الله. وأمام ذلك يسعى هذا الإنسان إلى كسب رضا الله أيضًا، لأن العاشق والمُحِبَّ يسعى دائمًا لأن يفوز بحُبِّ المحبوب، ومن آثار هذا الحُبِّ ونتائجه أن يرضى المحبوب عن حبيبه، بحيث يتألم المُحِبُّ كثيرًا إذا ما علم بعدم رضا المحبوب عنه وغضبه عليه، وسيبقى يتمنى لو يحظى مرَّةً أخرى برضاه وحُبِّه.

ونظرًا إلى كون أشدَّ ما يتمناه العبد الصالح المطيع لربِّه والمخلص في محبَّته هو أن ينال رضا الله، نرى الإمام السَّجَّاد عليه السلام يسأل الله ويدعوه أن يجعله ممن حباه لنيل رضاه، واصطفاه لبلوغ مقام الرضا



عنده، فيقول: «وَحَبَّوْهُ بِرِضَاكَ»، ثم يذكر الإمام بعد ذلك آثارًا أخرى من آثار محبة الله، فيقول: «وَأَعَذَّتُهُ مِنْ هِجْرِكَ وَقَلَّاكَ».

ألم الفراق وهجر المحبوب

إن أشد ما يؤلم المُحِبَّ ويؤذيه، هو غضب المحبوب وعدم اهتمامه به؛ لهذا نجد الإمام السَّجَّاد عليه السلام بعد أن فرغ من دعاء الله بأن يجعله ممن حباه لرضاه، يسأل ربّه أن لا يبتليه بألم الفراق والهجران، وأن يعيذه من عذاب العيش بعيدًا عن رحمته وعطفه. فالهجر يعني الفراق بعد الخصام والغضب؛ لكن لا يُعَدُّ مطلق الفراق هجرًا؛ ذلك أن فراق المحبوب والحرمان من لذة اللقاء والوصال يعتبر من لوازم هذه الحياة الدنيا. وأشد ما يتمناه عباد الله وأوليائوه الصالحين هو العيش بلذة وصال المعبود؛ غير أن طبيعة هذا العالم تقتضي منهم العيش بحرقة ألم فراق المعبود ولوعة الحرمان من النظر إليه، لذا ترى الحزن يسكن أرواحهم إلى الأبد.

بيد أن أشد ما يؤلم هؤلاء السالكين ويصعب عليهم تحمّله هو هجر المحبوب وغضبه عليهم وعدم رضاه؛ بل يؤلمهم حتّى مجرد التفكير بأن المحبوب أصبح لا يهتمّ بهم وابتلاهم بألم الهجر ولوعة الفراق.

ومعنى كلمة «قَلَى» التي استعملها الإمام السَّجَّاد في مناجاته يرادف تقريبًا معنى كلمة «هَجَرَ»، وتأتي بمعنى البُغْض والخصام، وقد جاءت في عدد من آيات القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ ^(١).

* * *



ثم يتابع الإمام السَّجَّاد عليه السلام مناجاته، فيذكر عددًا آخر من آثار الإخلاص في محبة الله، فيقول:

«وَبَوَّأَتْهُ مَقْعَدَ الصِّدْقِ فِي جِوَارِكَ،
وَحَصَصَتْهُ بِمَعْرِفَتِكَ، وَأَهْلَتْهُ لِعِبَادَتِكَ،
وَهَيَّيْمَتْ قَلْبَهُ لِإِرَادَتِكَ، وَاجْتَبَيْتَهُ
لِمُشَاهَدَتِكَ، وَأَخْلَيْتَ وَجْهَهُ لَكَ،
وَفَرَّغْتَ فُؤَادَهُ لِحُبِّكَ، وَرَغَّبْتَهُ فِيمَا
عِنْدَكَ، وَالْهَمَمْتُه ذِكْرَكَ، وَأَوْزَعْتَهُ شُكْرَكَ،
وَشَغَلْتَهُ بِطَاعَتِكَ، وَصَيَّرْتَهُ مِنْ صَالِحِي
بَرِيَّتِكَ، وَاخْتَرْتَهُ لِمُنَاجَاتِكَ، وَقَطَعْتَ عَنْهُ
كُلَّ شَيْءٍ يَقْطَعُهُ عَنْكَ».

معرفة الله وفهم عظمة مقام القرب منه

إن غاية ما يتمناه الإنسان هو العيش بجوار المحبوب والقرب منه، وحال السالكين في طريق العشق الإلهي أشدَّ ولهاً من غيرهم لبلوغ مقام القرب من الله والتمتع بمظاهر رحمته وعطفه اللامتناهية.

وليس من شك في أن مقام القرب من الله وجواره أشرف وأعزَّ مقام يمكن أن يناله الإنسان؛ لأنه المقام الذي يتخلص فيه الإنسان من جميع الآلام والأحزان، وتسكن فيه نفسه، وتهدأ روحه، ويصل إلى أعلى درجات الاطمئنان والرضا. وقد تجلَّى هذا الاطمئنان الأبدي في قصة آسية بنت مزاحم زوجة فرعون، فبعد أن آمنت بالله ونبوة موسى عليه السلام



٢٦٣



تعرّضت لأقسى أنواع العذاب من قبل فرعون محاولاً إجبارها على التخلّي عن إيمانها والعودة إلى دينه والشرك بالله؛ لكنّها أبَتْ وتحملت كل هذا العذاب، لتخاطب ربّها بحالة عجيبة من الاطمئنان قائلة: ﴿رَبِّ أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

وتمثّل المعرفة مقدّمةً وبدايةً لتحقيق أي هدف، لذا فإن معرفة الله أمر ضروري لكل من يروم الوصول إلى مقام محبة الله والتنعّم بآثارها، كالأنس بجوار الله والقرب منه، ومناجاة المعبود مباشرة، والتحدّث مع المعشوق بلا واسطة أو حجاب. فالإنسان الذي تعوزه المعرفة الكافية بالله تعالى ولا يدرك معنى وجوده سبحانه وحضوره جلّ وعلا، كيف يمكن له أن يطلب تلك المطالب المتعالية كنيل مقام الإخلاص في محبّته وبلوغ منزلة القرب منه تعالى؟

كثير من الناس يفتقرون المعرفة الكافية بالله تعالى، ولا يعلمون شيئاً عن حقيقته سوى أنه موجود مجرد خَلَقَ هذا العالم وَخَلَقَ الجنة والنار، فهم لا يدركون حقيقة وجوده ومعنى صفاته؛ لذا تجدهم يهتمّون فقط بالتنعّم بآثار الله ونعمه والفوز بالجنة والخلاص من النار. وبدلاً من أن يدركوا مدى حاجتهم إلى الله، تجدهم يهتمّون بحاجتهم إلى نعمه في هذه الدنيا، ليغفلوا عن حقيقة أن حاجة الإنسان إلى الله أكبر بكثير من حاجته إلى مخلوقات الله.

فالإنسان يحتاج إلى تقوية معرفته بالله تعالى حتّى يتمكن من إدراك ضعفه ومدى حاجته الدائمة إلى الحقّ تبارك وتعالى، ويفهم سعة

(١) سورة التحريم، الآية ١١.



رحمة الله ومحَبَّته، إلى درجة لا يمكن معها الاستغناء أبداً عن لطفه وعونه، أو الاستعانة بغيره.

ومن الطبيعي أنه كلما ازدادت هذه المعرفة أكثر أدرك الإنسان مدى عظمة الله أكثر، وفاض قلبه بمحبَّته، فَمَن لا يمتلك الخبرة في معرفة قيمة الأحجار الكريمة، يعجز عن تمييز الحجر الثمين عن الحجر المزيف أو الزجاج العادي؛ بل قد يخدعه لون الزجاج العادي ولمعانه وجماله فيتخيَّل أنه أثمن قيمةً من الحجر الأصلي.

فمن لا يعرف الله ولا يُدرك معنى القرب منه ومجاورته في عالم الآخرة، ولا يشعر بأهمِّية وعظمة محبَّة الله، ولا يُدرك حقيقة الجَنَّة وعظمة نِعم الله في الآخرة، فإنه سيرجِّح التمتع بالأموال والنِعم الدنيوية على ما يمكن أن يحظى به في الجَنَّة من نِعم إلهيَّة وعلى الفوز بمقام القرب من الله تعالى؛ لأنه لا يُدرك في حياته سوى شهوات الدنيا ونعمها وملذَّاتها، ولا يفقه حقيقة نِعم الآخرة وملذَّاتها، فتراه يفضِّل القصر والبيت الضخم الجميل في الدنيا على الظفر بقصر في الجَنَّة، وتقتصر مطالبه وأمانياته على الفوز بنِعم الدُّنيا وشهواتها، ويغفل عن حاجته الحقيقية، وهي ضرورة الفوز بمقام القرب من الله والأنس بجواره.

وتأسَّياً بالأئمة المعصومين عليهم السلام نرى هذا الإنسان يلتزم بقراءة الأدعية الواردة عنهم، ويقرأ ما تتضمَّنُه من معانٍ عظيمة وحقائق إلهيَّة ومطالب للفوز بالجَنَّة والتمتُّع بنِعم الله فيها ونيل المقامات الإنسانية المتعالية؛ غير أنه لا يُدرك حقيقة ما يقرأ ومعنى ما يطلبه من ربِّه.

أما إذا ما توجَّه الإنسان بكلِّ جوارحه، ودعا الله أن يبوِّئه أفضل المقامات الإنسانية والمعنوية ومنها الفوز بمقام قربه وجواره، فإنه حينئذٍ سيزيد من سعيه لنيل هذه المطالب المتعالية ويبدل كل ما في



وسعه لتحقيق ما يصبو إليه، ويتخلّى عن المطالب الدنيوية الواهية والفارغة، وسيلتزم بتهيئة الأدوات اللازمة لتحقيق هذه المطالب المتعالية، ومنها ضرورة معرفة الله معرفةً حقيقيّةً ونيل المقام الذي وصل إليه أولياء الله الصالحون.

ونظرًا إلى أهميّة هذه المعرفة الخاصة وعظمتها، أكد الإمام السّجّاد عليه السلام عليها في هذه المناجاة، ودعا الله أن يتفصّل بها عليه؛ لأنّ أغلب الناس محرومون منها ولا ينالها سوى عدد قليل من عباد الله.

عظمة العبودية لله

نظرًا إلى كون العبودية لله هي السبيل الأمثل لنيل مقام القرب من الله والأنس بجواره، وهي التي تؤهّل الإنسان لمعرفة هذا المقام وقيّمته ومدى عظّمته، قال الإمام السّجّاد عليه السلام في مناجاته: «وَأَهْلَتْهُ لِعِبَادَتِكَ».

فالعبودية تعني أن يُدرك الإنسان حقًّا مدى فقره وعجزه أمام الله، ويُقرّ بأنه عبد الله ومحتاج إليه في كل شيء، وهذا الإقرار بالعبودية لا ينبغي أن يقتصر على اللسان فقط؛ بل لا بد أن تُقرّ به كل جوارحه، ويظهر جليًّا في سلوكه طيلة حياته. فالصلاة مثلاً وغيرها من العبادات تتضمّن في أركانها وشرائطها روح العبودية لله، لما يُظهره الإنسان عند أدائها وهو يخضع ساجدًا أمام ربّه من خضوع وخشوع لعظمة الخالق.

كذلك يتجلّى معنى العبودية لله في كل عمل يقوم به الإنسان قربّةً إلى الله قاصدًا منه طاعة الله وكسب رضاه.

فكل عمل يقوم به الإنسان بقصد الطاعة والقربة إلى الله تعالى يُعدّ نوعًا من العبادة لله، وبواسطته يضحي الإنسان برغباته ومطالبه فداءً لما



يريده الله تعالى، ويتخلّى عن هذه المطالب والرغبات أمام إرادة الله ومشيتته. فنحن وبعد كل هذه السنوات الطويلة من عمرنا التي قضيناها في تحصيل العلم وكسب المعارف الإلهية التوحيدية، لم نتمكّن حتى الآن من الوصول إلى المرحلة التي نحتقر فيها أنفسنا أمام الله، ونسعى فيها لأن تكون جميع مطالبنا ورغباتنا لكسب رضا الله؛ والسبب في ذلك يعود إلى كوننا لم نصل حتى الآن إلى مقام العبودية الحقّة لله ولم نوفّق لعبادة الله حقّ عبادته. فَمَنْ جَعَلَ المالَ والشهرةَ والمقامَ محورًا لحياته في هذه الدنيا، وجَعَلَ نفسه أسيرًا لشهواته ورغباته، لا يستحقّ أن ينال مقام العبودية الحقّة لله؛ لكنّه سينال هذا الشرف ويستحقّ هذا المقام ويضع قدمه في أول مرحلة من مراحل العبودية لله إذا ما تمكّن من تحرير نفسه من قيود الأسر، وإنقاذ روحه من حُبّ الدنيا والشهرة والمقام، وعدم الإسراف في التمتع بها إلّا بالمقدار الذي أباحه الله، وعدم الإفراط في عبادته أكثر مما كلّفه الله به حتى لا يقع في الحرام والذنب.

والوصول إلى أعلى درجات العبودية يتطلّب من الإنسان طاعة الله في تأمين احتياجاته الدنيوية، بحيث لو لم يأمره الله بضرورة الأكل والشرب وتهيئة احتياجاته الدنيوية لَزَهَدَ فيها وتخلّى عن توفير أقل ما يحتاجه لاستمرار حياته اليومية. فَمَنْ كان عبدًا لبطنه وشهوته، لا يستحقّ أن يكون عبدًا لله، ومثل هذا العبد لن يشعر باللذّة في عبادته، بل سيشعر بثقلها والتعب والضجر عند أدائها؛ أما من يستحقّ مقام العبودية لله فسيشعر عند الدعاء والمناجاة والعبادة بلذّةٍ تفوق الوصف لا يرغب معها بترك هذا الشعور باللذّة أو الحرمان من مُتعة مناجاة المعبود إلّا بالمقدار الذي يتمكّن فيه من تهيئة ما يسدّ به رمقه من متطلّبات حياته اليومية.

القلب الهائم بجمال الله تعالى

٢٦٧

يقول الإمام السَّجَّاد (عليه السلام): «وَهَيِّمَتْ قَلْبَهُ لِإِرَادَتِكَ وَاجْتَبَيْتَهُ لِمُشَاهَدَتِكَ».

الهيام حالة من الحُبِّ الشديد يصل إليها العاشق عندما يذوب بكل جوارحه في معشوقه، ويفقد فيها تركيزه وشعوره بما حوله، ويصبح حائرًا ولهاً بمحبوبه حتى يغفل فيها عن نفسه، ولا يرى شيئاً سوى المحبوب، فيظن من يرى حاله وسلوكه أنه مجنون، فالإنسان عندما يعرف الله حقَّ معرفته ويُحِبُّه بإخلاص شديد، يهيم قلبه وكل جوارحه بربه حتى لا يرى أحداً سواه، وينصبَّ جُلَّ اهتمامه وشعوره على معرفة المعبود والنظر إليه؛ ولهذا كان الإمام السَّجَّاد (عليه السلام) يدعو ربه أن يجعله ممن يهيم قلبه بإرادة الله، فيكون ممن اجتباه لمشاهدته والنظر إلى وجهه الكريم.

وقد تحدَّثنا في المباحث السابقة عن مقام المشاهدة، وقلنا إنَّ من الصعب جدًّا على الإنسان أن يُدرك ويفهم حقيقة معنى مشاهدة الله، وأشرنا إلى بعض الآيات والروايات التي تدلُّ على أن أولياء الله وبعض المؤمنين الذين وصلوا إلى أعلى مراتب الكمال قد بلغوا مراتب معيَّنة من مشاهدة الحقِّ تعالى؛ وهذه المشاهدة ليست من نوع المشاهدة الحسِّية؛ بل تعني مشاهدة الله بقلب المؤمن وبنور الإيمان؛ لذا عندما سألو أمير المؤمنين (عليه السلام): هل شاهدت ربَّك؟ قال: «أَفَأَعْبُدُ مَا لَا أَرَى؟»، فَقَالَ لَهُ السَّائِلُ: وَكَيْفَ تَرَاهُ؟ فقال: «لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ»^(١).



إن المرتبة الكاملة لمشاهدة الله تتحقق في عالم الآخرة، ويناها - بلطف الله ورحمته - المؤمنون وأولياء الله، لكن في حدود ما تتحمّله موجودات عالم الإمكان؛ لأن الإنسان في هذه الدنيا يكون محكومًا بقوانين عالم المادّة، وبالتالي لا يمكن أن تتحقّق المرتبة الكاملة لمشاهدة الله نتيجةً لعلائق المادّة وشوائبها، ويكتفي أولياء الله والصالحون من عباده بما يتلطف به الله عليهم من مرتبة أدنى لمشاهدته والنظر إليه سبحانه وتعالى.

وعندما طلب بنو إسرائيل من موسى عليه السلام أن يسأل ربّه رؤيته عيانًا، وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ رَدَّ فَعْلُهُ تَجَاهَ هَذَا السُّؤَالِ، فَقَالَ فِي الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَٰكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

قلب أولياء الله ينبض بمحبّة الله والتوجّه إليه

ثم يقول الإمام السّجّاد عليه السلام: «وَأَخْلَيْتَ وَجْهَهُ لَكَ، وَفَرَّغْتَ فُؤَادَهُ لِحُبِّكَ، وَرَغَّبْتَهُ فِيمَا عِنْدَكَ».

فالإنسان عندما يريد أن يتحدّث مع شخص آخر، يقف أمامه وجهًا لوجه، خاصّةً إذا ما كان يأنس بالحديث معه، ولا يدير ظهره له أبدًا ما دام يتحدّث معه. فعندما نقول يتوجّه الإنسان إلى ربّه فمعنى كلامنا أن يُقبل عليه بوجهه، وهكذا بالنسبة لقولنا «النظر إلى وجه الله»، فقد



أخذنا معنى الوجه بنظر الاعتبار في هذا التعبير، فهو يعني المقابلة ومواجهة الله وجهًا لوجه والأنس بمناجاته والقرب منه.

فالإمام السَّجَّاد عليه السلام يسأل الله - في هذه المناجاة - أن يجعله ممن يتوجَّه إليه، بحيث ينصب وجهه تمامًا نحو الله ولا يصرف نظره عنه أبدًا؛ لأن التوجَّه الكامل نحو الله والنظر إليه يُعدّ من آثار المحبَّة الخالصة له عزَّ وجلَّ، ورغم أن مجرد تصوُّر هذا الأمر يصعب على أمثالنا، وتحقُّقه أشدَّ صعوبةً علينا، لكنَّه بالنسبة لأولياء الله الذين تفيض قلوبهم بمحبَّته، يعتبر أمرًا عاديًّا ويسيرًا عليهم. ولطالما شاهدنا في حياتنا اليومية مثل هذا التوجَّه الكامل يقع بين فردين أثناء الحوار بينهما، بحيث يقف أحدهما مقابل الآخر وهو ينظر إليه أثناء الحديث ولا يلتفت إلى أي شخص آخر غير المخاطب أو المتحدث الذي يقف أمامه.

فمثلًا، الإخوة الأعزَّاء الجالسون في هذه المحاضرة يتوجَّهون بنظرهم وفكرهم نحوي ولا يشتتُّون فكرهم وحواسهم بأشياء أخرى، حتَّى يتمكنوا من الاستماع جيّدًا إلى كلامي وفهم المطالب التي أطرحها هنا. وهكذا الحال بالنسبة لمن أَسْرَ الله قلبه وفاض بمحبَّته، فهو يوجَّه كل جوارحه وفكره نحو الله ولا يشغل فكره أو قلبه بغيره، حتَّى يستثمر كل لحظة بحبِّ الله والأنس بمناجاته.

والتوجه نحو الله الذي نتحدَّث عنه هنا ليس من نوع التوجَّه الجسماني؛ لأن الله موجود مجرد وليس بجسم، بل ما نقصده بهذا التوجَّه هو أن يشغل الإنسان فكره وقلبه بحُبِّ الله والنظر إلى رحمته ولطفه، ويظهره من كل ما يشغله عن الله من عوامل ماديّة وموانع دنيويّة.



وجملة «وَفَرَّغْتَ فُؤَادَهُ لِحُبِّكَ»، يمكن اعتبارها أثرًا جليًا من آثار محبة الله، وكذلك يمكن اعتبارها تعبيرًا آخر عن محبة الله.

فالإمام عليه السلام يسأل الله بهذه الجملة أن يجعل قلبه وعاءً لمحبتة ويفرغه من محبة غيره، فماء الورد حتى يبقى نقيًا وسالمًا لا ينبغي أن نفسده بصب الخل عليه. كذلك الحال بالنسبة لعلاقتنا بالله ومحبتنا له، لا ينبغي أن نفسدها بمحبة غيره؛ لأن التعلق والارتباط بغير الله يتنافى مع حبنا وتوجهنا إليه تعالى، ويعمل تدريجيًا على إفراغ قلبنا من محبته.

والله تعالى إذا ما أراد أن يتلطف بعبده ويضع محبته في قلبه ويجعله يتلذذ بطعمها، يعمل أولًا على تطهير قلبه من كل علائق الدنيا وشهواتها التي تتنافى مع محبته، وبعد أن يخلو قلب عبده ويطهر من هذه العلائق الدنيوية، يسكب فيه رحيق محبته حتى يفيض بها، كحال الإنسان إذا ما أراد أن يسكب ماء الورد في وعاء ما، فإنه يقوم أولًا بتنظيف هذا الوعاء من كل الشوائب العالقة به، حتى لا يختلط ماء الورد بأي سائل آخر يمكن أن يفسد عطره.

والله تعالى أيضًا يعمل على تطهير قلب المؤمن من الشوائب وعلائق الدنيا، ثم يسكب فيه بعد ذلك رحيق محبته؛ لكن شوائب القلب وتعلقاته تتفاوت فيما بينها، فبعضها يمكن إزالته بسهولة، في حين يصعب إزالة البعض الآخر ويحتاج إلى فترة طويلة وجهد أكبر، كما لو أردنا أن نسكب ماء الورد في وعاء ممتلئ بالماء، فيكفي هنا أن نفرغ الوعاء من الماء حتى يصبح مهينًا لسكب ماء الورد فيه؛ لكن لو كان الوعاء يحتوي على مائع دهني لزج، فحينها يجب علينا بعد إفراغ الوعاء من المائع أن نقوم بغسله وتطهيره جيدًا حتى نتمكن من سكب ماء الورد فيه.



ولو أردنا أن نضع عطرًا في وعاء يحتوي على زيت الغاز [أي: زيت التشحيم]، فيجب علينا في هذه الحالة - بعد إفراغ الوعاء من الزيت - أن نغسله جيّدًا عدّة مرّات حتى تختفي منه تمامًا رائحة الزيت ثم نسكب بعدها العطر في الوعاء.

إن قلوب الشباب لم تتلوّث كثيرًا بشوائب الدنيا وعلائقها ولم ترسخ فيها؛ لذا يمكن بسهولة تطهيرها وإفراغها من هذه الشوائب والعلائق الدنيوية، ثم تزيينها بنور محبة الله؛ أما من قضوا عمرًا طويلًا يلهثون وراء علائق الدنيا وشهواتها حتى ترسخ في قلوبهم حب المال والمقام والمنصب والمنزل ووسائل الرفاه والراحة، فقد أصبح من الصعب جدًا تطهير قلوبهم وإفراغها من هذه العلائق والشوائب وإبدالها بمحبة الله؛ فهم سيحتاجون إلى الكثير من الأدوات والجهد والسعي المتواصل حتى يتمكنوا بتوفيق من الله من التطهر من كل واحدة من هذه العلائق الدنيوية، وبالتالي سيستغرق ذلك منهم وقتًا طويلًا وسنواتٍ متمادية وممارسة أنواع من الرياضات الروحية حتى يؤمن الله عليهم بلطفه ويتمكنوا من إفراغ قلوبهم وتطهيرها تمامًا من شهوات الدنيا وملذاتها، لتصبح مهياًً لاستقبال محبة الله.

ولا شك في أنّ المصائب وأنواع البلاء التي يتعرّض لها المؤمنون في حياتهم تعتبر نوعًا من أطياف الله عليهم ووسيلةً من وسائله التي تدفعهم لتذكره دائماً، وعلاجاً سريعاً لتطهير قلوبهم مما قد علق بها من شوائب وشهوات حتى تنهياً مرةً أخرى لتتزيّن بنور محبة الله.



الزهد في شهوات الدنيا، والتعلق بنعم الله، من صفات أجباء الله

يُعَدُّ الزهد في شهوات الدنيا وملذاتها الفانية، والتعلق بنعم الله وما يتلطف به علينا، أثرين آخرين من آثار الإخلاص في محبة الله. ولا ريب ستظهر هذه الصفات جليّةً عند من يعتقد بفناء هذه الدنيا وملذاتها وعلائقها الواهية، وأن البقاء الدائم هو لما عند الله من خير ونعم لا تُعدُّ ولا تُحصى. فالرئاسة والمقام والثروة والأموال لا تعدو كونها أموراً دنيويةً فانية، وهي - خلافاً لما نتصوّره - سريعة الزوال وعديمة الفائدة.

قد يصرف الإنسان أحياناً سنوات طويلة من عمره في السعي للظفر بمنصب أو مقام في المجتمع؛ لكنّه ما أن يظفر به وقبل أن يتمتّع بثمراته وفوائده يجد أن عمره قد انقضى ووصل إلى نهايته، ليغادر هذه الدنيا الفانية نادماً على ما فاتّه، وينتقل إلى حياته الأبدية في عالم الآخرة؛ بل البعض يأتيه مَلَكُ الموت وينقضي عمره حتّى قبل أن ينال المقام الذي سعى له طيلة هذه السنوات من حياته.

والله تعالى يؤكّد في القرآن الكريم على صفة البقاء والدوام لنعمه وما عنده من خير وبركات، وصفة الفناء لشهوات الدنيا وملذاتها التي قد يتعلّق بها الإنسان، فيقول في الآية الشريفة: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

وفي آية أخرى، بعد أن يبيّن الله حقيقة أن الموت هو المصير المحتوم لجميع الخلائق في هذه الدنيا، ويعد المؤمنين الذين تخلّصوا



٢٧٣



من شرك الشيطان وحبائله بالجنة والتنعم بنعيمها وملذاتها الأبدية، يقول تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ﴾^(١).

ثم يبين الله في آية ثالثة أفضلية الحياة الآخرة على الحياة الدنيا من الناحية الكيفيّة والكميّة، فيقول تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٢).

فكلمة «خير» في الآية الشريفة تبين الأفضلية الكيفيّة للحياة الآخرة على الدنيا، بينما تُشير كلمة «أبقى» إلى الأفضلية الكميّة للآخرة ودوامها وبقائها بالنسبة إلى الحياة الدنيا.

وفي آية أخرى ينسب الله هذه الأفضلية الكميّة والكيفيّة إلى نفسه، حيث ينقل حديث السحرة مع فرعون بعد أن شاهدوا معجزة موسى ﷺ وآمنوا بالله الواحد، رغم ما تعرّضوا له من عذاب شديد كي يتخلّوا عن إيمانهم ويعودوا مرّةً أخرى للإيمان بفرعون، حيث قالوا لفرعون: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٣).

إن من نال مقام المعرفة الحقّة بالله، وبلغ مقام المحبة الخالصة له تعالى، ورغب بكل ما عند الله من خير ونعم دائمة، ينبغي أن يشغل نفسه دائماً بذكر الله؛ لأن ذكر الله يساعد الإنسان على التخلّص من عوامل الغفلة في هذه الدنيا ويزيل آثارها السيئة عن روحه؛ ولهذا سأل

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

(٢) سورة الأعلى، الآيتان ١٦-١٧.

(٣) سورة طه، الآية ٧٣.



الإمام السَّجَّاد عليه السلام رَبِّهِ فِي هَذِهِ الْمُنَاجَاةِ أَنْ يُلْهِمَهُ ذِكْرَهُ وَيُوزِعَهُ شُكْرَهُ
عَلَى نِعَمِهِ وَبَرَكَاتِهِ.

٢٧٤



فَشَكَرَ اللَّهُ عَلَى نِعَمِهِ الْكَثِيرَةِ نَاشِئًا مِنْ مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ وَإِدْرَاكِهِ
عَظَمَةَ هَذِهِ النِّعَمِ وَأَهْمِيَّتِهَا، وَهُوَ يَحْفَظُهُ دَائِمًا لِلتَّفَكِيرِ بِهَا وَالسَّعْيِ
لِكَسْبِهَا وَالتَّنَعُّمِ بِهَا.

ثُمَّ يُوَاصِلُ الْإِمَامَ عليه السلام فِي مُنَاجَاتِهِ فَيَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَشْغَلَهُ بِطَاعَتِهِ،
وَيَجْعَلَهُ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَمِمَّنْ اخْتَارَهُ لِمُنَاجَاتِهِ وَالْأُنْسِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ،
وَيُعِينَهُ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ كُلِّ مَا يَبْعَدُهُ عَنْهُ وَيُفَرِّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ.



المقال الثاني والأربعون آثار أخرى لمحبة الله (٢)

في قسم آخر من المناجاة، يقول الإمام السجّاد عليه السلام :



«اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ دَأَبُهُمُ الْإِزْتِيَا حُ إِلَيْكَ
وَالْحَنِينُ، وَدَهْرُهُمُ الزَّفَرَةُ وَالْأَنِينُ،
جِبَاهُهُمْ سَاجِدَةٌ لِعَظَمَتِكَ، وَعُيُونُهُمْ
سَاهِرَةٌ فِي خِدْمَتِكَ، وَدُمُوعُهُمْ سَائِلَةٌ
مِنْ خَشْيَتِكَ، وَقُلُوبُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحَبَّتِكَ،
وَأَفْئِدَتُهُمْ مُنْخَلَعَةٌ مِنْ مَهَابَتِكَ».

يتضمن هذا المقطع عدداً من الحالات العرفانية التي يحتاجها
السالك في طريقه لنيل مقام القرب من الله تعالى، سنتطرق إليها في
المباحث التالية:



كيف تجتمع حالة الاطمئنان والسكينة عند أحباء الله مع المصائب والآلام المتتالية؟

يُشير طلب الوصول إلى حالة الاطمئنان والسرور نتيجة الأُنس مع الله، والوقوف قريبًا من حضرته تعالى، والشعور بالراحة وسكون النفس عند الاقتراب من محضر جلاله، يُثير تداعي حالة الإنسان المضطرب نتيجة المصائب والمحن والآفات التي تعرّض لها في حياته، بحيث يبقى مترقبًا الفرصة التي يجد فيها مكانًا آمنًا يلجأ إليه، ويستقر اضطرابه وتهدأ فيه روحه، وتسكن إليه نفسه، ويتحرّر من تلك المصائب والآلام؛ فحاله كحال الطفل الذي فارق أمّه وتعرّض طيلة فترة فراقه إلى كثير من المحن والآلام، وحالة من الجفاء، والجوع، والحرمان من عطف الأم وحنانها ودفع حضانها، وبعد كل هذا الألم يتعرّف على مكان وجود أمّه، فيهرع إليها مهرولًا بكل ما يستطيع من سرعة حتى يرمي بجسمه الضعيف في أحضانها، ويعانقها لينعم بدفع حنانها وعطفها، ولتداعب بيدها خصلات شعره، فينسى حينئذ كل ما مرّ به من مصاعب وآلام وتسكن نفسه المضطربة ويشعر بالطمأنينة والأمان مرّةً أخرى.

إن سكون النفس الذي يحدث عند الراحة والاطمئنان بعد الألم والعذاب، يقابل في معناه صوت «الآه» الممتدّ الذي يطلقه الإنسان عند الألم والعذاب، والعرب تطلق على ذلك الصوت الممتدّ الدال على النزاع والشفقة اصطلاح «الحنين».

وأحباء الله يتألمون كثيرًا بسبب المصاعب والآلام التي يتعرضون لها، خاصّةً بعدهم عن المحبوب، وحتى يتخلّصوا من هذا الألم يتجهون نحو البحث عن السبيل الذي يقربهم من محبوبهم، وما أن يصلوا إلى جواره ويدركوا أن محبوبهم مسرور بهم وراضٍ عنهم، تسكن أرواحهم وتهدأ



٢٧٧

نفوسهم، وينسون كل ما مرَّ بهم من مصاعب وآلام، لينعموا بلحظات من الطمأنينة والراحة بالقرب من المحبوب.



ومن اليسير علينا فهم هذه الحالة التي يمرُّ بها أحبَّاء الله؛ لكن ما يصعب علينا فهمه وتصوره هو أن الإمام السَّجَّاد عليه السلام بعد أن سأل الله أن يجعله ممن يشعرون بالراحة عنده والحنين إليه والأُنس بجواره، يطلب منه عزَّ وجلَّ أن يجعله ممن يفني عمره بالآهات والأنين، ويعبِّر عن هذا الطلب بقوله «وَدَهْرُهُمُ الزَّفَرَةُ وَالْأَنِينُ». والمعنى المتبادر إلى الذهن من هذه الجملة هو الآه والأنين الذي يطلقه أولياء الله وأحبَّاءه بسبب الآلام والمصاعب التي يتعرَّضون لها في حياتهم، والتي سيثيبهم الله على تحمُّلهم إياها أجزل الثواب وأفضله في الجنة ليعوِّضهم على ما فاتهم.

وهذا التفسير مقبول، خاصَّةً أن المؤمنين يُدركون جيِّدًا أن الله تعالى سيثيبهم خير الثواب وأجزله في الآخرة، إذا ما صبروا على ما يتعرَّضون له من مصاعب وآلام في الدنيا، وعندها سيصبح تحمُّل هذه الآلام والمصاعب أمرًا يسيرًا جدًّا عليهم.

لكن من المستبعد جدًّا أن يسأل العبد ربَّه أن يبتليه بالمصاعب والآلام ليُطلق بسببها صرخات الآه والأنين ثم يصبر عليها ويتحمَّلها، حتى يثيبه الله عنها خيرًا في الآخرة. فلم يردِّ في أدعية الأئمة المعصومين عليهم السلام أنهم سألوا الله أن يبتليهم بالمصائب والآلام حتَّى يطلقوا صوت الآه والأنين ثم يثيبهم بسبب ذلك الجزاء الأوفى في الآخرة؛ لهذا نعتقد أن التفسير الأوَّل لكلام الإمام السَّجَّاد عليه السلام هو الأكثر قبولًا من التفسير الثاني.



أما الاحتمال الثاني، فهو أن يكون كلام الإمام السَّجَّاد عليه السلام ناظرًا إلى الحالات المتضادة التي قد يتعرَّض لها الإنسان في وقت واحد تبعًا لاختلاف الظروف الخاصَّة والحيثيَّات التي تمرُّ به. فمثلاً، تحزن قلوبنا وتدمع أعيننا عندما تمرُّ علينا ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه في يوم عاشوراء ونستذكر ما جرى عليهم من مصائب وأهوال؛ لكنَّنا في الوقت ذاته نشعر بالفخر والسرور للمقام الرفيع الذي ناله الإمام، ولما مَنَّ الله به علينا من توفيق حبِّهم وتجديد العهد والولاء لهم، فنحن في هذه الواقعة الأليمة نمرُّ بحالتين متضادَّين، في الأولى نحزن ونبكي على مصاب الإمام الحسين عليه السلام، وفي الثانية نفخر ونشعر بالسرور لما ناله الإمام من مقام رفيع عند الله، وهاتان الحالتان تنشآن من الرؤيتين المختلفتين اللتين ذكرناهما، وأشارت إليهما زيارة الإمام في يوم عاشوراء، حيث نقرأ فيها: «يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، لَقَدْ عَظُمَتِ الرَّزِيَّةُ، وَجَلَّتْ وَعَظُمَتِ الْمُصِيبَةُ بِكَ عَلَيْنَا، وَعَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ»، لكنَّنا نقرأ في فقرة أخرى من الزيارة: «أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي أَكْرَمَ مَقَامَكَ وَأَكْرَمَنِي بِكَ أَنْ يَرْزُقَنِي طَلَبَ ثَارِكَ مَعَ إِمَامٍ مَنْصُورٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ»، ثم نقرأ أثناء سجدة الزيارة: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ لَكَ عَلَى مُصَابِهِمْ، الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى عَظِيمِ رَزِيَّتِي»^(١).

وقد علَّمتنا التجارب السابقة أنَّ الآه والأنين لا تصدر دائماً بسبب الألم والحزن والمصيبة فحسب؛ بل قد تنشأ أحياناً نتيجةً لشدة الفرح والسرور، كحال العاشق الولهان الذي يشهق من شدة البكاء وهو يعانق معشوقه فرحاً بلاقائه بعد طول فراق. فرغم تشابه مصاديق البكاء حسب



الظاهر في الحالتين، لكنهما في الواقع تنشآن عن أسباب وعوامل مختلفة؛ لذا ينبغي علينا التمييز بين أسبابهما وعدم الخلط فيما بينهما.



فقد يمرّ المرء أحياناً بحالات من الألم والغمّ والحزن فيلجأ إلى البكاء حتى يخفّف من شدة هذا الألم والحزن كي تهدأ روحه وتسكن نفسه؛ وهذا يعني أن البكاء في هذه الحالة يساعد الإنسان على تقليل شدة الألم والحزن وتجنّب أعراضهما وتأثيراتهما النفسية والروحية السيئة؛ لأن استمرار حالة الحزن والغمّ قد يؤدي إلى إصابة الإنسان بحالات من الاكتئاب والاضطراب التي قد تعرّضه للإصابة بأمراض نفسيّة وروحيّة وحتى جسدية خطيرة.

وفي أحيان أخرى، قد ينشأ البكاء نتيجةً للفرح والسرور لا نتيجة الغمّ والحزن، ونُطلق عليه اصطلاح بكاء الشوق أو بتعبير أدقّ «بكاء الفرح والوجد»؛ لأن الشوق يطلق على حالة الانتظار للقاء المحبوب؛ أي حالة الإنسان التي تسبق لقاء المحبوب، فهي تختلف عن حالة الإنسان الذي التقى بمحبوبه فأجهش بالبكاء فرحاً وسروراً بلاقائه وعناقه.

فالبكاء حالة إنسانية ونفسية معقّدة تنشأ بسبب عوامل مختلفة، تجعل منها ظاهرة مركّبة تحتاج إلى تحليل نفسي للوقوف على أسبابها وتأثيراتها، فهي يمكن أن تنشأ نتيجةً لعوامل مختلفة كالإحساس بالخضوع والتذلّل أمام المحبوب، أو الغمّ والحزن، أو بسبب الإحساس بالفرح والسرور.

التوجّه الكامل إلى الله تعالى يبعث الاطمئنان في نفوس أحبائه

من الواضح أن الإمام السّجّاد عليه السلام عندما يسأل الله أن يجعله ممن دأبه وهّمّه الارتياح والاطمئنان إليه، ثم يسأله في الوقت ذاته أن يقضي عمره



بالتأوه والأنين، فإن هذا التضاد في السؤالين ناشئ عن حالتين متفاوتتين يمرّ بهما الإنسان في آن واحد؛ فالأفراد الذين منّ الله عليهم بلطفه ورحمته وغمر قلوبهم بمحبّته، لا يشعرون بالراحة والاطمئنان إلّا في ظل كمال توجّهم نحوه، ولا يعبّون بأي شيء غيره وبما يجلبه لهم من أذى واضطراب، ولو لم يكلّفهم الله بالقيام بواجباتهم في إصلاح المجتمع وهدايته، لفرّوا من الانغماس في مشاكل هذا المجتمع، ولجؤوا إلى ربّهم يأنسون بمناجاته في خلواتهم؛ إذ هم لا رغبة لهم تمامًا بهذه الدنيا، وهم زاهدون في ملذّاتها، وينتظرون اللحظة التي تخرج فيها أرواحهم من هذا العالم لتعرج نحو عالم الآخرة، فينالوا مقام القرب من الله تعالى: «وَلَوْلَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةً عَيْنٍ شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ»^(١).

فالرسول الأكرم ﷺ الذي يعتبر أفضل خلق الله وأشرفهم، ونال أعلى مراتب القرب من الله، ويفيض قلبه بمحبّة الله، ولا يغفل لحظة واحدة عن ذكر الله وتسبيحه، يشعر بالأذى والألم والحزن من البقاء في هذه الدنيا، والانغماس في مشاكل المجتمع؛ لأنه يشعر أنها قد تبعد عن ذكر الله وتقلّل من توجّهمه الكامل نحو ربّه.

إن لقاء أمير المؤمنين وفاطمة الزهراء (عليهما السلام) والحديث معهما يبعث في نفس الرسول الأكرم الراحة والاطمئنان؛ لأنهما يمثلان مظهرًا من مظاهر رحمة الله، ولأن كلامهما وسلوكهما ينسجمان مع تعاليم الله؛ لكن لقاءه وحديثه مع باقي الناس يبعث في نفسه الضجر والألم، ومن هذا المنطلق، نسمع الرسول الأكرم ﷺ حين يحلّ وقت



الصلاة يطلب من مؤذنه بلال الحبشي أن يريجه بالآذان؛ لما تمثله الصلاة عنده من عودة إلى مناجاة الله والاطمئنان بقربه بعد يوم شاق من الألم والانشغال بمشاكل الحياة اليومية والحديث مع الناس، حيث يقول: «أُرْحَنَا يَا بِلَال»^(١).

فالرسول الأكرم ﷺ كان يقضي في الصلاة ألدَّ وأفضل لحظات حياته؛ لأنها تمثل أعلى مراتب الخضوع والخشوع لله، وتمنح الإنسان الفرصة لمناجاة الله والتقرُّب منه؛ ولهذا كان يقول: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطَّبِيبُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٢).

إن من واجبات الإنسان المتعدِّد الزوجات العدل بين زوجاته في كل شيء، ومنها تقسيم الليالي التي يقضيها مع كل واحدة منهن؛ ولهذا كان الرسول ﷺ يقضي كل ليلة عند إحدى زوجاته، لكنَّه ما أن تخلد زوجته إلى النوم حتى يقوم من فراشه ويقضي وقته في عبادة ربِّه، وفي إحدى الليالي التي كان يقضيها في بيت أم سلمة، استيقظت أم سلمة من نومها فلم تجد رسول الله ﷺ في فراشه، فظنَّت أنَّه ذهب إلى بيت زوجة أخرى من زوجاته، فنهضت تبحث عنه، فوجدته قائماً يُصَلِّي في إحدى زوايا المنزل، رافعاً يده إلى السماء يدعو ربَّه قائلاً: «اللَّهُمَّ لَا تَنْزِعْ مِنِّي صَالِحَ مَا أُعْطَيْتَنِي أَبَدًا، اللَّهُمَّ لَا تُشْمِتْ بِي عَدُوًّا وَلَا حَاسِدًا أَبَدًا، اللَّهُمَّ وَلَا تَرُدَّنِي فِي سُوءٍ اسْتَنْقَذْتَنِي مِنْهُ أَبَدًا، اللَّهُمَّ وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ أَبَدًا»^(٣).

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٨٢، الباب ١، الصفحة ١٩٣.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، الجزء ٢، الصفحة ١٤٤، الحديث ١٧٥٥.

(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ١٦، الباب ٩، الصفحتان ٢١٧-٢١٨، الحديث ١١.



كان رسول الله ﷺ - وهو الذي كان يبكي بشدة ويعتصر قلبه الألم والحزن - يعيش في الوقت ذاته في نشوة من الاطمئنان واللذة والسرور، خاصة في اللحظات التي كان يخلو فيها مع ربه ويأنس بمناجاته؛ لكونه أفضل من ذاق طعم محبة الله وأدرك حلاوتها ولذتها، فكان يشعر بالسعادة والرضا عند القيام بكل عمل يُرضي الرب، وما أشد رضا الرب حينما يرى عبده وقد استيقظ في ظلمة الليل تاركًا حلاوة النوم في فراش الراحة والدعة، ليقف قائمًا يُصلي في محرابه ويناجي ربه؛ لذا كان رسول الله ﷺ يجتهد في كسب رضا المعبود، ويثابر دائمًا على قيام ليله في العبادة والدعاء والمناجاة وهو يجهش بالبكاء ألمًا من شدة الفراق ليشعر بلذة تفوق الوصف.

وأي شخص آخر ينال مثل هذه المرتبة السامية من معرفة الله، ويُدرك حقائق عالم الملكوت، سيزهد بزخارف الدنيا وملذاتها الواهية، وسيجد اللذة الحقيقية والسرور والاطمئنان في عبادة الله ومناجاته، ولن يغفل لحظة واحدة عن ذكر الله؛ لأن التفریط - ولو في دقيقة واحدة من مناجاة الله والأنس بذكره - يُعدّ عند أولياء الله خسارة كبرى لا يمكن تعويضها بكل زخارف الدنيا وملذاتها. ومن هنا، نجد علماء الدين وأولياء الله الصالحين يواظبون غاية المواظبة على إقامة صلاة الليل ومناجاة الله فيها، ليغرقوا في بحر من السعادة واللذة الحقيقية إلى الدرجة التي يصرخون فيها بوجه الملوك والسلاطين أين أنتم من هذه اللذة والسعادة؟! ولو أنكم كنتم تعلمون مدى اللذة والسعادة التي يشعر بها المرء في صلاة الليل ومناجاة الله فيها، لما صرفتم كل هذا الوقت والجهد في اللهات وراء زخارف الدنيا، وكسب السلطة والمقام، والخلود إلى



الراحة والدعة واللذة بمظاهر الدنيا الفانية، ولما تركتم نعمة صلاة الليل ونيل السعادة الحقيقية، ولما كنتم تغفلون لحظة واحدة عن ذكر الله وعبادته، ولما أضعتم وقتكم هباءً في الجري خلف زخارف الدنيا وملذاتها الزائلة!

فهنيئاً لمن ذاق طعم اللذة الحقيقية، وأدرك نيلها بذكر الله والأنس بمناجاته، أولئك الذين يمثلون مصداقاً واقعياً لكلام الإمام السَّجَّاد عليه السلام، ويجدون راحتهم واطمئننانهم بالقرب من الله، وفي الوقت نفسه يُطلقون دائماً الآهات والأنين من ألم فراق المعبود.

أما من خدعتهم الدنيا وشغلتهم بزخرفها، فأولئك حينما يشاهدون أولياء الله يتأوّهون ويأنون دائماً، فإنهم يتظاهرون بالحرقة عليهم ويظنون أنهم يتألمون من مصاعب الحياة ومصائبها؛ لكن هؤلاء المساكين لا يعلمون قيمة الحياة التي يعيشها أولياء الله، ويغفلون عن مدى السعادة واللذة التي يشعرون بها من كل هذا التأوه والأنين؛ فأولياء الله يسخرون من حال هؤلاء السلاطين ومن زخارف الدنيا وملذاتها الفانية التي يلهثون وراءها، ويعجبون كيف يترك هؤلاء لذة مناجاة الله، ويتعلّقون بحُبِّ الدنيا ورائحتها النتنة.

وهنيئاً لأولئك الذين يمرّغون جباههم على التراب خضوعاً وخشوعاً لبارئهم، وعيونهم ذابلة من الأرق وقلة النوم في سبيل الله وكسب رضاه، حالهم كحال العاشق الولهان الذي نال لذة الوصال بعد الهجر وطول الفراق، فهو يعيش حالة من النشوة والسعادة بقاء المحبوب والأنس بقربه حتى لا تغمض فيها عينه من الصباح إلى الليل ولا يغفل فيها لحظة واحدة عن مناجاة محبوبه والنظر إليه.



ثم يتابع الإمام عليه السلام في مناجاته، فيقول: «وَقُلُوبُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ لِمَحَبَّتِكَ، وَأَفْنِدَتْهُمْ مُنْخَلَعَةٌ مِنْ مَهَابَتِكَ».

فبيّن في هذا المقطع حالتين متضادتين يعيشها أولياء الله: الأولى، أن قلوبهم متعلقة بمحبته سبحانه، فتمتلئ من فيض هذه المحبة، وتتّصف بآثارها من العطف والرحمة الإلهية. أما الحالة الثانية، فهي أنهم يشعرون دائماً بالذل والخضوع أمام الله تعالى، بحيث إنهم كلّما وقفوا في حضرته انخلعت قلوبهم من مكانها لهيبة الله وعظمته، ولا شك أنهم في كلتا الحالتين يشعرون باللذة والسعادة.

وقد تحدّثنا في المباحث السابقة عن آثار محبة الله ولوازمها التي سأل الإمام السّجاد عليه السلام ربّه أن يمنّ بها عليه.

وهنا ينبغي علينا أولاً أن نسأل الله تعالى أن يمنّ علينا بمعرفة مقام محبته وعظمته وقيمة آثار هذه المحبة ولوازمها، وبعد أن ندرك عظمة هذه الحقائق المعنوية نعرّج في دعائنا إلى الطلب من الله أن يوفّقنا لنيل هذا الدرجات الرفيعة من المعرفة.

أما من يقتصر فهمه وإدراكه على أمور حياته اليومية ومظاهر الدنيا المتعارفة، وتتنحصر اهتماماته ومطالبه بتحقيق احتياجاته المادية اللازمة لاستمرار حياته والعيش برفاهية وراحة، فمثل هذا عندما ينال فرصة لدعاء الله وسؤاله، لن تخرج مطالبه عن دائرة الثروة والمقام وغيرها من المظاهر المادية كالسيارة والمنزل المناسب والزوجة الجميلة، ولن يسأل الله أبداً التوفيق لنيل المقامات المعنوية ودرجات الكمال؛ لأنه عاجز عن فهمها وإدراك قيمتها.



المقال الثالث والأربعون نظرة في مقامات أحياء الله

ضرورة الاعتقاد بمقامات أحياء الله ومكانتهم الرفيعة عنده

النتيجة المستخلصة من المباحث السابقة التي خُصّصناها لشرح وتحليل ما جاء في مناجاة المحبّين، هي وجود مطالب متعالية واحتياجات معنوية أُسمى من المطالب والاحتياجات الضرورية اللازمة لتسيير حياتنا اليومية، وقد اعتقد أولياء الله بضرورة نيل تلك القيم الإلهية والسعي الجاد لتأمين هذه الاحتياجات المعنوية.

ورغم عجز عقولنا وأفكارنا المحدودة عن فهم وإدراك حقيقة هذه الاحتياجات والقيم المعنوية؛ لكن مناقشتها وتحليل مبادئها يسهم - ولا ريب - في التخفيف من شدة تعلّقنا بزخارف الدنيا وشهواتها، وينقذ أرواحنا من الانغماس في وحل الشهوات والرغبات التافهة، ويحفّزنا نحو اتّباع الأولياء الذين سبقونا بأشواط نحو مراتب العبوديّة لله، واجتهدوا في سلوك طريق الحقّ والهداية لنيل مراتب الرُقّي والكمال الإلهي.

فلو أدركنا حقيقة ما وصلوا إليه من مقام رفيع عند الله ومرتبة عالية في الجنّة، وقارنّا حالهم بحالنا البائس، لتحسّرنا على ما فاتنا، ولندمنا على





ضياح سنوات عمرنا هباءً في اللهث وراء ملذات فانية بدلاً من السعي لنيل المراتب الإلهية والأفوز برضا الله.

وبالطبع، فإن الطريق الذي سلكه أولياء الله ما يزال مفتوحاً أمامنا ولم يغلق تماماً في وجهنا؛ لكنّه طريق طويل وشاقّ يحتاج إلى الصبر وشدة التحمّل لبوغ نهايته.

وعندما تعجز عقولنا الضيّقة عن فهم وإدراك الحقائق والمقامات الواردة في أدعية أهل البيت عليهم السلام ومناجاتهم، لا ينبغي حينها التذرّع بحجج واهية - كضعف سند هذه الروايات - للتشكيك بصحتها وطرحها وعدم الالتزام بها؛ بل ما تضمّنته هذه الأدعية والمناجاة من حقائق ومقامات - حصل التواتر الإجمالي على الأقل في صحة مضامينها - لا يترك مجالاً لإنكارها والتشكيك في صحتها.

إذاً، يجب علينا السعي لتفسير معانيها وتحليل مضامينها حتّى يسهل علينا فهمها وإدراك حقائقها، والبحث عن سبيلٍ لتقوية اعتقادنا بها، وإيجاد الحافز اللازم في نفوسنا للسعي نحو نيلها وبلوغها. ونظراً لاعتقادنا بعصمة الأئمة الأطهار عليهم السلام والتصديق بكل ما يصدر عنهم، وإيماننا الكامل بأنهم لم يكذبوا ولم يسعوا أبداً لخداع الآخرين، فهل يبقى مجال للتشكيك بصحة كلامهم؟

تحدّثنا سابقاً عن أحبّاء الله الذين سينالون مقام القرب من الله ومجاورته في الآخرة، وأشرنا إلى أن عقولنا تعجز عن فهم حقيقة معنى مجاورة الله والقرب منه وإدراك قيمته الواقعية في الآخرة، فلا يتعدّى فهمنا لهذا المعنى عن ما تتصوّره من قرب ومجاورة مع الآخرين في عالم الدنيا.



كما أشرنا إلى أن تعلّقنا ورغبتنا تقتصر على الأشياء التي يحتاجها الآخرون في حياتهم اليومية، فمثلاً يأكل الإنسان الغذاء الذي يحبه، أو يرغب بشراء المنزل الذي يتمنّى السكن فيه، أو يسعى لشراء السيارة التي يُحبّ ركوبها والتنقّل فيها، أو يتمنّى الزواج من المرأة التي يرغب العيش معها؛ لكنّه لا يفهم حقيقة محبّة الله وعظمتها؛ لأنّه تعوزه المعرفة الحقّة بالله وصفاته، وهو بعيد جدّاً عن حقيقة أن كل شيء في هذا العالم لا يستحقّ الحُبّ والتعلّق بالأصالة سوى الله تعالى؛ لهذا فمن لم يوفّق لإدراك قيمة محبّة الله ولم يتذوّق طعم حلاوتها، لن يدرك حتماً قيمة إحياء الليل بالعبادة ومناجاة المعبود، وأقصى ما يمكن أن يجهد نفسه عليه هو الاكتفاء بإحياء ليالي القدر بالدعاء والمناجاة، وقد يبكي أثناء ذلك، لكن بكاءه ناشئ من الشعور بعظمة ذنوبه والخوف من عذاب نار جهنم في الآخرة.

أما من نال مقام المعرفة الحقّة بالله وصفاته، فإنه لم يدرك حقيقة محبّة الله وقيمتها فحسب، بل إنّه قد آمن إيماناً راسخاً بأن كل شيء في هذا الكون لا يستحقّ الحُبّ والتعلّق بالأصالة وبالذات سوى الله تعالى، وإذا ما أحبّ شخصاً أو شيئاً فإنما ذلك بسبب ارتباطه بالله.

وبعبارة أخرى: إنّ حبه وتعلّقه بغير الله يمثّل شعاعاً ونوراً من حُبّ الله والتعلّق به.

وننقل هنا قصة أحد أولياء الله وعباده الصالحين ممن فاض قلبه بعشق الله حتّى ألهب جوى العشق شرارة النار في روحه، لتسلب منه الراحة والسكينة، وهو نبي الله شعيب عليه السلام، حيث روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بكى شعيب من حُبّ الله عزّ وجلّ حتى عمي، فردّ الله عزّ وجلّ عليه بصره، ثم بكى حتى عمي، فردّ الله عليه بصره، ثم



بكى حتى عمي، فردّ الله عليه بصره، فلمّا كانت الرابعة أوحى الله إليه: يا شعيب إلى متى يكون هذا أبداً منك؟ إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنّة فقد أبحتك. فقال: إلهي وسيدي أنت تعلم أنني ما بكيتُ خوفاً من نارك ولا شوقاً إلى جنّتك، ولكن عقد حبك في قلبي فلستُ أصبر أو أراك، فأوحى الله جل جلاله إليه: أما إذا كان هكذا، فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران^(١).

فإضافةً إلى اهتمامنا بتوفير متطلّبات حياتنا اليومية، لن نتضرّر ولن نخسر شيئاً لو خصّصنا جزءاً من وقتنا لقراءة الأدعية والمناجيات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وتمنّعنا في كلامهم وفي ما كانوا يناجون به ربّهم، ثم قارنّا ذلك بكلامنا وبما نسأل الله؛ حتى ندرك عظمة مقامهم ومكانتهم عند الله، ونقف على مرتبتنا بالنسبة إليهم.

وعلينا أن ندقّق جيّداً في كلام الإمام السّجّاد عليه السلام في مناجاة المحبّين، وكيف يُخبرنا عن أولياء الله الذين امتلأت قلوبهم بمحبّة الله حتى نالوا مقام الوصال والقرب منه تعالى، والنظر إلى وجهه الكريم.

لكن بالطبع، لا يمكن تحقّق الرؤية والمشاهدة التامّة لله في هذه الدنيا؛ لأن الروح تكون مشغولةً بتدبير أمور الجسد، وتعلّقها بالجسد يفقدها قدرة التركيز الكامل على مشاهدة الله؛ لكنّها بعد الموت ستفصل عن الجسد، فتحصل حينئذٍ على القدرة اللازمة لنيل مقام المشاهدة التامّة لله. ولعل هذا هو السبب الحقيقي الذي يجعل أولياء الله وأحبّاءه يتمنّون دائماً الموت، لكونه السبيل الوحيد الذي يحقق لهم المشاهدة التامّة، ونيل فرصة النظر إلى وجه الله والأنس بمناجاته.



العلاقة الخاصة بين الله وأحبائه

نستنبط من الآيات والروايات والقصص الواردة عن العلماء العظام وأولياء الله، أن الله تعالى يرتبط بعلاقة خاصة مع أحبائه وعباده الصالحين، حتى أنه يتحدث معهم دائماً سواء في خلواتهم أو أثناء تواجدهم بين الناس، وخاصةً عندما يجنّ الليل وتهدأ الأصوات، لتغفو أرواحهم على وقع كلامه الملكوتي، وتملأ السعادة والبهجة من الأنس بكلامه جميع وجودهم. ويبين الله تعالى في حديث المعراج وحواره مع حبيبه الرسول الأكرم ﷺ العلاقة الخاصة التي تربطه بأحبائه الذين لا ينفكون يسعون لكسب رضاه ونيل محبته، فيقول تبارك وتعالى: «أَعْرِفُهُ شُكْرًا لَا يُخَالِطُهُ الْجَهْلُ وَذِكْرًا لَا يُخَالِطُهُ النِّسْيَانُ وَمَحَبَّةً لَا يُؤْثِرُ عَلَى مَحَبَّتِي مَحَبَّةَ الْمَخْلُوقِينَ. فَإِذَا أَحْبَبَنِي أَحْبَبْتُهُ وَأَفْتَحُ عَيْنَ قَلْبِهِ إِلَى جَلَالِي فَلَا أَخْفِي عَلَيْهِ خَاصَّةً خَلَقِي فَأَنَا جِيهِ فِي ظِلِّ اللَّيْلِ وَنُورِ النَّهَارِ حَتَّى يَنْقَطِعَ حَدِيثُهُ مَعَ الْمَخْلُوقِينَ وَمُجَالَسَتُهُ مَعَهُمْ»^(١).

* * *

ثم يواصل الإمام السَّجَّاد (عليه السلام) مناجاته، فيقول:

«يَا مَنْ أَنْوَارُ قُدْسِهِ لِأَبْصَارِ مُحِبِّهِ رَاقِقَةٌ،
وَسُبْحَاتُ وَجْهِهِ لِقُلُوبِ عَارِفِيهِ شَائِقَةٌ».

في كثير من الموارد، عندما يعبر عن الله بمصطلح «النور» يضاف إليه كلمة «القدوس» أو «القدسي» حتى يتميز بذلك نور الله عن الأنوار

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٧٧، الباب ٢، الصفحتان ٢٨ - ٢٩، الحديث ٦.



الحسّية الأخرى، ويفرق الإنسان نور الله عن غيره من الأنوار المحسوسة في عالمنا.

وهنا يبيّن الإمام عليه السلام أن أنوار الله القدسية راققة في عيون محبيه، لتغفو على حلاوة النظر إليه، حتى أنهم على استعداد للتضحية بكل ملذّات الدنيا من أجل التمتّع بلحظة واحدة في النظر إلى هذا النور الإلهي الأخاذ.

أما في جملة «وَسُبْحَاتُ وَجْهِهِ لِقُلُوبٍ عَارِفِيهِ شَائِفَةٌ» فكلمة سبحات بمعنى «تجليات»، والظاهر وجود خطأ في النقل في بعض النسخ التي ذكرت كلمة «شائقة» بدلاً عن كلمة «شائفة» التي تأتي بمعنى ظاهرة وجليلة.

وثمة علاقة خاصّة تربط بين الله ومحبيه، وثمّ بينهم أسرار ورموز لا يفهمها من لم يذق طعم حلاوة محبّته سبحانه، ومن هذه الرموز والأسرار ظهور تجليات أنوار الله القدسية في قلوبهم، لتصبح هذه القلوب عينهم التي ينظرون بها، وكذلك تُنير تجليات الذات الإلهية قلوبهم حتى تملأها بهجة وسعادة.

نحن نقرأ الروايات والقصص التي تصوّر لنا علاقات العشق الإنسانية كقصة قيس وليلى، وما حدث بين هذين العاشقين من قصة حبّ وصلت حدّ الجنون، حتى فاقت شدته حدّ تصوّرنا. فمثلاً تنقل الروايات أن قيس بن الملوّح كان يسهر طيلة الليل منتظراً اللحظة التي تُضيء فيها ليلي النور في خيمتها، حتى يهدأ قلبه المضطرب وتسكن روحه الولهة، فلکم أن تتصوّرا مقدار اللذة التي كان يشعر بها من رؤية ذلك الضوء، بحيث تجعله يسهر طيلة ليله منتظراً تلك اللحظة.



[وكما جاء في الشعر:]

عجبا لذلك النور الصادر من خيمة ليلي

ماذا فعل بعقل هذا العاشق المجنون^(١)

فالنور يظهر كثيراً في السماء، لكن الضوء الصادر من منزل ليلي يحمل إلى قيس العاشق المجنون بحبها لذة تفوق الوصف، خاصةً لو كانت ليلي هي التي تنيره كإشارة منها إلى حبيبها، تلك الإشارة التي سهر قيس ليله كله بانتظارها، وجعلته يفقد توازنه وعقله.

فلو كانت العلاقة التي تربط بين الله وعبده قويةً وثابتةً، لكان الله يرسل أنواره القدسية دائماً إلى قلب عبده حتى يزيل الغفلة عنه ويعيده إلى ذكره ومناجاته، ولو جالس هذا العبد أهل الغفلة وغفل عن ذكر ربه، لأرسل الله إشارةً تنبّهه وتعيده إلى ذكره عز وجلّ، ونتيجةً لذلك ستكون اللذة التي يشعر بها هذا العبد أشدّ وأقوى من تلك اللذة التي شعر بها مجنون ليلي عند رؤية النور في منزلها.

وحال مثل هذا العبد الذي يتلذذ كثيراً بذكر الله والأنس بمناجاته، يختلف كثيراً عن حال من يغفل عن ذكر الله، ولا يتحمّل أن يُذكر أمامه اسم الله أو القيامة أو الموت، حيث يصف الله تعالى حال من يغفل عن ذكره ومن غرّته الحياة الدنيا بزخرفها وملذّاتها قائلاً: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٢).

(١) برقي از منزل ليلي بدرخشيد سحر *** وه كه با حرمين مجنون دل افگار چه كرد.

(٢) سورة الزمر، الآية ٤٥.



وبالرغم من أن الإنسان من خلال محبة الله والارتباط به والاستفادة من لطفه ورحمته يمكنه الوصول إلى أعلى مراتب الكمال والقرب من الله، ويتستى له الشعور باللذة الحقيقية في الأنس بمناجاة الله وذكره؛ لكننا نرى البعض يعيش طيلة عمره يتخبط في الضلال والغفلة عن ذكر الله، وبدلاً من السير خطوةً بعد أخرى في طريق الكمال والرقي نحو مقام القرب من الله، يشغل نفسه بأمور تبعده عن ربه، بحيث إن كل خطوة يخطوها في هذا الطريق وكل فكرة ترد إلى ذهنه ستزيد من عتمة الحجب التي تفصله عن الله، ليسقط أكثر في وادي الغفلة والضلal.

ولا شك في أنه لو أدرك هؤلاء الغافلون عن ذكر الله قيمة مراتب الكمال والتعالي التي نالها أحبّاء الله وأودّاءه، وعظمة اللذة التي يشعرون بها الآن، لندموا أشدّ الندم على ما فات من عمرهم هباءً بعيداً عن ذكر الله؛ فالقلب الذي يمكن أن يصبح مظهرًا لتجليات نور الله ومحلًا لمحبهته سبحانه لا ينبغي له أن ينشغل بأمور تافهة أو يصبح مصدرًا لارتكاب المحرمات، مما يؤدّي إلى حرمان الإنسان في هذه الدنيا من فيوضات الله الرحمانية ويبعده عن لطف الله ورحمته، وينال في الآخرة عذاب جهنم خالدًا فيها أبدًا.

وعلى كل حال، فحتى نفهم - على الرغم من أن فهمنا قاصر عن المسائل المعنوية والعلاقة التي بين الله والخواص من عباده - ينبغي علينا أن نستفيد من العبارات والاصطلاحات الواردة في الأدعية والمناجيات الصادرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومنها الأنوار والتجليات الإلهية التي أشار إليها الإمام السجاد عليه السلام في هذه المناجاة، ونُمنع النظر في ماهية هذا النور الذي ما أن يلقيه الله في قلوب محبيه حتى



٢٩٣



تنقلب حالهم، ويشعروا بلذة تفوق الوصف، بحيث تبقى قلوبهم تتحرّق شوقًا لتذوّق تلك اللذة مرّةً أخرى حتى لو كلّفهم ذلك انتظار تلك اللحظة طيلة عمرهم، كحال مجنون ليلى الذي سهر ليله كله ينتظر تلك اللحظة التي يسطع فيها النور من خيمة ليلى ليشعر بلذة العشق ويفيض قلبه بهجةً وسعادة.

مما يُنقل عن المرحوم الكلباسي - وهو من علماء أصفهان العظام - أنه كان يحيي كل الليالي حتى يُدرك ليلة القدر؛ لأنه في إحدى ليالي القدر شعر بنور ملأ قلبه، وأحسّ فيه بلذة الأنس مع الله تفوق الوصف إلى درجة جعلته يُحيي جميع الليالي كي لا تفوته ليلة القدر، لعلّه يُدرك ذلك النور ويتذوّق مرّةً أخرى لذة الأنس بالله عزّ وجلّ.

* * *

«يَا مَنَى قُلُوبِ الْمُشْتَاقِينَ وَيَا غَايَةَ أَمَالِ
الْمُحِبِّينَ، أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ
وَحُبَّ كُلِّ عَمَلٍ يُوصِلُنِي إِلَيْ قُرْبِكَ، وَأَنْ
تَجْعَلَكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا سِوَاكَ، وَأَنْ تَجْعَلَ
حُبِّي إِيَّاكَ قَائِدًا إِلَى رِضْوَانِكَ، وَشَوْقِي
إِلَيْكَ ذَائِدًا عَنْ عِضْيَانِكَ».



ظهور أسمى مراتب محبة الله

قوله عليه السلام «يا مَنَى قُلُوبِ الْمُشْتَاقِينَ» يعني أن جميع أمانى ورغبات المشتاقين تجتمع في وجود الله تعالى، فهذا المقطع من كلام الإمام السَّجَّاد عليه السلام يبيِّن أثرًا آخر من آثار الإخلاص في محبة الله.

فبعد أن تحدَّثنا في المباحث السابقة عن آثار محبة الله، اتَّضح أن الله تعالى يرتبط بعلاقة خاصَّة مع محبيه ومريديه، بحيث تظهر تجلّيات هذه المحبة في قلوبهم، وتُشرق أنواره القدسية فيها، ويُناجيهم في خلواتهم وأثناء وجودهم بين الناس. نعم الله يناجي محبوبه حتى وهو مشغول بأداء أعماله اليومية في المجتمع، فيناجيه وهو في جبهة القتال ضدَّ أعداء الإسلام، أو أثناء انشغاله بالتدريس أو أثناء القراءة ومطالعة دروسه، فالله يناجي عبده بشكل دائم ولا يتركه لحظة واحدة لنفسه.

في هذا المقطع الذي نسعى لمناقشته وتحليله، وبعد أن بيَّين الإمام السَّجَّاد عليه السلام علاقة الهيام التي تربطه بالله تعالى، يؤكِّد على حقيقة توحيدية مهمَّة، وهي أن جميع آثار محبة الله ونتائجها إنما تظهر على الخواصَّ من عبادِه بسبب لطف الله بعبده ورحمته وكرمه؛ وبدون إرادة الله ومشيئته لن ينال أحد هذا المقام الرفيع عند الله. نحن قد نغفل أحيانًا عن حقيقة أن جميع نعم الله حتى معرفته إنما تظهر في العبد بسبب لطف الله ورحمته، ولو شاء الله لسلب مَنًا في لحظة واحدة كلَّ ما تعلَّمناه من معارف، وفقه، وفلسفة، وعرفان وغيرها من العلوم الإنسانية والدينية، وحتى اعتقادنا بالله متوقِّف على إرادة الله ومشيئته. وتبعًا لهذه الحقيقة التوحيدية، يسأل الإمام ربَّه أن يمنَّ عليه بمحبَّته، ونحن ندرك شدَّة صدقه في سؤاله وطلبه، حتى أنه مستعدٌّ لتحمل كل أنواع البلاء من فقر ومرض، ولا يسلبه الله محبَّته لحظة واحدة.



ثم ينتقل الإمام في مناجاته إلى سؤال الله أن يرزقه محبة أحياء الله ومريديه؛ لأن محبتهم من لوازم محبة الله.

فمن المستحيل أن يُحب الإنسان الله تعالى، ولا يُحب أعزّ عبادهم الرسول الأكرم ﷺ وأوليائه الصالحون؛ لأنّ محبة أحياء الله من آثار محبة الله ولوازمها.

إذاً، فما يظهر على العبد ليس نوعين أو أكثر من أنواع المحبة؛ بل هي محبة واحدة تتعلّق بالأصالة لله تعالى، ثم تشمل بالتبع أحياء الله ومريديه أيضاً، كحال الإنسان عندما يُحب شخصاً ما، فإنّه سيحب كلّ ما يتعلّق به كملابسه ومنزله ومدينته، وهذا لا يعتبر تعدّداً أو تكثرّاً في أنواع المحبة؛ بل هي محبة واحدة تختصّ بنفس الحبيب وبكل ما يتعلّق به.

كذلك محبة الله ليست بمعزل عن محبة سيد الشهداء ﷺ؛ بل محبته ومحبة الأئمة المعصومين ﷺ بمثابة الأوراق والثمار في شجرة محبة الله اليانعة التي تزيدها رسوخاً واخضراراً.

وفي المرحلة الثالثة، يسأل الإمام ربّه أن يمنّ عليه بحُبّ كل عمل يوصله إلى محبته والقرب منه؛ لأن الإنسان لا ينال محبة الله بسهولة، بل يحتاج ذلك منه إلى مقدّمات وجهد وسعي متواصل لتهيئة الأرضية اللازمة في قلبه وروحه لاستقبال محبة الله ونيل مقام القرب منه تعالى؛ ولا يمكن القيام بهذه الأعمال بدون حبّها والرغبة فيها؛ لأن الإنسان لا يُقدّم على الأعمال الصعبة والشاقّة ما لم يجد في نفسه الرغبة للقيام بها.

إن علامة الإخلاص في محبة الله هي أن يُحب الإنسان ربّه أكثر من غيره، وفي حالات التزاحم يرجّح دائماً محبة الله وكل ما يرضيه على محبة غيره وعلى ما يغضبه؛ لهذا يسأل الإمام السجّاد ﷺ ربّه أن يزيده من



حُبَّ الله، وأن يجعل حبه تعالى في قلبه أشدَّ من حُبِّ سواه، حتى يُثمر هذا الحُبَّ في النهاية نيل رضاه، فمن غير الممكن أن يُحِبَّ الإنسان شخصاً ولا يسعى لكسب رضاه، فنيل مقام رضا الله هو النتيجة الحتمية لإخلاص العبد في محبة الله، ونتيجة هذه المحبة الخالصة لله هي محبة الله لعبده.

والله تعالى بعد أن يتوَعَّد المنافقين والمرتدين عن دينهم، يصف أحبَّاءه في هذه الآية الشريفة، فيقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِّن يَّرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

كذلك السعي لكسب رضا الله يؤدِّي إلى رضا العبد بتدبير ربه ومشيتته، فهو رضا بين الطرفين ويتحقَّق عند كليهما. والله يصف النفوس المطمئنة الراضية بقضائه وقدره في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَعِيَ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾^(٢).

إن من الطبيعي أن تتغلَّب بعض رغبات الإنسان وغرائزه على الرغبات والغرائز الأخرى؛ ما لم يتسلَّح بعامل أقوى يمكنه من التغلَّب على تلك الرغبات والغرائز. فمثلاً، قد تُسيطر غريزة اللعب والحركة المستمرة على الطفل فينشغل كثيراً إلى درجة ينسى فيها الجوع، بحيث يصبح من الصعب علينا إيقافه عن اللعب وترغيبه بالأكل.

إذاً، ما لم تتغلَّب محبة الله وتسيطر على قلب الإنسان وجميع جوارحه، لن يمكنه التخلِّي عن رغباته وأهوائه الشيطانية؛ لذا يجب على

(١) سورة المائدة، الآية ٥٤.

(٢) سورة الفجر، الآيتان ٢٧ - ٢٨.



٢٩٧



الإنسان أولاً السعي إلى تقوية محبة الله في قلبه وتنميتها حتى تملأ كل وجوده، ويفيض قلبه بعشق الله وحبّه، حينها ستتغلب على باقي الرغبات والغرائز وتصبح جميعها ضمن محبة الله ورضاه. فمن يرتكب الذنوب وينشغل باللذات المحرمة ويستغل غرائزه بالأعمال غير المشروعة، يمكن أن يكون معتقداً بالله والجنة والمعاد وحسن عاقبة الصالحين، وسوء عاقبة المذنبين والكفار، لكنّه مع ذلك لن يتخلّى عن ارتكاب المعاصي وإشباع غرائزه وشهواته؛ لأن أهواءه المادية ورغبات غرائزه الشيطانية أقوى وأشدّ من رغباته العقلانية والدينية. ويعود السبب في ذلك إلى كونه لم يسع إلى تقوية محبة الله في قلبه، مما جعل أهواءه وغرائزه المادية تتغلب على حبه الضعيف لله ورغباته الأخروية والمعنوية.

ونحن نقرأ في المناجاة الشعبانية: «إِلَهِی لَمْ یَكُنْ لِي حَوْلٌ فَأَنْتَقَلَ بِهِ عَنْ مَعْصِيَتِكَ إِلَّا فِي وَقْتٍ أَیْقَظْتَنِي لِمَحَبَّتِكَ»^(١).

وبناءً على ما تقدّم، يسأل الإمام السّجّاد (عليه السلام) ربّه أن يجعل من شدّة شوقه إليه عاصماً له من الوقوع في معصيته وعدم إطاعة أوامره تعالى.

* * *

وفي نهاية المناجاة يقول الإمام (عليه السلام):

«وَأَمُنْ بِالنَّظَرِ إِلَيْكَ عَلَيَّ، وَأَنْظُرْ بَعَيْنِ
الْوُدِّ وَالْعُطْفِ إِلَيَّ، وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي
وَجْهَكَ، وَاجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ الْإِسْعَادِ

(١) مفاتيح الجنان، المناجاة الشعبانية.

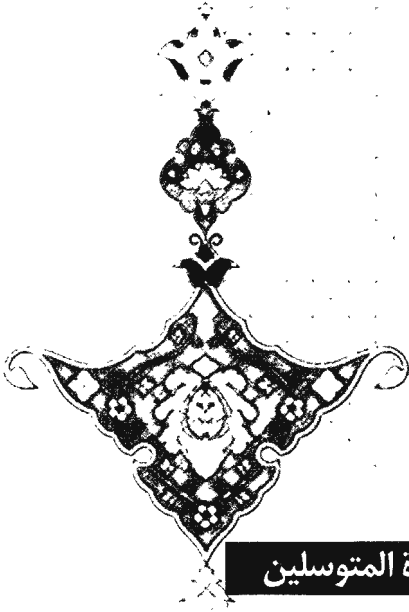
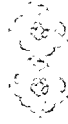


وَالْحِظْوَةِ عِنْدَكَ، يَا مُجِيبُ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

من غير الممكن أن يُحِبَّ الإنسان شخصًا ولا يتمنى رؤيته والنظر إليه؛ لهذا يسأل الإمام السَّجَّاد عليه السلام رَبَّهُ أن يَمَنَّ عليه بالنظر إلى جمال وجهه الكريم، ثم يسأل الله، أن ينظر إليه بعين المحبة والعطف والودِّ. فمن يحظى بمحبة الله وعطفه لا بدَّ أن يتحلَّى بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، أما من لم يَقم بالأعمال الصالحة، وابتعد عن الأخلاق الفاضلة حتَّى تلوَّثت روحه بالمعاصي والذنوب والغفلة عن ذكر الله، فلا يمكن أن يتوقَّع رضا الله عنه، أو يشمله بمحبته، أو ينظر إليه بعين العطف والرحمة؛ لهذا يسأل الإمام الله تعالى أن لا يعامله بعدله، وأن يتجاوز عن سيئاته، وينظر إليه بعين العطف والرحمة بقوله: إلهي أنا محتاج للطفك وكرمك، فإن لم يشملني لطفك وكرمك، خسرت نفسي وساء حالي.

فحالنا كحال المريض الذي سقط من شدة المرض، وأصبح على حافة الموت، فيهرع الجميع لمساعدته وتقديم يد العون إليه، حتى من أساء إليه وكان بينهما حالة من العداء والخصام، فإنه في تلك الظروف سينسى كل ذلك ولن يفكر بردِّ الإساءة أو الانتقام منه؛ بل سيقدم له المساعدة كالآخرين.

نحن أيضًا نسأل الله تعالى أن لا يُحاسِبنا بعدله وأن يتجاوز عن سيئاتنا ويغفر ذنوبنا، ولا يصرف عنا وجهه؛ بل ينظر إلينا بعين لطفه ورحمته.



شرح مناجاة المتوسلين



المقال الرابع والأربعون مناجاة المُتوسِّلين (١)

مفهوم الوسيلة في النصوص الدينية

نُكمل المباحث السابقة الخاصّة بشرح وتحليل المناجيات الخمس عشرة للإمام السَّجَّاد (عليه السلام)، ونخصّص هذا المبحث لشرح وتحليل مناجاة المتوسِّلين.



عند التدقيق في كلمات هذه المناجاة نجد أن الكثير من مفاهيمها قد تكرَّر استعماله في المناجيات الأخرى أيضًا؛ لكن المفهوم الجديد الذي ركَّزت عليه هذه المناجاة هو مفهوم «الوسيلة» و«التوسَّل»، وحتى نقف على المعنى الدقيق لهذه المناجاة نحتاج إلى توضيح مختصر لمعنى هذا المفهوم.

عرَّف علماء اللغة كلمة «وسيلة» فقالوا: «الوسيلة هي ما يتقرَّب به إلى الشيء»^(١)؛ وجاء أيضًا: «الوسيلة ما يتقرَّب به إلى الغير»^(٢).

أما بحسب الأعراف والتقاليد المتداولة بيننا فتأتي كلمة «وسيلة» بمعنى مرادف لكلمة «سبب»، لكن هذا المعنى في أعراف العرب يأتي كأحد مصاديقها.

(١) فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين، الجزء ٥، الصفحة ٤٩١.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، الجزء ١١، الصفحة ٧٢٤.



أما في النصوص الدينية والمذهبية فيطلق اصطلاح «الوسيلة» على ما يتقرب به الإنسان إلى الله تعالى، وجاء هذا المعنى مرتين في القرآن الكريم، حيث يقول تعالى في الآية الأولى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١)؛ وفي الآية الثانية، يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مُحْدُورًا﴾^(٢).

ونحن إذا ما اعتبرنا أن الوسيلة تعني كل ما يُتقرب به إلى الله تعالى، عندئذ تصبح جميع الأعمال الصالحة التي يقوم بها الإنسان قرينة إلى الله وسيلةً ومقدمةً للتقرب إليه تعالى.

وبهذا التعريف العام للوسيلة والتوسل، فإن جميع أعمال وتصرفات المؤمنين والصالحين التي يقومون بها طيلة حياتهم بقصد القرينة إلى الله تعالى تدخل ضمن عنوان العبادة والوسائل التي تقربهم إلى الله تعالى. وقد وضع الله تعالى بعض الأدوات الجسدية والفكرية والروحية والنفسية تحت تصرف الإنسان؛ لتمكّنه من القيام بأعمال الخير وتكون وسيلةً له للتقرب إليه تعالى، فلو لم يكن للإنسان لسانٌ يذكر به الله، أو عين يقرأ بها القرآن، أو لم يكن له يد وقدم تساعدانه للسعي في أداء أعمال الخير، لأصبح عاجزاً عن القيام بما يقربه إلى الله تعالى، كذلك لو لم يضع الله تحت تصرفه بعض الوسائل العلمية والمعرفية لتهديه بواسطة العقل أو الشرع نحو الطريق الصحيح، لما أمكنه تشخيص طريق الهداية والصلاح.

(١) سورة المائدة، الآية ٣٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٥٧.



٣٠٣



ولو كان الإنسان يمتلك الأعضاء والجوارح السليمة، ويمتلك المعرفة اللازمة للعبادة والسير في طريق الهداية نحو الله تعالى، لكنه يفتقد الإرادة والهمة والاستعداد الروحي والنفسي للإقدام، لما تقدّم خطوةً واحدةً نحو التقرب إلى الله تعالى.

وعليه فلا يمكن القيام بأي عملٍ خيرٍ كوسيلة للتقرب إلى الله بدون توفيق الله ولطفه ورحمته.

مقام الوساطة والشفاعة للنبي الأكرم ﷺ وأهل بيته عليه السلام

إن الأنبياء والأولياء الصالحين هم أهم وأعظم الوسائط والوسائل اللازمة للتقرب إلى الله تعالى، وفي مقدّمة هؤلاء الأنبياء النبي الأكرم ﷺ الذي يحتاج إليه جميع الناس باختلاف مقاماتهم ومراتبهم عند الله؛ لكن معرفتنا القاصرة تجعلنا نعجز عن إدراك وفهم مدى حاجتنا إليه، والدور الذي يمكن أن يؤديه عليه الصلاة والسلام في حياتنا وتحقيق سعادتنا؛ لأن لمعرفة مراتب ومقامات مختلفة لم يبلغ قمّتها إلا عدد قليل جداً من الأولياء أمثال سلمان وأبي ذر، بحيث لا نبالغ لو قلنا إن مقدار معرفتنا بالنبي ﷺ لا تبلغ قطرةً واحدةً من بحر مراتب كماله.

إن من بين البركات والثمار التي يجنيها المسلمون من وجود النبي الأكرم ﷺ هو شفاعته للمؤمنين يوم القيامة، فلو تمكّن الإنسان من الثبات على إيمانه حتّى لحظات موته الأخيرة، لكن بقي في ذمته بعد الموت بعض الذنوب التي لم يغفرها الله له، فإنه سيحظى يوم القيامة بشفاعة النبي الأكرم ﷺ ليغفر الله له ما تبقي من ذنوبه ويدخله الجنّة.

ففي يوم القيامة يدخل جميع المؤمنين الجنّة ببركة شفاعته النبي ﷺ، حتى من لا تُعينه أعماله لاستحقاق رحمة الله ودخول



الجنة، لو تمكّن من الثبات على إيمانه حتى اللحظات الأخيرة من موته، سيشملة لطف النبي ﷺ ويشفع له عند الله، فينقذه من نار جهنم ويدخله الجنة. وقد منّ الله سبحانه وتعالى برحمته الواسعة على رسوله الكريم ﷺ بأعلى المراتب والمقامات؛ إذ جعله مظهرًا لتمام رحمته وكمالها، ومنّ عليه بمقام الشفاعة، ليكون وسيلةً لدخول عدد كبير من المؤمنين والموحدين الجنة. يقول الله تعالى عن مقام الشفاعة في القرآن الكريم: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾^(١).

وقد صرّحت الكثير من الروايات أن هذه الآية الشريفة قد نزلت لبيان مقام الشفاعة الذي منّ الله به على نبيه الأكرم ﷺ، حيث ينقل محمد بن الحنفية في رواية عن الإمام علي عليه السلام أن الرسول محمد ﷺ قال: «أشفع لأمتي حتى يُنادي ربّي: رَضِيتَ يا مُحَمَّد؟ فَأَقُولُ: رَبِّ رَضِيتُ».

ثم يُخاطب الإمام علي عليه السلام أهل العراق، فيقول: أنتم أهل العراق تقولون أن أكثر آية في القرآن بيّنت رحمة الله هي ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٢)؛ لكننا أهل البيت، نقول أنها الآية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾^(٣).

فدققوا؛ أيّ منزلة ومكانة يحظى بها الرسول الأكرم ﷺ عند الله، ومدى الأهمية التي يوليها الله تعالى لجعله يشعر بالرضا والسعادة، بحيث يمنّ عليه بمقام الوساطة والشفاعة ليكون وسيلةً لغفران ذنوب

(١) سورة الضحى، الآية ٥.

(٢) سورة الزمر، الآية ٥٣.

(٣) الحاكم الحسكاني، شواهد التنزيل، الجزء ٢، الصفحتان ٤٤٦-٤٤٧.



٣٠٥



المؤمنين ممن لا يستحقّون المغفرة عند الله. فمن الطبيعي أن يحظى جميع المؤمنين بلطف رسولنا الكريم وشفاعته لما يمثله من مظهر لرحمة الله، وتبعاً لهذه الشفاعة يشمل الله المؤمنين من عباده بلطفه ومغفرته.

إن الله تعالى جعل من العبادة، ومساعدة الآخرين، والجهاد في سبيله وسائل للتقرب منه ومدعاة لكسب رضاه ونيل الأجر والثواب، فإذا لم يوفق أحد في استثمار هذه الوسائل للتقرب إليه تعالى، فيمكنه التوسل بشفاعة النبي الأكرم ﷺ - التي جعلها الله تحت تصرفه - لتكون وسيلة لإنقاذه من النار وشموله برحمة الله لدخول الجنة.

كما أنّ جميع هذه الوسائل والأدوات التي جعلها الله تحت تصرف الإنسان لإنقاذه من الضلال وهدايته نحو الصلاح ناشئة عن رحمة الله ولطفه؛ مما يعني أن رحمة الله هي الشيء الوحيد القادر على تحفيزنا نحو التقرب منه، وكسب رضاه، والتمتع بنعمه في الجنة، وهذه الرحمة الإلهية يمكن أن ننالها أحياناً عن طريق أعمال الخير والأعمال التي تقربنا منه عز وجل، وفي أحيان أخرى عن طريق التوسل بشفاعة رسول الله ﷺ وأهل بيته عليه السلام.

إذاً فأمامنا طريقان لكسب رحمة الله تعالى: الأول، نيل رحمة الله عن طريق العبادة والعبودية لله، والثاني، عن طريق الأعمال التي تؤهلنا لكسب شفاعة رسول الله ﷺ؛ أي كلّ ما لدينا من خير - وحتى عبادتنا وأعمالنا الصالحة التي تقربنا من الله تعالى - إنما قمنا بها ببركة وجود رسول الله ﷺ.



يقول الإمام السَّجَّاد (عليه السلام) في بداية مناجاة المتوسِّلين:

«إِلَهِي لَيْسَ لِي وَسِيلَةٌ إِلَيْكَ إِلَّا عَوَاطِفُ
رَأْفَتِكَ، وَلَا لِي ذَرِيعَةٌ إِلَيْكَ إِلَّا عَوَارِفُ
رَحْمَتِكَ، وَشَفَاعَةُ نَبِيِّكَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ،
وَمُنْقِذِ الْأُمَّةِ مِنَ الْعَمَةِ، فَاجْعَلْهُمَا لِي سَبَبًا
إِلَى نَيْلِ غُفْرَانِكَ وَصَيِّرْهُمَا لِي وَضْلَةً إِلَى
الْفَوْزِ بِرِضْوَانِكَ».

فقر الإنسان الذاتي وحاجته الدائمة لله

في الواقع، نحن لا نملك شيئاً من ذاتنا؛ بل إنَّ كلَّ ما لدينا من نعم وخير إنما هو من الله تبارك وتعالى؛ فقد منَّ الله علينا تدريجياً بهذه النعم كالنعم المادية التي خلقها في جسدنا، ونعمة التفكير، والنعم المعنوية، خاصةً نعمة الهداية نحو التعالي والكمال؛ لذا يجب علينا أن لا نطلب ما نحتاجه من أمور مادية أو أخروية ومعنوية إلا من الله تعالى فحسب. ولا يمكن لأيِّ إنسان أن يستغني عن هذه الاحتياجات، فهو إذا ما أدرك هذه الحاجة واللذة المرتبطة بها فلا ريب أنه سيسعى لتهيئتها والحصول عليها، أما إذا لم يدركها فلن يشعر بأي حافز للحصول عليها.

كذلك الإنسان لا يمكنه الفرار من حالات الألم والحزن والمرض والمصائب التي قد تواجهه في هذه الدنيا؛ لذا يسعى دائماً للتخلُّص من هذه الحالات وعدم الوقوع فيها.



٣٠٧



يظن البعض أن بإمكانه الصبر على مواجهة كل أنواع البلاء والمصائب والمرض، وليبيان هذا المطلب ننقل هذه الحادثة عن أحد علماء الأخلاق الأفاضل وهو من تلامذة المرحوم الميرزا جواد الملكي التبريزي رحمته الله، وكان يدرّس الأخلاق صباح يوم الجمعة في المدرسة الحُجّية في مدينة قم، يقول: «كانت تتنابني أحياناً نوبات من الألم الشديد في البطن بسبب ما أعانيه من قرحة في المعدة، وفي منتصف إحدى الليالي انتابني ألم شديد، فقلت في نفسي سأتحمل الألم هذه الليلة لعل الله يمنّ عليّ بالشفاء ويخفّف الألم عني، لكن بعد فترة بدأ الألم يشتدّ أكثر فلم أتحمل، وتوسّلت بالله تعالى أن ينقذني من الألم؛ لكن الألم أخذ يشتدّ أكثر فأكثر، فازداد تضرّعي وتوسّلي لله أن يرحمني ويخلصني من الألم، فلم يتوقّف الألم؛ بل ازداد أكثر، فتوسّلت بالأولياء والأئمة الأطهار عليهم السلام، ودعوت الله وأقسمت عليه أن ينقذني من شدة الألم؛ لكن الألم استمرّ بالازدياد فقلّت حيلتي وفقدت صبري، فصرختُ: أما من أحدٍ ينقذني من شدة هذا الألم؟ وما إن نطقْتُ بهذه الجملة حتى خفّ الألم وتحسّنت حالتي، فأدركتُ حينها أن الله أراد أن يختبرني ويبيّن لي مدى ضعفي وقلة تحمّلي».

كلّ إنسان يعلم مدى ضعفه، وقد أدرك بالتجربة عجزه عن تحمّل المشاكل والصبر على مواجهة الجوع والمرض والعطش، والأهم من هذا، عجزه عن الصبر على فقد الأحبة وفراقهم؛ لكن بلطف الله ورحمته تمكّن من تجاوز بعض المشاكل، وصبر على بعض المصاعب والأحزان. فصبرنا وتحمّلنا لن يصل أبداً إلى درجة صبر الأنبياء والأولياء وتحملهم، كما نعجز عن إدراك علمهم ومعرفتهم وعظمة منزلتهم ومقامهم عند الله، تلك المنزلة التي جعلت من تراب مراقدهم الشريفة بعد ألف وأربعمئة سنة شفاءً لكثير من الأمراض المستعصية، أو كما ذكرنا أن الله منّ على رسوله الكريم بمنزلة عظيمة وشمله



بلطفه ورحمته ليؤتيه يوم القيامة مقامًا محمودًا، ويكون شفيعًا لملايين المؤمنين والمسلمين ليدخلوا الجنة ببركة هذا الرسول العظيم وطلبًا لرضاه وسروره؛ لذا يتوجب علينا السير إلى مقام رسولنا العظيم والوقوف بخضوع وتذلل أمام مرقده الشريف، وإذا ما سنحت لنا الفرصة يجب أن نمد يد التوسل والتضرع ليشملنا بلطفه وعنايته ويهدينا إلى طريق رحمته ومعرفته، وأن نغتنم جيدًا هذه الفرصة الذهبية للعودة إلى الذات وطلب المغفرة والرحمة.

نقرأ في الحديث القدسي أن الله تعالى يخاطب داوود عليه السلام قائلا: «يَا دَاوُودُ، فَرَّغْ لِي يَتِيمًا أَسْكُنُهُ، إِنَّ لِي فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلَا فَتَرَصَّدُوا لَهَا»^(١).

من الموارد التي تضع الإنسان على طريق رحمة الله ولطفه، أن يحضر مثلاً بدون رغبة منه ويأصرار صديقه مجلساً لعزاء سيد الشهداء عليه السلام، فيتأثر بالأجواء المعنوية والروحية في هذا المجلس، ويظهر قلبه من أوساخ الدنيا وشوائبها، فيفيض نوراً ويمتلئ إيماناً.

والأهم من ذلك، أن الإنسان لو ارتكب بعض الذنوب التي تجعله يستحق العذاب وتسلب منه توفيق العفو عنه، لكنّ محافظته على إيمانه حتى اللحظات الأخيرة قبل موته تجعله يستحق شفاعته رسول الله صلى الله عليه وآله. فمن المهم جداً أن يتمكن الإنسان من المحافظة على إيمانه حتى لحظات موته، ويحصن نفسه من الوقوع في الشك والشبهات، أو يتجنب ارتكاب الذنوب التي تلوث قلبه تماماً وتفرغه من الإيمان، حينها سيتمكن من المحافظة على توفيقه في استحقاق الشفاعة يوم القيامة.



٣٠٩



ولا شك أنه قد يتعرض الإنسان طيلة حياته إلى خطر الانحراف وارتكاب الذنوب، مما قد يجعله يفقد إيمانه؛ لذا يجب عليه أن يشعر دائماً بالخوف والقلق، وفي الوقت ذاته يشعر بالأمل أن تهب عليه نسائم رحمة الله ولطفه، فتضعه على مسير هدايته، وينعم ببركة شفاعته محمد ﷺ وأهل بيته الأطهار ﷺ.

وقد أسلفنا، أن من يتجنب ارتكاب الكبائر ولا يُصرّ على ارتكاب صغائر الذنوب، ستشملة حتماً مغفرة الله ورحمته، ولن يتعرض للعذاب حتّى في عالم البرزخ. أما من يرتكب الكبائر أو يُصرّ على ارتكاب الصغائر ولا يتوب عنها قبل موته، لكنّه يتمكّن من المحافظة على إيمانه حتّى لحظات عمره الأخيرة، فإنّه إذا ما رَحَلَ عن هذه الدنيا فسيُعرض للعذاب في عالم البرزخ؛ لكنّه سيستحقّ يوم القيامة شفاعته النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته الأطهار ﷺ؛ لأن رسول الله قال: «ادَّخَرْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»^(١).

سعادة الإنسان تتحقّق في ظل رأفة الله ورحمته

في نهاية هذا البحث، نُلقِي نظرةً مرّةً أخرى على القسم الأول من مُناجاة المتوسّلين، ونتوقّف عند مفهوم «العاطفة»، حيث تعني هنا الميل والجاذبية. فرغم أننا نُطلق مصطلح «العاطفة» وجمعها «عواطف» للتعبير عن حالة نفسيّة تمرّ بالإنسان، وننظر إليه ضمن مصطلحات علم النفس؛ لكن الظاهر أن المراد من هذا المصطلح في كلمات الإمام السجّاد ﷺ في هذه المناجاة ليس التعبير عن حالة نفسيّة؛ بل

التعبير عن الميل والرغبة والجاذبية، وبالتالي يقصد من عبارة «عواطف رأفتك» رأفة الله وجذبها نحو عباده.

كما أن إطلاق مصطلح «العاطفة» للتعبير عن حالة نفسية خاصة إنما جاء لكون عاطفة الإنسان بالنسبة لشخص آخر، تعني ميل هذا الإنسان ورغبته في العناية والاهتمام بذلك الشخص.

أما المراد من كلمة «عوارف» في هذه المناجاة فهو عطايا الله وآثار رحمته.

وبعد أن بيّن الإمام السّجّاد (عليه السلام) أن الوسيلتين الوحيدتين للتوسّل بالله والتقرّب منه هما: عواطف رأفته وآثار رحمته، وشفاعة رسوله الكريم ﷺ، يسأله ويدعوه أن يجعل هاتين الوسيلتين سبباً لنيل مغفرته والفوز برضاه ورحمته.

ولعل السبب في تأكيد الإمام على هذه الحقيقة هو أن تحقيق هاتين الوسيلتين سيؤدّي حتماً إلى ضمان سعادة الإنسان وتعالیه؛ لأن الإنسان يجب أن ينال أولاً عواطف رأفة الله ورحمته حتى تشملته شفاعة النبي الأكرم ﷺ.

فالإنسان بدون عواطف رأفة الله ورحمته لن يتمكن من تهيئة الأسباب والعوامل التي تجعله يستحقّ الشفاعة والمحافظة عليها.

ومن هنا فيجب أولاً أن يستظل الإنسان تحت مظلة رحمة الله ورأفته حتى يصبح مستحقاً للشفاعة ليصل بواسطتها إلى برّ الأمان والفوز بالسعادة ونيل رضا الله. وهذه الشفاعة تمثّل شُعاعاً من نور رحمة الله، وفرعاً من فروع شجرتها الياقة.



المقال الخامس والأربعون مُناجاة المتوسّلين (٢)

تُصادف هذه الليلة ليلة عرفة، وهي من الليالي المباركة والعظيمة المنزلة عند الله، حيث تزداد فيها وفي يوم عرفة عواطف رافة الله وتشتدّ نسائم رحمته أكثر من باقي الأيام واللـيالي؛ لذا لا بأس في أن نتحدّث عن بعض الأدعية المشهورة الواردة في يوم عرفة، ونبحث فيها مسألة التوسّل



بالله سبحانه وتعالى.

يعتبر دعاء الإمام الحسين عليه السلام من غرر الأدعية الواردة عن الأئمة المعصومين في هذا اليوم، وقد دعا به عليه السلام يوم عرفة في صحراء عرفات، بحيث لو أردنا تعيين أهم خمسة أدعية واردة عن أهل البيت عليهم السلام، لكان بلا شكّ دعاء الإمام الحسين يوم عرفة أحدها. يتضمّن هذا الدعاء الكثير من المضامين والمفاهيم المتعالية التي تستحقّ منا التوقّف عندها وتحليلها وقراءتها بتدبّر وتفكّر واستعداد روحي ومعنوي يكفي لفهم معانيها والاستفادة من مطالبها القيّمة. فنحن نجد في هذا الدعاء الكثير من المطالب والمفاهيم القيّمة التي يندر وجودها في سائر الأدعية، ومن بين العبارات اللطيفة والمفاهيم المتعالية المتعلقة بمسألة التوسّل بالله تعالى التي أشار إليها هذا الدعاء ولم تصرّح بها الأدعية



الأخرى، هو قوله ﷺ: «هَآ أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ، وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مَحَالٌّ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ»^(١).

فالإنسان إذا ما أراد أن يختار وسيطاً بينه وبين شخص آخر، فإنه يختار شخصاً يحظى باحترام ومنزلة خاصة عند من يريد التوسط والشفاعة عنده. ونحن إذا ما كنا نعتقد أن النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته الأطهار ﷺ يشفعون لنا عند الله يوم القيامة، فلكونهم يحظون بمنزلة عظيمة عنده تعالى، ولأن الله خلقهم ومَنَّ عليهم بمنزلة خاصة ومقام عظيم بحيث جعل الله لهم حقَّ الشفاعة للمؤمنين يوم القيامة، فأصبحوا بهذا المقام المتعالى مظهرًا من مظاهر رحمة الله.

ففي الحقيقة، إن الله هو من جعلهم وسيلةً وواسطةً لتتقرَّب بهم إليه؛ لأننا بلا شك لا نمتلك شيئاً ثميناً أو ذا قيمة يستحقُّ أن نتقرَّب به إلى الله، فلو أردنا أن نجعل إيماننا وسيلةً للتقرَّب إليه تعالى ونسأله أن يرحمنا ويغفر لنا، لردَّ علينا: أنا من وهبتكم هذا الإيمان، ولو أردنا أن نُقدِّم عبادتنا وسيلةً أمام الله، فهي كذلك قمنا بها بفضل منه تعالى وتوفيق، وهي من مصاديق عواطف رحمته.

فنحن لا نمتلك شيئاً من ذاتنا، وكل ما نملكه الفقر والحاجة، لأن الفقر صفة ذاتية عند جميع المخلوقات، بل هي عين الفقر، والله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٢).

(١) مفاتيح الجنان، دعاء الإمام الحسين ﷺ في يوم عرفة.

(٢) سورة فاطر، الآية ١٥.



فكل ما نملكه هو الفقر والحاجة، وهذا الفقر لا قيمة له ولا يستحق أن نقدّمه وسيلةً للتقرّب إلى الله؛ لأن الوسيلة والواسطة يجب أن تكون شيئاً ذا قيمة عند الله حتى يمكن تقديمه إليه والتقرّب به عنده، ثم ننال بسببها الأجر والجائزة وهي شمولنا بعواطف رأفته ورحمته وتجنّبنا عذابه وغضبه. وهذا الفقر مستمرّ معنا ولن ينفصل عنا أبداً، ومن المستحيل أن يكون وسيلةً للتقرّب إليه سبحانه؛ لأنه غني مطلق وذاته لا يشوبها الفقر والحاجة؛ ولهذا، في تلك العبارة اللطيفة التي نقلناها عن الإمام الحسين عليه السلام، نراه يقول فيها: «هَآ أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ، وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مَحَالٌّ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ»؛ أي إلهي لا أملك شيئاً يستحقّ أن يكون وسيلتي إليك لنيل رأفتك ورحمتك، وكل ما عندي من فضل رحمتك، وما أنا ذا أقدمه وسيلةً بيني وبينك.

ودعاء الإمام السجّاد عليه السلام في يوم عرفة هو الآخر يعتبر من غرر الأدعية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، لما يتضمّنه من مطالب ومفاهيم قيّمة جدّاً يقف الإنسان مبهوّاً أمام عظمة معانيها وجمال عباراتها ولطافة تنظيمها وترتيبها، بحيث لا يمكن أن تصدر إلّا عن الإمام المعصوم. فَمِنَ الأولى أن نقرأ هذا الدعاء في صباح يوم عرفة، ثم نقرأ دعاء الإمام الحسين عليه السلام عصرًا، حتى نستفيد أكثر من المعارف الإلهية الأصيلة، والمفاهيم العرفانية التي تتضمّنها أدعية وروايات أهل البيت عليهم السلام، فتطهر قلوبنا وتضيء بنور هذه الأدعية المباركة.

نقرأ في أحد مقاطع دعاء الإمام السجّاد عليه السلام في يوم عرفة:

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَيَّدْتَ دِينَكَ فِي كُلِّ أَوَانٍ بِإِمَامٍ أَقَمْتَهُ عِلْمًا لِعِبَادِكَ وَمَنَارًا لِعِبَادِكَ وَمَنَارًا فِي بِلَادِكَ بَعْدَ أَنْ وَصَلْتَ حَبْلَهُ بِحَبْلِكَ وَجَعَلْتَهُ الذَّرِيعَةَ إِلَى رِضْوَانِكَ وَافْتَرَضْتَ طَاعَتَهُ وَحَذَرْتَ مَعْصِيَتَهُ وَأَمَرْتَ بِامْتِثَالِ



أَوَامِرِهِ وَالْإِنْتِهَاءِ عِنْدَ نَهْيِهِ وَلَا يَتَقَدَّمُهُ مُتَقَدِّمٌ وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ مُتَأَخِّرٌ فَهُوَ عِصْمَةُ اللَّائِذِينَ وَكَهْفُ الْمُؤْمِنِينَ وَعُرْوَةُ الْمُتَمَسِّكِينَ وَبَهَاءُ الْعَالَمِينَ»^(١).

في هذا المقطع من الدعاء، يبين الإمام السَّجَّاد عليه السلام العلاقة والاتصال الخاصَّ بين الإمام المعصوم والله سبحانه، حيث يعبر عنها بقوله «وَجَعَلْتُهُ الذَّرِيعَةَ إِلَى رِضْوَانِكَ»، وفي بداية مناجاة المتوسلين أيضاً، يبين الإمام وسيلتين للتقرب إلى الله وهما: شفاعة النبي الأكرم ﷺ، وعواطف رافة الله ورحمته، فيقول: «فَاجْعَلْهُمَا لِي سَبِيًّا إِلَى نَيْلِ غُفْرَانِكَ وَصَيِّرْهُمَا لِي وَصْلَةً إِلَى الْفَوْزِ بِرِضْوَانِكَ».

كذلك يبين الإمام في هذه الكلمات بعض خصائص الإمام المعصوم وصفاته، ومنها: وجوب طاعته، وتجنُّب معصيته، وامتنال أوامره والانتهاه بنهيه، وعدم التقدم عليه.

والدرس الذي نستخلصه من دعاء الإمام السَّجَّاد عليه السلام هو: ضرورة أن تستند في جميع أدعيتنا وتوسلاتنا إلى أولياء الله، وأن ندرك جيِّداً أن الإمام المعصوم هو وسيلتنا الحقيقية التي توصلنا إلى الله تعالى، وأن التوسل به وجعله شافعاً لنا أمام الله يوصلنا إلى السعادة الدائمة.

كذلك يتضح من هذا الدعاء أن الإنسان في كل عصر وزمان يجب أن يتوسل ويستشفع أولاً بالإمام المعصوم في ذلك العصر، وقد أشارت بعض الروايات إلى أن الإنسان في عصر أحد الأئمة الأطهار عليهم السلام إذا ما توسل بإمام آخر، فإن ذلك الإمام يحيله إلى إمام عصره، وهذا يبين أهمية توسل الإنسان بإمام عصره.

(١) الصحيفة السجادية، دعاء عرفة.



٣١٥



فنحن في حياتنا اليومية نتوسّل بكل شخص؛ لكن ينبغي أن لا ننسى أن الإمام الحجّة عليه السلام هو واسطة الفيض الإلهي، وببركة وجوده تهطل علينا أمطار رحمة الله؛ لذا ينبغي علينا دائماً أن لا ننسى التوسّل بهذا الإمام الهمام في أدعيتنا.

الأمل بلطف الله وكرمه وطلب حسن العاقبة والفوز بالجنة

«وَقَدْ حَلَّ رَجَائِي بِحَرَمِ كَرَمِكَ وَحَطَّ
طَمْعِي بِفَنَاءِ جُودِكَ، فَحَقَّقْ فِيكَ أَمَلِي،
وَاخْتِمْ بِالْخَيْرِ عَمَلِي، وَاجْعَلْنِي مِنْ
صَفْوَتِكَ الَّذِينَ أَحَلَلْتَهُمْ بُحْبُوحَةَ جَنَّتِكَ،
وَبَوَّأْتَهُمْ دَارَ كَرَامَتِكَ، وَأَفَرَزْتَ أَعْيُنَهُمْ
بِالنَّظَرِ إِلَيْكَ يَوْمَ لِقَائِكَ، وَأَوْرَثْتَهُمْ مَنَازِلَ
الصَّدَقِ فِي جَوَارِكَ».

بعد أن بيّن الإمام السجّاد عليه السلام الوسيلتين الوحيدتين للتقرّب إلى الله وهما - كما ذكرنا بذلك مراراً - عواطف رأفة الله، وشفاعة نبيه الكريم، يقول في هذه العبارات: إلهي حلّ رجائي بحرم كرمك؛ أي: أنا لا أملك شيئاً من ذاتي، وكلّ ما عندي إنما هو بفضل رحمتك ولطفك وكرمك، حتى عواطف رحمتك ورأفتك ناشئة من لطفك وكرمك؛ ولهذا فأملّي معلق بك.

فعلى المؤمن أن يعتقد بهذه الكلمات وينطق بها من أعماق قلبه ويؤكّد أنه فقد الأمل والرجاء بكل شيء سوى كرم الله ولطفه، حتى أعماله وتوسّله ومناجاته وأنشطته العلمية والاجتماعية لم تبعث في قلبه



الأمل والاطمئنان؛ لأنه لا يعلم هل سيقبل الله هذه الأعمال منه وهل ستنقذه من عذاب يوم القيامة. فالتعلق بكرم الله ولطفه - إذاً - هو السبيل الوحيد للتخلص من مشاكلنا، ورفع البلاء عنا، وغفران ذنوبنا، وقضاء حاجتنا، ولا شك أن الله سيقبل مثل هذا الدعاء وسيستجيب له؛ لأنه يعبر عن حاجة الإنسان وفقره الذاتي، وفقدان الأمل والرجاء بكل شيء سوى كرم الله ولطفه.

ثم يسأل الإمام عليه السلام ربه أن يحسن عاقبته ويختم عمله بالخير قائلاً: «وَأَخْتِمَ بِالْخَيْرِ عَمَلِي»، أي: إلهي بعد أن وفقتني بلطفك وكرمك للتوسل بك ومناجاتك والقيام بالأعمال الصالحة، أسألك أن تمن علي بتجنب ارتكاب الذنوب والوقوع في المعصية فيضيع أجر أعمالي الصالحة هباءً منثورًا؛ لأن أكثر ما يقع فيه المؤمن من بلاء هو ارتكابه الذنوب والمعصية بعد أن أجهد نفسه لفترة طويلة في العبادة والأعمال الصالحة، فيضيع أجرها وتذهب جميعها سدى.

وجزه من عقيدتنا التي صرح بها القرآن الكريم، وبحثها العلماء في كتبهم الكلامية، هي أن بعض الذنوب التي يرتكبها الإنسان قد تحبط جميع أعماله الصالحة، فيضيع أجرها هباءً، والعكس صحيح، فقد يرتكب الإنسان كثيرًا من الذنوب، لكنه بعد فترة يتوب إلى الله، ويأتي بأعمال صالحة تكون تكفيرًا لتلك الذنوب وغفرانها ومحو أثرها تمامًا.

وعن مسألة حبط الأعمال الصالحة للكفار وزوال أثرها، يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ - فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ



٣١٧



فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١﴾

كما أن تقوى الله تكون سبباً لتكفير السيئات وغفران الذنوب، حيث يقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢).

فالإمام السَّجَّاد (عليه السلام) يسأل الله أن يجعله من صفوة عباده الذين اختارهم لنفسه، ومَنَّ عليهم بمقام القرب منه في وسط الجنة مركز نعيم الله وخيره وبركته، وأنزلهم منزلاً رفيعاً في الجنة دار كرامته ورحمته، وأقرَّ أعينهم بالنظر إلى جمال وجهه الكريم يوم اللقاء، وأورثهم منازل صدق عند مليك مقتدر في جواره تعالى، وقد عبَّر الله عن هذه المنازل في القرآن الكريم بعبارة «مقعد صدق» (٣)، وهي منازل في الجنة أعدَّها الله لخاصة عباده ليأنسوا بجواره، ويشعروا فيها بالاطمئنان والرضا، فهي بحق تليق منزلاً للمؤمنين لينعموا في جوار الله تحت رحمته وفي ظل لطفه وكرمه.

التضرع ملجأ من لا ملجأ له، وناصر من لا ناصر له

«يَا مَنْ لَا يَفِدُّ الْوَافِدُونَ عَلَى أَكْرَمِ مِنْهُ،
وَلَا يَجِدُ الْقَاصِدُونَ أَرْحَمَ مِنْهُ، يَا خَيْرَ

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٢٩.

(٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥١﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾. سورة القمر، الآية ٥١.



مَنْ خَلَا بِهِ وَحِيدٌ، وَيَا أَعْطَفَ مَنْ أَوْى
إِلَيْهِ طَرِيدٌ، إِلَى سَعَةِ عَفْوِكَ مَدَدْتُ يَدِي،
وَبِذِيلِ كَرَمِكَ أَعْلَقْتُ كَفِّي، فَلَا تُؤْنِي
الْحِزْمَانِ وَلَا تُبْلِنِي بِالْخَيْبَةِ وَالْخُسْرَانِ، يَا
سَمِيعَ الدُّعَاءِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

في هذا المقطع الأخير من المناجاة يصف الإمام السَّجَّاد (عليه السلام) الله بأنه أكرم من يَفِد عليه الوافدون، فهو معدن الكرم والرحمة واللطف، وهو منبع الرحمة والرأفة، فلا يقصده أحدٌ إلَّا ووجده أرحم الراحمين، وهو خير مقصود، ما قصده سائلٌ إلَّا ووجده منبع الخير والبركة، وهو أَرَأف بالغريب إذا ما لجأ إليه، وأعطف بالطريد الذي أبعدته الأهل والعشيرة عنهم، وخير مؤنس للوحيد إذا ما تركه الأحبة والأقرباء، وخير من ينجيه في خلواته، ويأنس بمناجاته، ويبتُّ له شكواه حتى يخفَّف عنه همُّه وحزنه، وهو ملجأٌ من لا ملجأَ له، فلا يجد الإنسان مكاناً يشعر فيه بالأمان والاطمئنان أفضل من جوار الله.

ثم يُناجي الإمام (عليه السلام) ربّه بعبارات لطيفة وبيان بليغ، فيقول: «إِلَى سَعَةِ عَفْوِكَ مَدَدْتُ يَدِي، وَبِذِيلِ كَرَمِكَ أَعْلَقْتُ كَفِّي».

يجب علينا أن نطبّق مضامين هذه المناجاة ومفاهيمها على أنفسنا حتى نفهم بشكل ملموس حقيقة ما يطلبه منا الإمام السَّجَّاد (عليه السلام). فلو طبّقنا مثلاً الجملتين الأخيرتين على أنفسنا، لشعر الإنسان منّا كأنّه يقف على شفا حافّة من علو شاهق وأسفله نار عظيمة مستعرة إذا ما انزلت قدمه سقط في هذه النار وقضي عليه في الحال. وفجأة يسقط من هذا



٣١٩



الارتفاع الشاهق؛ لكن وسط الطريق وقبل أن يسقط في النار يرى مقبضاً فيتمسك به ويتخذ به وسيلةً للنجاة من الموت المحتوم.

فالإمام عليه السلام يُناجي ربه فيقول: إلهي مددتُ يدي فتمسكتُ بسعة عفوك وكرمك ورحمتك؛ أي: لولا عفوك وكرمك لسقطتُ في نار جهنم ولم أجد سبيلاً للنجاة منها.

فعندما يعيش الإنسان في حالة من الغفلة والضلال، ستُبْعده ذنوبه ومعاصيه عن الله، فيؤول مصيره إلى عذاب النار، فهو بأعماله السيئة قد عبّد طريق سقوطه وانحطاطه، وكتب لنفسه مصيراً أسود في عذاب نار جهنم. ومثل هذا الشخص إذا ما أراد النجاة من هذا المصير المحتوم في النار، فليس له سبيل سوى التوسّل والتمسك بحبل سعة عفو الله وكرمه؛ لأنه لا يملك في صحيفه أعماله شيئاً أو عملاً يمكن أن ينقذه من هذا المصير السيئ.